هذه الصغيرة

وقصص أخرى

ترجمها وقدم لها

أنيس منصور

قراءات مختارة

هذه الصغيرة

وقصص أخرى

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك



هذه الصغيرة

وقصص أخرى

اختارها

بينيت سيرف

ترجمها

أنيس منصور وآخرون

راجعها وقدم لها

أنيس منصور

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

RIVER by Thomas Wolfe. Copyright 1935 by Charles Scribner's Sons. By permission of the Estate of Thomas Wolfe.

« Eugene » from THREE BLUE SUITS by Aline Bernstein. Copyright 1933 by The Equinox Cooperative Press. By permission of Mrs. Peter Cusick.

« Race at Morning » from BIG WOODS by William Faulkner. Copyright 1955 by The Curtis Publishing Company. Published by Random House, Inc.

« The Coming of Pan » from THE CROCK OF GOLD by James Stephens. Copyright 1912, 1940 by James Stephens. Published by The Macmillan Company.

« What is a Boy? » and « What is a Girl? » by Alan Beck. By permission of New England Mutual Life Insurance Co.

« Gertrude the Governess: or Simply Seventeen » by Stephen Leacock. By permission of Mrs. Donald Nimmo.

« The Venturers » from STRICTLY BUSINESS by O. Henry. Copyright 1910, 1938 by Doubleday & Company, Inc.

« The Pipe » from KEEP IT CRISP by S. J. Perelman. Copyright 1946 by S. J. Perelman.

المشتركون فى الكتاب

صاحب المجموعة

بينيت سيرف : ولد فى نيويورك . تلقى دروسه فى مدرسة الصحافة التابعة لجامعة كولومبيا وتخرج منها فى سنة ١٩٢٠ ، وكان يعمل فى الصحافة وهو طالب كما كان عضواً فى جمعية الطلبة الممتازين .

ولما أتم دراسته تولى تحرير صحف ومجلات عديدة . وفى سنة ١٩٢٧ أنشأ مع شريك له دارا للنشر باسم « راندوم هاوس » وقد اشتهرت هذه الدار بجودة مطبوعاتها فى أنحاء العالم الذى يقرأ الإنجليزية . وهو من الرجال الذين لا يكلون من العمل فيؤلف ويحاضر فضلا عن عمله الصحفى .

المترجم وصاحب المقدمة

أنيس منصور : نال ليسانس الآداب (قسم الفلسفة) من كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٤٧ ، عمل معيدا بقسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، ثم تركها ليعمل بالصحافة . قامت شهرته على مقالاته وأبحاثه التى نشرها فى أمهات الصحف المصرية وهى تدل على غزارة المادة والاطلاع الواسع فى الآداب الأوربية ، فضلا عن رشاقة قلمه وتميزه فى أسلوبه .

مصممة الغلاف :

سميحة حسنين . درست الرسم فى معهد فرنسى بالقاهرة عام ١٩٤٨ .
التحقت بدار الهلال منذ عام ١٩٤٩ حيث تعمل بجميع أقسام التحرير والإعلانات فى صحف الدار ، كما أنها عملت بمجلات وصحف كثيرة ، وتقوم بالإشراف الفنى على مجلة الشهر . اشتركت فى معرض البينالى بإيطاليا عام ١٩٥٢ . كانت من بين الرسامين الذين اختيروا عام ١٩٥٣ لتسجيل أحداث الثورة بالرسوم ، وضمت اللوحة التى رسمتها إلى المتحف الحربى .

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

كلمة

قرأت كلاما لأحد حكماء الصين يقول : أحسن طريقة لتنام مستريح البال هو أن تفتح كتابا قديما فى موضوع لا يهمك . وخير الكلام ما كان سخيفا ... و بعد ذلك ستنام .

وقرأت مقالا لأديب يابانى يشكو من الأرق ـ مثلى ـ يقول : نظرة من النافذة إلى الحديقة ، و إلى السماء ، و إلى نفسى . ولحظات فى كتاب يتحدث عن حلاوة الحياة ومزايا الزواج ... كل هذا يرد النوم إلى عينى ، ويضع عينى فى مكانها من وجهى ، و يضعنى فى مكانى من السرير . لقد جربت كثيراً ، ولا أتهاون فى راحتى أبدا ... ولذلك سأتركك فقد حان موعد نومى ... آه ... آه . . هكذا أتثاءب !

وهذه القصص والمقالات المترجمة فى هذا الكتاب هى وسط بين حكمة أديب الصين وأديب اليابان . ولا أقول إنها تستدرج النوم إلى العين ، أو تسحب النوم إلى العين كما « تجرجر » الأم طفلها الصغير إلى المدرسة فى أول يوم من العام الدراسى .

وقد قرأت هذا الكتاب بعد ترجمته ولم أنم ؛ فقد كنت أتمنى أن أقرأ لكل هؤلاء المؤلفين أكثر وأكثر . وليس تلهفى ونهمى هذ مدحاً فى الكتاب ، ولكنى أعرض عليك علتى ومرضى . . . فأنا

أحد الذين يدمنون القراءة ليلا « ونهاراً » . ومن الذين لهم معدات تسيغ كل طعام وكل شراب .. وقد أكلت فى الصين ، والهند ، واليابان ، والفلبين ، وإندونيسيا ، أنواعا من الأطعمة لا أحب أن أذكر أسماءها هنا فقد يسيل لها لعابك ويطير لها نومك . وحتى لا تتهمنى بأشياء كثيرة ليس أقلها أننى أتحدث إليك عن نفسى ، وليس أقلها أننى لا أحسن تمييز الطعام ... ولكن هذه المعدة التى تهضم هذه الأطعمة الغريبة تهضم كل كلام مكتوب فى الأدب ، والعلم ، والفن ، والسياسة ، والرحلات ، والخرافة ، ولا ترفض ما يكتبه الكبار والصغار ، والبيض والسود والصفر . فالمعدة القوية هى التى لا تمشى على «رجيم» فى الطعام والشراب والقراءة.

وإذا أردت أن تعرف أى نوع هذه المعدة التى تهضم لك طعام حياتك ، أى نوع هذه المعدة التى تطحن هذا الوقود الذى يسيل أحمر فى عروقك ، أى نوع هذا المولد الكهربى الذى تحمله فى أحشائك ، فاقرأ هذا الكتاب ، ففيه كل لون من المقال والقصة ، وفيه شعر منثور .

وبعد هذا الكتاب لا تقل كم موضوعا قرأت ، ولا كم لحظة توقفت ، ولكن قل لى - ولنفسك أيضاً — كم استسغت ، وكم هضمت ، وكم فهمت .

وإذا لم يعجبك ذوقى في اختيار هذه المقالات ، فسبب ذلك سهل : اقرأ هذه المقدمة من أولها !

أنيس منصور

ل

هـذه الصغيرة



* إحدى مقالتين كتبهما « آلان بك Alan Beck » . لم ينشرهما في كتاب ولا في مجلة . وإنما أعطاها لإحدى شركات التأمين . فوجئت الشركة بأن زبائنها يطلبون المقالتين. وزعت منهما مليونى نسخة . طلبت الصحف الأمريكية هاتين المقالتين. نشرتهما « نيويورك تيمز » سجلتهما كل شركات الأسطوانات . أذيعتا في الراديو والتلفزيون . سئل المؤلف عن أحسن المقالتين ، فقال هذه ، التي ترجمناها هنا . المقالة الأخرى عن « ما هو الولد » ، أما هذه المقالة فعنوانها الأصلى « ما هي البنت » .

هذه الفتاة الصغيرة ـ وكل فتاة صغيرة ـ هى أروع شىء رزقه الإنسان ، فهى تولد وفيها قبس من نور الملائكة . وحتى عندما يبدو هذا النور خافتا في بعض الأحيان ، فإنه مع ذلك بهجة للقلب ، حتى لو مشت في الوحل ، وسالت دموعها على خدها ، أو لو مشت في الشارع تتباهى بأجمل ملابس أمها .

وهذه الفتاة الصغيرة من الممكن أن تكون أجمل وأسوأ ما في الدنيا كلها . انها تستطيع .

فهى تروح وتجىء وتحدث أصواتا مضحكة ، وهى تثير أعصابك ، ولكن في اللحظة التي تفتح فيها فمك ، فإنك ترى في عينها تلك النظرة التي لا تملك أمامها إلا أن تسكت . والطفلة هى البراءة تلعب ، هى الجمال يقف على رأسه ، هى الأمومة تجر عروسا من رجلها .

والطفلة يمكن الحصول عليها فى خمسة ألوان : سوداء ، و بيضاء، وحمراء ، وصفراء، وسمراء. وأمنا الطبيعة قادرة على أن تلبى نداءك عندما تريد. والبنات الصغيرات قد أثبتن خطأ قانون العرض والطلب ، فعلى الرغم من أن فى العالم ملايين منهن ، فإن كل واحدة لا يمكن تقديرها بمال .

والله يستعير الكثير من صفات مخلوقاته الأخرى لكى يصنع طفلة صغيرة . انه يستعير تغريد الطائر ، وصوت الخنزير ، وعناد البغل ، وشقاوة القرد ، وخفة الجرادة ، وفضول القط ونعومته ، وسرعة الغزال ، وخبث الثعلب ، ثم يتوج هذا كله بأن يزودها بعقل غامض لامرأة .

والطفلة الصغيرة تحب الأحذية الجديدة ، وفساتين السهرة ، والحيوانات الصغيرة ، ومثيرى الشغب ، والفتاة المجاورة ، والعرائس والخداع ، ودروس الرقص «والآيس كريم» والكتب الملونة ، والزينة ، والزيارات ، وحفلات الشاى ، وتحب ولدا واحداً . وهى لا تهتم كثيراً بالزوار والأطفال عموماً ، والكلاب الكبيرة، والكراسى غير المريحة، وملابس الانزلاق، ولا تحب البقاء فى البيت .. وصوتها يعلو عندما تكون ساكتا أنت ، وتكون سعيدة عندما تثيرك ، وفى غاية الهدوء عندما تحاول عقابها ، وفى أقصى درجة النعومة والملاطفة عندما تطلب إليك شيئا لا ينبغى أن تأخذه .

فأى شىء فى الدنيا يمكن أن يحزنك و يسعدك ، و يثيرك و يرضيك ، و يضايقك و يمتعك أكثر من حواء وسالومى وفلورنس نيتنجيل . ففى استطاعتها أن تربك لك البيت وشعرك وهدوءك ووقتك ومالك وأعصابك .
وعندما ينفد صبرك تظفر هى بالانتصار ، وتفشل أنت أمامها خصوصاً إذا تسلقت ركبتك وقالت لك : أنا أحبك أكثر منهم جميعاً .

بين زوجين



من قصة بعنوان « ثلاث بدل زرقاء » Three Blue Suits للأديبة الين برنشتين Aline Bernstein وهذه الأديبة تمتاز بروحها الرومانتيكية الحالمة . إنها هى الأخرى نغمة غريبة وحيدة فى عصر العلم ، إنها أقرب إلى توماس ولف الذى اخترنا له فصلا فى هـذا الـكتاب .

كان النهار ما يزال دافئاً . . واقتربت الساعة من الثانية عشرة . ولـكن النوم ما يزال ناعماً على وجه يوجين وكأنه قد غرسه فى السرير الذى تمدد عليه مكدوداً يائساً . قد غطاه النوم بأغطية ناعمة ، ولـكنه قد غطى ذهنه بأغطية أشد كثافة .

وكان وجهه مندى بالعرق ، كما أن موجات شعره الأسود قد تقاربت وتحولت إلى مئات من الحلقات برزت من تحت قميصه المفتوح . وقد تمدد بطول السرير ، وتدلت ذراعاه على جانبى السرير . أما رأسه فـكان قد انثنى إلى صدره . أما ملامح وجهه فهى دقيقة ولـكنها لا تتناسب مع جسمه . فالشىء الوحيد الذى يدل على حياته هو النبض السريع الواضح فى صدره وهو يعلو ويهبط من فتحة قميصه . وإحدى يديه تمسك بـكم معطف أزرق قد سقط على الأرض ، ويده الأخرى قد أمسكت بمفـكرة مفتوحة مغطاة بعبارات مكتوبة ، وقلم من الرصاص قد سقط من بين

أصابعه . وإلى جوار المفكرة يوجد فنجان من القهوة فى طبق لم يلمسه ، وكان الطبق مليئاً بأعقاب السجائر . وعلى أرض الغرفة كانت ما تزال هناك أعقاب أخرى ورماد سجائر ، وجوارب قديمة ، وياقة أو اثنتان ،و« كرافتات » . وتحت المعطف وتحت يده اليسرى كانت هناك كتب ، بعضها مفتوح ووجهها إلى الأرض ، و بعضها مفتوح إلى أعلى ، و بعضها متكدس ، وكلها تدل على أن صاحبها كان يقرأ قراءة طويلة .

وهذا الشاب على موعد للغداء مع الناشر ، وهذا الموعد بدأ يشق طريقه من وعى الشاب ، يشق طريقه بقوة فى مواجهة هذه الأمواج العالية للنوم . ولابد أنه قد استمع إلى وقع أقدام على السلم ، لأنها قد دخلت ومعها المفتاح . فانفتح جفناه على الرغم من أن نظراته ما تزال تحملق فى لاشىء ، إلا أنه كان يحاول جاهدا أن يعود إلى الحياة من عالم السحر الأسود الذى يختطفه كل يوم .

وحاولت هى أن تضع اللفائف على النضد، ولكن هذا النضد هو الآخر كأرضية الغرفة . كتاب لأعلى وكتاب لأسفل ، فناجين قهوة ، رماد السجائر وأعقابها ، أكواب قذرة وآلة كاتبة قديمة . إنها فضيحة أن يترك كل خطاباته منثورة هنا وهناك ليقرأها كل إنسان . إنها تستطيع أن تقرأها

هى نفسها رغم مبادئها فيزداد عذابها . إن النساء يطاردنه ؛ فهناك خطاب لو نشر لفصلت من أجله ناظرة مدرسة . وراحت تضع هذه الأشياء على مكتبه ووجدت كل أنواع صحف الصباح والأمس ، صحف أجنبية وصحف من بلده هو ، وكتب وكتب ، وخطابات وخطابات ، وأسوأ من هذا كله أعواد ثقاب « كبريت » مشتعلة . وكادت تصرخ ولكن ما الفائدة . إنه لن يتغير ، ربما كان يهتم بعض الشيء بمكتبه .

ثم ذهبت إلى المطبخ لتتخلص من هذه اللفائف ، وألقت نظرة يائسة على الأطباق المستعملة وعلى الأوانى المتسخة ، ثم قالت فى نفسها : «يا إلهى! كيف يستطيع أن يفعل هذا كله ، لقد نظفتها بالأمس ، ولو حاولت الآن لاحتجت إلى أسبوع كامل » . وخلعت قبعتها ومعطفها ووضعتهما فوق لفة من الملابس على مقعد .

* * *

ومع القبلة الأولى تلاشى حزنها .

ــ إن عنقك ما يزال مبللا بالعرق . . لك رائحة طفل ما يزال فى « اللفة » . . وفيك رائحة الكتب المبللة ، وأنا أحب هذه الرائحة .

واحتضنها بقوة ، وحاول أن يسحبها لكى تنام إلى جواره .

ـ إن لك رائحة الأوزة السمينة . . ولك رائحة زهرة ندية قطفت لتوها.

ـ ومن الذى سمع عن زهرة قطفت لتوها ؟

ـ أنت سمعت عن زهرة قطفت لتوها ، قد سمعت عنها الآن . وقليلون من الناس اليوم ، وفى هذا الزمان، عندهم هذه التجربة أو سمعوا عن شىء جديد تماماً . ثم أكثر من ذلك ان هذه الزهرة قد نبتت فى حظيرة قذرة ، ثم تغذت ونمت فى قمامات المسارح . .

ـ هذا صحيح .ولكن انظر ماذا تفعل الآن هذه الزهرة. إنها تستطيع أن تطبخ ألذ الأطعمة ، وتستطيع أن تصمم أحسن الأزياء . وأن تخيطها ، وأن تخلق الجو الرائع لمؤلف القصص . وأن تعمل هذا كله قبل أن يحين موعد غداء هذا المؤلف .

ـ غداء ؟ ألا تعرفين اننى يجب أن أذهب إلى المدينة . عندى موعد ويجب أن أذهب . وأنت هنا تضيعين وقتى، كالعادة تتكلمين؛ وتتكلمين، وعقربا الساعة يدوران ، ولم تنطقى بكلمة واحدة عن بدلتى الجديدة . فأنا أرتدى البنطلون« والصديرى » موجود على المقعد ، والمعطف على الأرض وعندى ياقة زرقاء بها نقط بيضاء فى جيب المعطف . وهذه هدية عيد الفصح . وأملى أنها لا تستطيع أن تعرفنى وأنا أرتدى هذه « الكرافتة » التى تناسب هذه البدلة الزرقاء .

ـ نسيت يا عزيزى أنك ستذهب إلى المدينة للغداء. فأتيت لك بكل ما تحتاج إليه . ولكنى سأعده للعشاء ، فهل تريد أن أعد لك العشاء ؟ فقد رأيت بطة فى السوق قصيرة وسمينة و بيضاء كالثلج .

ولكن قل لى لماذا نمت طول الليل ببنطلونك الجديد ؟

ـ إننى لم أنم طول الليل ببنطلون جديد ولا بأى شىء . لقد عملت طول الليل . وفى الساعة الخامسة صباحاً بدأت أجرب البدلة الجديدة ، عندما دق الجرس وجاء « تومسون ولكوكس » وتشرلستون . وكانا فى حفلة ساهرة طول الليل ، وأحضرا معهما زجاجة من الشراب وشربنا معا ، ورأيت أنه من المناسب أن أريهما بدلتى ، وجاء آخرون . وقد استدعى ولكوكس فتاته لأنها غضبت منه وكان لابد أن أتحدث إليها .وقلت لها : « ياديزى فكرى فى كل الفتيات اللاتى لن يستدعيهن أحد فى الساعة الخامسة صباحاً . الفتيات اللاتى لايطلبهن أحد.. . إنهن يعشن فى جحيم . هل تحبين أن تكونى واحدة منهن ؟ » فقالت : « إننى أقضى الليل كله على رجلى راكعة ، وأشكر الله أننى مرتبطة بسكير تافه » . وقالت : « قل له نيابة عنى اننى ذهبت للعشاء مع أحد أقاربه وشربنا كأساً من الشمبانيا وتمشينا على الجسر الجديد » . فقلت ذلك لولكوكس فأخذ يبكى . وعندما انصرفوا كنت مرهقاً فتمددت لأستريح لحظة قبل أن آوى إلى فراشى وكنت أقرأ . .

لأنها جميلة ، والمرة الثانية لأنها كانت إلى جواره ، رأسها على صدره تسمع ذبذبات صوته وشعره فى وقت واحد . فلماذا لايتجمدان هكذا ، ويتحولان إلى حجر ، لايرغمهما أحد على نهاية لايريدانها . وهى تعلم أنها يجب أن تنفصل عنه، فإما أن يرتبط بها أو ينفصل عنها . وقد يقرأ هو ساعات وتظل هى ممسكة بيده، وأحيانا تقول له وقد أمسكت بيده التى التفت عليها ساعته « يجب أن تحلق شعرك أيضاً » .

وحركت يدها لتستقر على قلبه الذى يدق ، ليحضنها من جديد . وأصبح الشعر فوقهما وحولهما ويربطهما معاً ويلهب من جديد حبهما الذى لاينطفىء . أخيراً كان عليها أن تتركه حتى لايغضب لأنها أخرته .. حتى لايصرخ فى وجهها . . فقد كان موعداً هاما ولا بد أن يذهب .

وقالت له : ياعزيزى . أرجوك أن تنهض وترتدى ملابسك . سأعد لك القهوة وأنت تستحم وتحلق لحيتك . هل تريد بعض البيض ؟ لا . أنا نسيت فأنت ستتناول غداءك . إذن بعض الخبز والزبد يكفى . وإذا بقيت هنا بعض الوقت فلنشرب القهوة . أرنى بدلتك الجديدة . . انها متجعدة « مكرمشة » هذه البدلة الجديدة . . لابد أن أكويها لك . ألم يكن ذلك الشاب الذى انتظرنا رائعاً ؟ ألم تلاحظ الطريقة التى بها . .

وقفز يوجين من السرير فى قوة وحيوية قائلا : يافتاتى أنت على حق . إنك لم تكونى على حق دائماً . . إنما هذه من المرات النادرة . إننى أريد

القهوة . ولا داعى للحمام . وستنشر الصحف الصباحية غداً بعنوان كبير « مستر يوجين ليون » اخترع عادة جديدة لتناول الإفطار . أمس شرب القهوة بلا حمام . ومستر ليون هو ابن السيدة فردريك ليون من شرلستون معروف جيداً فى الدوائر الرسمية . وهو مؤلف . .

— ماذا تقول ؟ لا حمام ؟ انهم لن يسمحوا لك بالدخول . ألا تعرف أن هذه المؤسسة تجمع الصفوة الممتازة من الناشرين فى البلد ؟ ان أحسن شباب العائلات يتمنون العمل هناك بلا مقابل وكذلك الفتيات .

وإذا أنت زحزحت هذه الأطباق القذرة فاننى سأملأ الغلاية وأنفذ الفقرة الأولى من الطريقة الجديدة فى الإفطار .

وكان يوجين يرقبها وهى تنظف المكان . وكان يدهش كيف لا توجد طريقة أخرى لتقوم الأطباق والحلل بتنظيف نفسها بنفسها وتنتقل إلى الدولاب أوتوماتيكيا . وبدأ يحلق لحيته ثم أمسك « فرشة » الأسنان ونظر إليها ، وتطلع إلى وجهه فى المرآة فترة طويلة ، ثم جعل يأتى بحركات مضحكة ويمد شفتيه إلى الأمام ويحرك ملامح وجهه . وأخيراً اتخذ سمت نابليون :

وقالت له : إنها الساعة الأولى إلا عشر دقائق أيها الأحمق .

ونظف أسنانه ووجهه ، وبدأت القهوة تغلى وتتصاعد أبخرتها وهذا

سيجعله يعجل بالخروج . هكذا تصورت هي . وراح يسحب موسى الحلاقة على وجهه من أعلى وجنته إلى أسفل ذقنه . ثم ينظر خلال الباب ليرى ماذا تفعل . وتساقط الصابون على بنطلونه . وأخذ يشير إليها والموسى في يده .

وراح يقول : أنا أعرف ما الذى يدور فى رأسك . أنت تعتقدين أننى كسول ، وأننى أنام كثيراً . مع أننى لست كسولا و إنما أنا مرهق . لأن عقلى فى عمل دائم . فعقلى يدق ألف مرة بينما أنت أيتها البلهاء تعتقدين أننى أضيع وقتى . فعقلى ليس ضيق النطاق ، وهو مكون من مجموعة من الغرف ، لكل واحدة رقم واسم ، وفى استطاعتك أن تقفلى واحدة وتفتحى الأخرى دون أن يؤثر ذلك فى تفكيرى . فهذا هو أغرب وأعجب . .

ــ لا يا عزيزى . ليس هذا صحيحاً . فأنا أحبك لدرجة تضغط على حياتى . فيغضبك أننى أستطيع أن أحبك وفى نفس الوقت أؤدى عملى . ولا حيلة لى فى ذلك ، فالله قد خلقنى هكذا . فالعمل الذى أقوم به لا يقارن بعملك . . ليس عميقاً ولا كبيراً . ولا أعتقد أنك كسلان . ولكن لماذا ترتبط دائماً على الغداء ؟ فنحن نعانى هذا الاضطراب كل يوم .

-- لأن الناشرين يريدون رفقتى على الغداء ، فأنا أسليهم ، إنهم

يحبوننى . ولماذا تتناولين أنت الغداء معى تسع مرات فى الأسبوع ؟ وأنت تضيقين بدعوات الناشرين لأنك تريدين أن تتناولى الغداء معى اثنتى عشرة مرة فى الأسبوع .

— إن الصابون قد جف على وجهك وعلى بنطلونك . الساعة الواحدة الآن . كيف تستطيع أن تصل إلى مكان المأدبة ، مع أنه بعيد ، وفى ربع ساعة ؟ هذا لغز لا أفهمه ، لعل عقلك الكبير سيحل هذا الإشكال .

وتلفت هو إلى البخار المتصاعد من حنفية الماء الساخن التى لم تغلق ، إنما ترك الماء ينحدر من « الحنفية » على حافة الطبق وتتناثر منه قطرات على حافة قدمه . إنه يريد أن يبقى ويتغدى معها . إنه يريد أن يذهب إلى المدينة ويتغدى مع واتكينز .. يريد أن يتمشى .. يريد أن يركب الأوتوبيس .. يريد أن يستقل « تاكسى » ويقتحم الباب .. يريد أن يبقى فى البيت ليكتب .. يريد أن يتمدد على السرير ويحتضنها .. يريد أن يشاكسها ويعابثها ويعذبها حتى تبكى .. يريدها أن تخرج وأن تتركه وحده .. يريد أن يطل من النافذة ويفكر بعقله فى اللانهائى .. يريد أن يفكر فى كل الكتب التى سيكتبها .. يريد أن يشرب كأساً من الزجاجة التى احتفظ بها فى المطبخ حيث لا ينبغى أن تراها .. يريد أن يعيش فى كل بيت ليرى كيف يعيش الناس .. يريد أن ينفذ إلى رأسها..

يريد أن يعرف كيف تفكر كل امرأة . . ففى رأس كل امرأة مسالك خلفية وانحناءات لم يستطع أن يهتدى إليها . سيأتى يوما ما بامرأة لتخبره بكل شىء عندما يحطم كل عظمة فى جسمها . وهذه الفتاة كانت تمسك نفسها دائماً ولن تعطيه آخر قطرة ، كانت تحتفظ بأشياء من أجل عملها . وهى صديقة إناس كثيرين ولكنه يحبها . . لو أنها أثبتت أنها طيبة .

وغلت القهوة ، وراح يزمجر ، وأطفأ فرن الغاز ، وتطايرت قطرات من القهوة فبللت بنطلونه مرة أخرى ، وأحس بالقهوة عند قدمه فراح يلعن ويشتم .

وجاءت هى بسرعة تنظف ما تطاير من القهوة بفوطة صغيرة ثم قالت له : « إسمع يا يوجين . هذا مضحك . سأقف هنا إلى جوارك حتى تفرغ من ارتداء ملابسك . استمر فى حلاقة ذقنك . سآتى لك بقميص نظيف . لا تقل لى إنك ستذهب بهذا القميص الذى ترتديه الآن ، لقد اتسخ من الحر والعرق . لا بأس من هـذا بالنسبة لى ولكن هؤلاء السادة الذين يعملون هناك . أريد أن تبدو أنيقاً اليوم .

وبدأ الآن يسرع وقد فرغ من الحلاقة ، ووضع رأسه تحت «الحنفية» ثم راح يجفف رأسه . وفى كل مرة يزداد بللا ، حتى أكمام معطفه على الأرض قد أصابتها القهوة من ذلك الطبق القديم . وأمسكت هى منديلا ونظفت

البدلة بقدر ما تستطيع . وكف هو عن السب والشتم .

واستقل « تاكسى » وأعصابه ثائرة تعذبه وكان هناك زحام شديد من السيارات . فقرر أن يمشى على قدميه فهذا أسرع وأفضل من أن يبقى سلبياً كتنا فى التاكسى . وعندما وصل إلى دار النشر وجد أنه قد تأخر نصف ساعة . وكان فى استطاعته أن يحتسى فنجانا من القهوة ، فقد استعجلته الخروج حتى لذعت القهوة لسانه .

و بدا كل إنسان مسروراً برؤيته . وقد كان أفضلهم جميعاً ،وأمل كل الكتاب الشبان، فكتابه بكل ما فيه من قوة وجمال كان كسبا لدار النشر، فهى التى اكتشفته . ورافقه صديقه إلى أحد تلك البيوت ذات الحجر الرمادى والبوابات الحديدية . وكان البار يشبه مكتباً كبيراً للمساومات وهناك أناس كثيرون يضحكون ويشربون الكوكتيل و ينادى كل منهم الآخر باسمه الصغير . وأثناء هـذه المأدبة الممتعة تحدث يوجين تسعة أعشار الوقت . وتحول نشاطه العقيم إلى مظهره الخارجى بدلا من قلقه الداخلى ، وذلك بتأثير المشروبات الطيبة . وقد تناقشوا فى كل شىء : الكتب ، والطعام ، والشراب ، واتجاهات العصر ، والمستقبل ، وماذا عساه أن يفعل بعد نشر كتابه الأول ، وأين يذهب ليكتب كتابه الثانى . واقترح واتكينز فكرة .

وعندما عاد إلى المكتب ، كتب يوجين خطاباً ، وعندما ألقى بالخطاب فى الصندوق ارتفعت سحابة سوداء فى رأسه وراحت تكبر وتتسع حتى شملت حياته كلها .

وتمشى فى الشارع ورأسه إلى أعلى ليستنشق نسيم الربيع ، وتوقف عند النادى يسأل عن خطابات له جاءت من أهله ، وكانت هناك خطابات كثيرة ، ونصف زجاجة من الخمر ، وكان ظمآن ، وتمشى فى البهو الكبير الرحب النظيف ، وصعد السلم إلى مكتبه ، وكان من المستحيل أن يقاوم المقاعد الوثيرة ، فلا مانع من أن يستريح بعض الوقت وأن يفكر كيف يروى لها كل هذا ، وبدأ يقرأ بعض المجلات الفكاهية ، وراح يفكر وهو يقلب الصور ، لا بد أنها ستستمتع بهذه الكتب ، ومن المؤسف أنه لا يستطيع أن ينقلها إليها فى البيت، ما أروع الهدوء تحت الأضواء الخافتة !

— مستر ليون، مستر ليون ، مستر ليون ، مستر ليون .

واستجاب عقله النائم عندما أصغى إلى اسمه .

ووقف الشاب ينظر إليه « اننى أكره أن أناديك يا مستر ليون ، ولكن السيدة طلبتك بالتليفون مرتين » نظر إلى الساعة ، كانت السابعة ، وكان قد وعد أن يكون فى البيت فى الثالثة .

كان الليل رائعاً ، وتمنى أن يتوقف ليشترى لها شيئاً تحبه ، ثم إنه

يريد بعض الشراب ، كانت لطيفة ، لا أحد يشبهها ، انها تعرف كيف تجعله يعيش وماذا يعجبه ، وكان قلبه مليئاً بالحنان إليها ، ومشاعره بالنسبة لها هي الحب ، ولكنه كان يتمنى لو يستطيع أن يضعها في حقيبة وأن يخرجها عندما يشعر بالرغبة في ذلك . ولكنه في بعض الأحيان لا يستطيع ، فهو عندما لا يريد أن يراها يجدها تقول شيئاً أو تعمل شيئا يؤثر فيه . ربما كان هذا هو السبب في الزواج . ففي الزواج فقط يوجد الحب الخصيب . وقد كان واتكينز على حق ، فهذه العلاقة لم تجلب له إلا الغيرة وإلا الألم في النهاية .

* * *

وكانت ما تزال واقفة أمام للموقد تقلب شيئاً في « الحلة » . وتظاهرت بأنها لم تسمعه عندما دخل . وكانت تتحدث بصوت عال . ثم استغرقت في الضحك . وسألته :

— هل أمضيت وقتاً طيباً ؟ ماذا قالوا لك ؟ هل كان واتكينز لطيفاً معك ؟ أنا متأكدة أنهم يحبونك جداً ،ومن الذى لا يستطيع أن يحبك ؟! فأنت أروع إنسان في العالم . ولكني أنا المرأة الوحيدة التي تستطيع أن تقاومك . انظر . سأفتح الفرن وأريك صورة : هل رأيت أروع وأسمن من هذه البطة ؟هل تعرف ياعزيزى أنني كنت أفضل أن أطبخ لك الطعام

على أن أقوم بأى شىء آخر فى الدنيا ، أفضل أن أستمع إليك عن أى شىء آخر . إن كلامك عن أى شىء هو أجمل من هذا الشىء .

وكانت سعيدة بعودته . وقد عملت من الصباح الباكر وهذه هى المكافأة .

— سأخبرك بكل شىء . لكن يجب أن أجلس وأن أستريح . لقد مشيت طول الطريق . يا عزيزتى هل تعرفين كم عدد الأسئلة التى توجهينها إلىّ ؟ إنها جميعاً لا معنى لها . فأنت لا تنتظرين أبداً الجواب .

— إنها ليست بلا معنى ! إنها أسئلة لا بأس بها . انها تدلك على ماذا أريد أن أعرف ، وتنقل إليك صورة حالتى النفسية . طبعاً أنا لا أتوقع أى جواب الآن بل لن أصل إلى جواب حتى إذا أردت . فأنا لا أتوقع أى شىء وكل ما أريده هو شىء من الرقة .

وطوقها بذراعيه . وقبل وجهها الأحمر الدافىء مئات المرات . وقاومته ، وحاولت أن تخلص يدها التى تمسك ملعقة كبيرة ولكن بعد أن سال الدهن من الملعقة على ملابسه . ما أحمقه ! ولكن ما أروعه أيضاً ؟

— اذهب واسترح يا عزيزى بينما أمضى فى طهو عشائك . وسيكون مساء طويلا جميلا ، وسأحدثك عن كل ما رأيت فى الشارع وأنا فى طريقى إليك ، سأحدثك عن كيف كانت نيويورك وأنا طفلة ، وأنت تحدثنى

عن غدائك وعما حدث . أولا نشرب نخب صحتنا .

وجلس يوجين حيث يستطيع رؤيتها . اتخذ الكرسى القديم الذى يجلس عليه شكل جسم يوجين . شرب كأسه ببطء . أما هى فتؤدى أعمالها بثقة و بسرعة . و بعد ذلك أتت بالأطباق الساخنة ، والبطة ، والخضراوات وطبق السلطة . وأكلا حتى لم يعد هناك مزيد .

— ألست سعيداً يا يوجين لأنك أصبحت مؤلفاً كبيراً ورجلا ؟ وإلا كان مصيرك أن تغسل الأطباق .

— ألا تستطيعين أن تتركى الأطباق ،أو نغسلها معاً ، أو نلقى بها من النافذة إذا أردت . أريد أن أتحدث إليك ياعزيزتى. أريد أن أتحدث إليك.

ووقفت ساكنة . . يبدو أن هناك شيئاً . . وصوته مختلف ، وتلفتت إليه « ماذا حدث يا يوجين ؟ قل لى بسرعة . ألن ينشروا كتابك ؟ »

— لا . ليس هذا . انهم فوجئوا بالكتاب . انه شيء آخر . تعالى هنا يا عزيزتى سا ...

— قل لى حالا يا يوجين ما هى الحكاية ؟

و بدأ قلبها يدق عالياً فى أذنيها ؟ « ماذا قال لك هؤلاء الناس ؟ » واتسعت عيناها وملأهما الخوف .

و بدأ يتنحنح ويقول : « من رأى واتكينز أن أسافر إلى الخارج

لمدة سنة لكي أستعد يا حبيبتي للكتاب الجديد » .

وسقطت الأطباق على الأرض. وأطبقت يدها على حلقة وابتعدت عنه.

— كم سيدفعون ؟

— ٢٥٠٠ دولار في السنة . أما الدراسة فعلى حسابهم .

— اذن فأنت قد تخليت عني و بعتني بـ ٢٥٠٠ دولار . هل تبيعني يا حبيبي؟ لا يمكن أن تعني هذا . ماذا يعرفون عنك ـ انهم جماعة من الحمقى ، انهم لا يعرفون أنني هنا . هل أخبرت واتكينز عني وعن حبنا ؟ أنت تخجل من هذا الحب؟ ولذلك لم تخبر أحداً به . أنت لم تشأ أن تجعلني أقابل واحداً من هؤلاء .

— لقد أخبرته أن لي صديقاً عزيزاً أكره أن أتركه ، فهذا صعب علينا نحن الاثنين . تعالى يا حبيبتي . نامي إلى جواري بعض الوقت . اهدئي الآن . اهدئي .

— كيف تعيش ثم ترتكب هذه الفعلة ؟ كيف تأكل أو تتنفس الهواء بعد أن اتخذت قرارا كهذا ؟ كيف ؟

ثم استغرقت في البكاء وعجزت عن الكلام وهي تقول : « كيف تفكر في ابعاد يوجين الذي أحببته ؟ ألم تعدني بأنك لن تتركني ياحبيبي؟ وقلت إننا ما دمنا أحياء فلن .. تذكر .. تذكر المرات التي قلتها » .

وبكت وانحدرت الدموع على كتفيها وعادت تقول: « وهذا الصباح هنا إلى جوارك تمنيت لو أتحول إلى صخر .. أن أموت. فالحياة بغيرك ..»

— كفى . اننى أكره الناس الذين يريدون أن يموتوا . أحتقر كل..

— لا أريد أن أموت . أحب الحياة ولكن ليس بهذه الشروط الكريهة . أنت تعرف أن أحداً لم يجد الدنيا حلوة كما وجدتها . ولكن ما فائدتها بغيرك يا حبيبي ؟ كيف تفعل هذا ؟ أى شىء يعدل فى الدنيا كلها عذابى وألمى .

— يا حبيبتى . اننى لن أذهب . إن ذراعى يوجين تحتضنانك هنا . والآن . انى أحبك . وحياتى لن تعرف حباً آخر كهذا مرة أخرى . انى لن أبقى هناك . سأحاول أن أبقى ستة شهور ثم أعود اليك . اننى أعدك .

— لا تستخدم أبدا هذه الكلمة « أعدك » لا تستخدمها أبدا . أنت لا تعرف معناها ، انها كلمة ذهبية. أما بالنسبة لك فهى كلمة مؤقتة تملأ الفراغ الذى ينقصك . هل تظن أنك تستطيع أن تجعل منى بلهاء مرة أخرى بهذه الكلمة ؟ . هل تستطيع أن تهدىء نفسى قبل سفرك ؟ .

وبدا ليوجين أن محيطا من الدموع سينزل من عينيها . لقد كان الموقف مخيفاً . وحاول أن يريحها ولكن لا تهدئة فى مثل هذا الموقف . فاما أن يبقى أو أن يسافر . وكان الحل عنده أن يسافر . وبدأت تهدأ قليلا

ولـكنها كانت متعلقة به ، حتى كان من العسير عليه أن يتحرك. وكره هذا كله . فقد كان يتمنى من صميم قلبه أن تسير الحياة على النحو الذى يريده . انه يريد عالما يتحرك فيه بمحض ارادته .. انه يريد أن يكتب ويفكر . . انه يريد الكتب أن تخرج مطبوعة من رأسه، لا ورق، ولا قلم، ولا كتابة ولا مراجعة . انه يتمنى لو استطاع أن يخبرها بحبه العميق لها وأن يقنعها بضرورة سفره . انه يتمنى أن يتمكن من هذا كله دون أن يفعله . . انه يتمنى أن يكون بعيدا فى الزمان والمكان .. أن يكون بعيدا لدرجة تمكنه من أن يؤلف كتاباً عنها .. ففى رأسه الكثير .. وحاول أن يأتى بفكرته. لقد كانت فى جيب المعطف . ونظر إلى وجهها .. كان جمالها حزيناً ، بكاء ، ودموعاً ، وحزناً ، جعلت وجهها يزداد احمرارا وانتفاخا كأنه ميدان معركة كلها ألم . انه لا يريد شيئاً من حزنها ، فلا ألم إلا ألمه .

وابتعد عنها وأخرج المفكرة من جيبه وكتب هذه العبارة : « ألا توجد ثورة بلا إراقة دماء؟ »

ونظرت هى إلى ما كتبه وقالت(لا. لا .) وصرخت وراحت تضربه بيديها فى وجهه ورأسه وصدره، وضربته حتى لم يعد لديها قوة .

ثم غرقا من جديد فى قبلة عميقة . وطلع النهار وهما نائمان .

الغليون



يمتاز سيـدنى جوزيف بيريلمان S. J. Perelman بروح المرح والفكاهة وإن كان من العلماء . ولكنه بدأ الكتابة فى المجلات الفكاهية وصدرت له كتب غريبة العناوين والموضوعات . اخترنا له هذا الفصل من كتابه « احتفظ بها كما هى » Keep it Crisp

فى نحو الساعة الرابعة من بعد ظهر أمس ، وقف أحـــد المنشدين المتجولين ، يحملق فى نافذة شركة « الفريد بانتويل » أشهر تجار الطباق (الدخان) فى « راديو سيتى » ، وقد أمسك بسلة مجدولة وعلى رأسه قبعة عريضة (بناما) فوقها سحابة من الريش ، بها بعض الزهر .

إن اسم بانتويل له احترامه وتبجيله بين مدخنى « الغلايين » فى كل مكان ، وقد انتشرت « غلايينه » وتخطت حدود بلاد كثيرة لم يصل إليها أو يرتفع فيها العلم البريطانى نفسه . . . وكان لفظ بانتويل المحفور على مباسم الغلايين دليلا على سمو مكانة من يستعملونها فى جميع بقاع الأرض من أقصاها إلى أقصاها .

إن « مونجو بارك » زعيم قبائل إفريقيا الاستوائية يقف بين قبيلته رزينا مزهوا بغليون بانتويل بين شفتيه ، كما أن هذا الغليون هو الذى أنقذ مصير بعثة فرانكلين القطبية من الهلاك .

وكنت أقف أنعم النظر فى واجهة أحد المتاجر ، والناس يدفعوننى بالمناكب وهم فى طريقهم إلى عقد صفقات قد تقدر بملايين الدولارات ، عندما خطر ببالى فجأة أن غليونا من «بانتويل» قد يكون مفتاحا لمستقبلى، وقد يكون فيه الطلسم السحرى الذى يحولنى من شخص مغمور لا أهمية له ، إلى رجل عظيم من رجال الأعمال ... وغمرتنى موجة من البهجة والسرور ... وتخيلت نفسى فى سيارة فاخرة من سيارات « شركة القرن العشرين » وبين شفتى « غليون » فاخر ذو مبسم فضى ، ثم نزلت منها ، ودخلت حجرة مديرى الشركة بغير اكتراث محييا الجميع بإيماءة صغيرة من رأسى ... ولم لا ؟ ! فقد أصبح أنا أيضاً واحداً من هؤلاء المحسودين الذين تنشر صورهم فى إعلانات ذات أربعة ألوان ، وهم يدخنون «غلايينهم» ويشربون ويسكى « أولد بجلج » ؟ .

واستجمعت نفسى ونفخت أوداجى وكأننى واحد من كبار رجال الصناعة ، ودخلت كعبة المتجر ... وشعرت بالأسى عندما لم يسارع عمال المتجر لاستقبالى وتقدير شخصيتى ... وبدا المكان الذى يخيم عليه الصمت المطبق ، فى نظرى ، كمتاجر المجوهرات الفاخرة فى بارك افنيو ... ورأيت بجوار إحدى « فترينات » العرض ، بائعاً جامد الوجه يرافق جماعة من ذوى الشوارب المفتولة ، كشارب صورة زجاجات خمر نابليون ... وبائعاً آخر يعرض قداحة على سيد عجوز مثقل بالماس .... وسعلت

اعتذارا ، ورميت البائع بابتسامة مشجعة تدله على أنى أعرف تماما موطىء أقدامى ، فنظر إلىّ العجوز شذراً من تحت حاجبين بارزين وزمجر قائلا :

« لقد أزعجتنا ياسيدى .. إنك لست فى مكان لقتال الديكة .. سحقا ! لقد أصبح هـذا المـكان أكثر ضوضاء من مجلس أمير هندى أو ساحة استعراض عام » . . وازدردت ريقى وكأن فى حلقى الشوك ، وتصنعت جهد استطاعتى عدم المبالاة بما يقول ... وقال البائع « إن الحرب قد جلبت طوفانا من الأجانب » . ولم يهدأ العجوز ولم تلن قناته وقال :

« كان من الواجب إغلاق الحدود، ولسوف يصبح هذا البلد مأوى لـكل من هبّ ودب ... دعنا من هذا كله ، وخبرنى يا هاركرايدر ، ما هذا الهراء الذى تقوله عن سيجارى « الشروت » من بورما ؟ » ... ورفض هذا العجوز المتعجرف اعتذار البائع بغرق الباخرة وطلب الاتصال ببانتويل نفسه . فقال هاركرايدر محتجا :

— ولـكن بانتويل قد مات منذ ستين عاماً يا سيدى .

فهدر العجوز وقال :

— هراء! يجب أن تخطر بانتويل باحضارها بنفسه ظهر الغد و إلا قطعت معاملاتى معكم !

ثم اتجه إلى الباب وهو يتميز غيظا حتى غادر المـكان . وتقدمت إلى

البائع فى بطء ، وطلبت غليونا ، وتكاد الكلمات لا تخرج من فمى ، فقال هاركرايدر فى حنق وهو ينظر إلى ثيابى : « لحظة واحدة » .

وغاب خلف ستار ، واندمج فى حديث مع مدير المتجر . وطرق سمعى كلمة « بط محمر » فأدركت أنهما يتحدثان عن طعام الغداء . . . وعاد البائع وقادنى فى صمت إلى إحدى فترينات العرض . . . ثم أخرج بعد أخذ ورد ، غليونا من خشب السيكامور مزودا بحلقة معدنية وقال فى لهجة البائع المتمرن :

— هل تعرف شيئا عن الغلايين ؟

فترددت قليلا ثم قلت :

— حسنا ! لا أعرف شيئا بالضبط ، فقد كنت ألهو فى طفولتى (بقولحة) ذرة . .

فقاطعنى قائلا :

— لاشأن لى بما تذكره عن طفولتك ، فأمسك عن الحديث عنه .

وبحركة سريعة وضع مبسم « الغليون » فى فمى وارتد قليلا إلى الوراء وأخذ ينظر إلى وجهى فى امعان ، فسألته عن السبب فى ذلك ، فقال لى فى ترفع وخيلاء :

— لا شك أنك وراء صيد كبير .

واستجمعت شجاعتى لأسأله عن المكان الذى انطلقت منه الرصاصة عندما انتزع الغليون من فمى . وقال :

— كلا . إنك لا تعجبنى فى هذا .. والآن خبرنى . ما هو النادي الذى تنتسب إليه ؟ .

فتلعثمت وقلت فى تأدب ظاهر :

— حسنا .... إنه نادى وليمز أفتر شيف (أى نادى وليمز بعد الحلاقة) إنه للرجال الذين تستطيب بشرتهم ذلك الطعم اللذيذ من ....

— كفى . كفى . وأين يرسو يختك الخاص ؟

ثم اربد وجهه وتقدم نحوى خطوة جريئة وقال :

— إن لديك يختاً ؟ أليس كذلك ؟

فزاد تلعثمى وقلت : — أوه . أجل إن لى يختاً بكل تأكيد ... انه يرسو فى الميناء فعلا و يقوم أحد البحارة بتنظيف مدخنته من أعشاب البحر .

فنظر إلىّ هاركرايدر فى ارتياب وعدم اقتناع . فاضطررت إلى أن أحدثه ببضعة اصطلاحات من كلام البحارة ولغتهم . ونجحت حيلتى، وقدم لى علبة مكسوة بالمخمل الأخضر و بها (غليون) صغير به آثار احتراق فقلت:

— إن هذا الغليون مستعمل وليس جديداً .

فقال : إنه مستعمل طبعاً . أو تظن أنك تستطيع شراء غليون جديد بسبعة وستين دولارا ؟

— كلا بالطبع . ولـكنى لاأخفى عليك أنى أرغب فى شراء (غليون) أقل ثمناً من هذا .

— أقل ثمناً ؟ . إذن يحسن بك أن تضع فى فمك قرعة صغيرة فارغة .

فضحكت وقلت : هذا ما كنت أقوله لزوجتى هذا الصباح .. ياالله ! . هل رأيت شيئاً يشبهها ؟ انها أسوأ من كلب بولدوج انجليزى .

— هل تريد القرعة الصغيرة الفارغة أم لا؟ إن ثمنها عشرون دولارا، وإن كنت أعتقد أنك لا ترى مثل هذا المبلغ طوال العام .

فشرحت له حقيقة الأمر ، وأخبرته أنى أريد مجرد (غليون) عادى أضعه بين شفتى ، أتجول به .. غليونا شبيهاً بالغلايين الانجليزية العتيقة وأشعر بنعومة ملمسه فى فمى . . وتوسلت إليه ، حتى أحضر لى (غليوناً) ثمنه ثلاثة عشر دولارا مزودا بحلقةمن الألومنيوم تحمل عصير النيـكوتين إلى الحلق قبل أن يفقد قوته .. ولـكى أظهر له امتنانى وشـكرى ، فقد اشتريت قنينة طباق فورا على هيئة جمجمة إنسان ، ورطلين من طباق بانتويل المضغوط وزجاجة من زيت الورد ، ومثقابا يصلح لتنظيف (الغليون)

وإزالة القواقع من أرض الزورق على حد سواء . . ودفعت الثمن وأخذت مشترياتى وعدت أدراجى إلى المنزل وأنا أعزف بفمى بضع مقطوعات من لحن (عروس بالمبادلة) .

وجلست فى مقعدى المزاز المحبوب بعد العشاء وأشعلت غليونى ، وأخذت أتصفح صحيفة المساء .

ولما أفقت وعدت إلى وعيي ، كان المسكن عبقاً برائحة شبيهة برائحة جنازة هندية تحرق فيها الأرملة حية مع زوجها المتوفى ، وقد وقف بجوارى إنسان غريب فى قبعة عالية يجس نبضى ، ويأخذ ما بقى من لفافتى . . وقال : « إذا اطرد التحسن بهذه النسبة فقد أستطيع مغادرة الفراش غدا » لقد كان معنى هذا القول عندى هو خروجى يوم الأربعاء ودخول السجن يوم الخميس ، حيث أكون فى ذلك الوقت على موعد مع القدر لقذف زجاج إحدى نوافذ مدينة « راديوسيتى » بحجر .

هذا الأخطبوط ظلموه..



* معلومات طريفة ممتعة جمعها جيلبرت كلينجل Gilbert Klingel عن هذا الحيوان العجيب . انه هنا يتحدث عنه بحرارة وحب . وقد نشر هذا الفصل فى كتابه « جزيرة المحيط » The Ocean Island الذى صدر سنة ١٩٤٠ .

إن شعورى بالنسبة للاخطبوط — كما كان شعور مارك توين بالنسبة للشيطان — هو أن أحدهم ينبغى أن يقوم برد اعتباره . لقد نشر جميع الكتاب الذين كتبوا عن البحر من فيكتور هوجو إلى الآن مجلدات ضد الأخطبوط وكان الأخطبوط ضحية — وهو لايدرى — لحملة دعاية هائلة ظالمة، وقاسى طويلا تحت وصمة اعتباره من الحيوانات المخيفة والمثيرة للاشمئزاز. ولكن أحداً لم يذكر القصة من جانب الأخطبوطات ، ولم يأخذ أى إنسان على عاتقه مهمة الدفاع عنها ضد الافتراءات التى انهالت فوق رءوسها الغريبة ذات الشكل العجيب . لقد حكمنا بإدانتها دون أن نستمع إليها . وذلك أكثر الإجراءات تحيزاً وظلما . وأنا أرى أن الأخطبوطات وأقاربها من السبيدج تعد من أعجب مخلوقات الأرض ، وهى لهذا تستحق احترامنا ، بله إعجابنا .

ويرجع اهتمامى بالأخطبوط إلى اللحظة التى استدرت فيها لأصعد خارجا من ذلك الوادى الملىء بالمياه عند قاعدة شعب أناجوا . كنت قد

وصلت إلى أسفل جزء من المنحدر الأخير ، وكنت على وشك أن أضع قدمي على قطعة صفراء من الصخر لأثبت نفسي عندما لاحظت عند قمة الصخرة الكبيرة عينا سوداء باردة ترمقني دون أن ترمش أو تتحرك . وعبثا حاولت أن أبحث فيها عن جفون ، وكان يبدو أن هذه العين قطعة من الصخر .

ثم فجأة شعرت بموجة من القشعريرة تسرى فى عمودى الفقرى . فأمام بصرى بدأت الصخرة تذوب وبدأت تتساقط على الجوانب كشمعة ساخنة ، وليست هناك طريقة أخرى لوصف ما حدث . ولقد أذهلتنى هذه الظاهرة ولم أستطع أن أفهم ما أراه إلا بعد مرور ثانية أو ثانيتين .

كانت هذه هى أول معرفتى بأخطبوط حى كامل النمو . لقد تمدد الحيوان إلى أسفل وشمل بقية الصخرة. وكان لحمه ملتصقا التصاقا شديدا بها. ثم تحرك ببطء بملامس تنتشر متباعدة بعضها عن البعض الآخر وانزلق إلى داخل شق مجاور . كان رأسه فى حجم كرة القدم ولكن ما إن اقترب من الشق الذى لم يكن اتساعه يزيد على أربع بوصات حتى انبسط ودس نفسه فى فتحته . ويبدو أن إقلاقى للأخطبوط أثاره بعض الشىء ، إذ سرعان ما تحول لونه من أصفر كالرمان إلى أسمر داكن مبرقش ثم عاد فأصبح أبيض ضاربا إلى الزرقة . وظل أبيض لمدة عشرين دقيقة تقريباً ، ثم تحول ببطء إلى اللون الرمادى الداكن يحيط به لون قرمزى مائل إلى السواد .

ووقفت فى مكانى ساكناً ولـكن الأخطبوط لم يقم بأية حركات ظاهرية ، وعندئذ ابتعدت عنه ببطء . إن هذا الحيوان قد يكون عميلا كريها ، لأن ملامسه كان طول كل منها خمس أقدام .

ولقد يبدو هذا التصريح الأخير متناقضاً مع الفقرة التى افتتحت بها الحديث ، ويجب أن أعترف بأن هـذا هو شعورى بالنسبة للأخطبوط فى ذلك الوقت . ومع ذلك فإننى منذ تلك الساعة قمت بجمع ومراقبة عدد من هذه المخلوقات بما فى ذلك السبيدج . ولقد وجدتها حيوانات على قدر كبير من الإدراك . ووجدت أنه ينبغى أن تعد من أكثر سكان البحر الجديرة بالاعتبار . إنها تتمتع بقدر كبير من الذكاء ، كما أنها حققت لنفسها نظاما فى الحياة من وضعها هى واحتفظت به قرابة ٥٠٠ مليون عام . فنحن نجد أسلافها بعيداً فى العصر الجيولوجى المعروف بالعصر الأردوفيشى . وهناك دليل قوى على أن أجداد الأخطبوط الحالى حكمت العالم تقريباً فى وقت من الأوقات . ولو أنها استطاعت اجتياز الحاجز الذى يتمثل فى حدود المحيط كما فعلت الحيوانات البرمائية الأولى التى انحدرت من الأسماك ، لـكان من المحتمل ألا يكون هناك حد للأشكال الغريبة التى كانت ستسكن الأرض .

وفى حدود التـكهنات المحضة تظل الحقيقة مع ذلك فى أن ذوات القوائم الرأسية ، وهو الاسم الذى يطلق على مجموعة الأخطبوطات كلها ،

قد تخلفت عن حالة الذكاء العقلى الذى يعتبر الإنسان أعلى مقياس لها بمسافة ضيقة الغاية . وهناك مسوغ للاعتقاد بأن هـذه الحيوانات تعد أذكى المخلوقات التى تعيش فى المحيط ، وأنها لو كانت قد أوجدت لنفسها إبهاما وأصابع متقابلة بدلا من الممصات لتمسك بها الأشياء لـكان من المحتمل أن يتغير طريق وجه الأرض كلها .

إن هناك أوجه شبه شديدة عجيبة بين تطور الذكاء فى الإنسان وفى الحيوان الحديث من ذوات القوائم الرأسية . فـكلا الاثنين له عقل على نمط خاص به ؛ لأن طريقة التطور العضوى تركتهما دون حماية مادية ضد تقلبات الطبيعة . فالإنسان الضعيف الصغير ، الذى لا يملك مخالب وأنيابا حادة ليصارع بها الحيوانات المفترسة وليست له سيقان طويلة ليهرب بها ، كان عليه أن يـكتسب الدهاء أو يفنى وينمحى .

والزيادة العجيبة فى الإنسان ، وهى الابهام المقابلة للاصابع ، جعلت من الممكن بالنسبة إليه أن يمسك ويستخدم الأدوات وأعطته دافعا للدهاء لا يمكن أن يوفره أى شىء آخر فى التطور العضوى . إن الإبهام تعد إلى حد بعيد أبرز جزء فى تشريح الإنسان . وليس الأدب والموسيقى والفن والفلسفة والدين والحضارة نفسها إلا النتيجة المباشرة لامتلاك الإنسان لهذه الإصبع .

وكالانسان سواء بسواء ألقيت ذوات القوائم الرأسية الحديثة إلى العالم

عارية دون تلك الحماية المسلحة التى كانت لدى أسلافها . ونظراً لأن ذوات القوائم الرأسية حيوانات صدفية وأشقاء فى الدم للمحار والودع والأسماك الصدفية ،فهى حيوانات هلاميةوانما جردت من قشورها الصدفية. والحيوان الوحيد من ذوات القوائم الرأسية الحالية الذى ما زال يحتفظ بأصدافه هو النوطل الذى يعد السلالة المباشرة للأنواع القديمة التى عثر على حفرياتها فى الصخور المضغوطة من العصر الكمبرى الأعلى . لقد صنفت أكثر من ثلاثة آلاف حفرية من حفريات النوطل ، وهى مجموعة ذات شأن تتراوح بين ذلك المخلوق الصغير الذى يبلغ طوله سبعة ملليمترات و يسمى Cyroteceras إلى ذلك المخروط الكبير الذى يبلغ طوله ١٤ قدما لحيوان Endoceras . ولقد تبقى من هذا الجيش ذى الأصداف القوية أربعة أنواع فقط تتصل ببعضها البعض اتصالا وثيقاً وتوجد جميعها فى جنوب الباسفيك .

ولكى تعوض فقدان أصدافها التى كانت حصونها الواقية ضد القدر عملت ذوات القوائم الرأسية العارية على أن تنمى فى نفسها دهاء وذكاء كالانسان ؛ فهى الوحيدة بين الحيوانات الهلامية التى اكتسبت عن طريق تركيز العقدة العصبية الرئيسية ما يمكن أن يعتبر عقلا بالفعل . هذا إلى أنها بتخلصها من أصدافها اكتسبت أيضاً حريتها وسرعتها وقدرتها على الحركة .

والأمان غالباً ما يسير مع الانحطاط يداً بيد . وانها لحالة عجيبة أن هذه المخلوقات التي تحيا في حراسة تامة يكون وجودها غاية في الكآبة . فأي شيء مثلا يمكن أن يكون أكثر أمناً وأكثر بلادة وسكوناً من محارة ترتدي بيتها المصنوع من الجير ؟ . إن فقدان الصدفة لم ينقذ ذوات القوائم الرأسية من الكآبة فحسب ، بل ربما أنقذها من الانقراض أيضاً. ان أجمل ذوات القوائم الرأسية المكسوة بالصدف في جميع العصور وهو حيوان العموني الملفوف برشاقة والذي سمي كذلك لوجه الشبه بينه وبين قرني الإله جوبيتر أمون اللذين يشبهان قرني الكبش والذي ظهر في العصر السلوري الأعلى واستمر حتى قرب عصر الزواحف — هذا الحيوان زال من الوجود لأن حجم هيكله الداخلي وتعقد حواجزه جعلاه على جانب كبير من التخصص بحيث عجز عن الاستجابة للتغير . وبعض حيوانات العموني الغريبة التي يعرف منها ستة آلاف نوع كانت لها محارات ملفوفة يزيد قطرها على ست أقدام .

و « ذوات القوائم الرأسية » — وهو الاسم العلمي للاخطبوط والسبيدج — أصبح يميزها كشيء غريب ، لأنه يشير إلى أنها تمشي على رءوسها . وهذا هو ما تفعله فعلا لأن ملامسها أو « أقدامها » توجد بين

عيونها وأفواهها . وليست هناك أية حيوانات على ظهر الأرض استفادت من هذه الحالة أو من هذا الأسلوب من أساليب التطور .

ومع ذلك فان حركة هذه المخلوقات الغريبة فى طريقة سباحتها تعد أكثر مدعاة للدهشة . انها تسبح فى شكل انسيابى جميل وتستطيع أن تنطلق بسرعة كبيرة . وأذكر أننى خرجت ذات مرة إلى البحر فى سفينة الصيد بالقرب من شاطىء فيرجينيا ، وكنت أجلس على ظهر السفينة فى الظلام أراقب النجوم وأتمايل مع اهتزاز السفينة الخفيف عندما سمعت فجأة رفرفة تتكرر سريعاً فى البحر ، كانت تذكرنى بالضوضاء التى يحدثها السمك الطائر ، ولكننى كنت أعلم أننى أبعد كثيرا إلى الشمال عن أية جماعة من هذه المخلوقات الخفيفة الطائرة . ونزلت إلى السفينة وعدت ومعى كشاف نفذت أشعته فى الظلام وتلألأت على قمم الموج. لقد كانت السفينة تمر بين قطيع من أسماك السطح الصغيرة تلتهمها مئات من حيوانات السبيدج . كانت السبيدج تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف بسرعة غريبة . والأغرب من هذا كان النظام الذى تعمل به . كانت مجموعات كبيرة بأكملها من هذه الحيوانات ذوات القوائم الرأسية تسبح فى اتجاه واحد وتندفع نحو حشود السمك فتمسك بها وتقضمها سريعاً ثم تدور فجأة كوحدة واحدة وتكتسح الضحايا المذعورة التى كانت تفر فى كل اتجاه . ولقد كان بعض السبيدج

ينطلق بسرعة هائلة حتى إنه عندما كان يقترب من سطح الماء كان يندفع خارجاً منه و ينطلق فى الهواء بضع ياردات ثم يسقط عائداً إلى الماء محدثاً رشاشاً خفيفاً . وفى الصباح وجدت عدداً منه على ظهر السفينة حيث قفز مسافة عمودية تبلغ ست أقدام على الأقل . وهناك سجل آخر مكانه بالقرب من ساحل البرازيل عن حشد من السبيدج كان يطير خارجا من الماء إلى ظهر سفينة ترتفع عن سطحه مسافة ١٢ قدماً وكانت محاطة لوقايتها بحاجز مرتفع يجعل المسافة التى قفزها السبيدج ١٥ قدما على الأقل . . وعندما طلع النهار كان هناك بضع عشرات من السبيدج جرفوها من فوق ظهر السفينة .

وذوات القوائم الرأسية وخصوصاً السبيدج يمكن مقارنتها بأقلام الحبر أو الحقن لأنها تمارس سباحتها التى تشبه الطيران عن طريق سحب كمية من سائل إلى داخل تجويف جسمها ثم دفعه إلى الخارج مرة أخرى ووجه الشبه بين هذه الحيوانات و بين أقلام الحبر يزداد إذا علمنا أن بعض ذوات القوائم الرأسية تحتوى على حبر وريشة . وليس هذا هو كل شيء لأن الطبيعة التى لا تقنع بتقديم كل هذه العجائب فى مخلوق واحد قد هيأت لهذه الحيوانات أن تسبح ، لا إلى الأمام كجميع المخلوقات الأخرى فحسب، بل و إلى الخلف .

إنها تستطيع أن تسبح إلى الأمام وإلى الجوانب أيضاً ، ولكن الطريقة الطبيعية هى الطريقة الأولى .

والريشة التى توجد فى أقلام الحبر المتحركة هذه هى بقايا الأصداف التى خلقتها لها أسلافها من عصر ما قبل التاريخ ، وهى لا تزال موجودة مثل الزائدة الدودية عندنا بلا فائدة سوى أنها دليل على استعمال سابق . وهذه الريشة تضاءلت فى الأخطبوط إلى عمودين فقط ، وفى السبيدج إلى قلم طويل رفيع مسلوب يشبه إلى حد كبير ريشة من الطراز القديم مدفونة فى الأنسجة بعمق . وبعبارة مفهومة نستطيع أن نقول ان الاخطبوطات والسبيدج حيوانات صدفية أحاطت بأصدافها .

وفى الحبر الذى يوجد فى هذه الحيوانات نواجه تناقضاً حقيقيا ؛ فهذا الحبر ، وهو أساس حبر الهند المعروف ، يستخدم فى غرضين متناقضين على طول الخط . ان الغرض منه تهيئة الاختفاء ، ثم على العكس من ذلك تمكين الحيوان من أن يظل على اتصال بزملائه . فعند ما يكون هناك خوف من وقوع هجوم من جانب الأعداء يدفع الحيوان الحبر إلى الماء لتكوين « ستار من الدخان » يستطيع وراءه أن يهرب إلى مكان يحتمى فيه . وهكذا فإن الفن العسكرى الخاص باستخدام ستار الدخان لاخفاء

تحركات الانسحاب عرفته ذوات القوائم الرأسية منذ فترة ترجع إلى العصر الجوراسى ، كما تثبت ذلك حفرية جميلة محفوظة عن هذا العصر تبين حقيبة الحبر مرسومة بشكل بارز فى طابع مضغوط لحيوان من السبيدج . غير أنه عند ما يهبط الليل على الماء ويغطى هذا الامتداد الأزرق لأعماق البحر فى ظلمة قاتمة فإن أعضاء مدرسة السبيدج يستطيع كل منها أن يكون على اتصال بالآخر بوساطة هذا الحبر نفسه . والمعتقد أن هذا الحبر يدفع بكميات كبيرة وتلتقطه أعضاء للشم على درجة كبيرة من الحساسية . وهذه الأعضاء يستخدمها الأخطبوط حين يكون وحيدا لكى يعرف مكان رفاقه .

وأنا لم تكن لدى فكرة عن قوة هذا السائل الحبرى حتى حدث اللقاء الثالث أو الرابع بأخطبوط الوادى . فلقد كنت أهبط كل يوم لمدة نصف ساعة أو نحو ذلك بالقرب من نفس الموقع فى الشعب . وكنت دائماً أختتم عملية الغوص اليومية بنزهة أخيرة إلى نهاية المدخل على قاع الوادى . وفى هذه الرحلات شاهدت عدداً من الأخطبوطات أغلبها أصغر من الاخطبوط الأول . وكان يبدو أنها تعيش فى شقوق بالقرب من قاعدة الشعب . وكل ما كنت أراه منها هو ملمس أو اثنان خارجان من أحد الشقوق ينتفضان أو يتلويان فى فتور . ولقد اكتشفت بعض هذه الاخطبوطات بوساطة الأكوام المرتبة من محارات الميدية وغيرها من الحيوانات الهلامية التى كانت توجد بالقرب من مداخل مخابئها . وبعض

هذه المحارات كان لدهشتى البالغة مقفلا . و يمكن الافتراض بأنها كانت مخزونة لحين ازدياد الشهية للأكل . والشيء المثير أيضاً هو أن المكان الوحيد فى أنجوا الذى كان يمكن العثور على محارات الميدية فيه هو أمواج الشاطيء الصخرى ، الأمر الذى يمكن تعليله بغارات الأخطبوط التى لا تنقطع على الجماعات منها إذا وجدت فى أماكن أكثر أمناً . ولهذا السبب ذهبت محارات الميدية — دفاعا عن نفسها كما هو موقفها دائماً — لتقيم فى المكان الوحيد الذى يمكن أن تعيش فيه دون ان تتعرض للازعاج . غير أن هذا المكان على العكس من ذلك كان اكثر المناطق عنفاً فى عالم ما تحت الماء. إنها فيه تكون بين الشيطان و بين البحر الأزرق العميق ، أو بعبارة اكثر دقة ، بين الشيطان والهواء الحار الجاف .

ولقد كان معظم هذه الأخطبوطات خجولا يسرع بالفرار إلى مخابئه بمجرد اقترابى و يبتعد إلى حيث لا يمكن الوصول إليه ، وهو رد فعل يختلف تماما عن النظريات المسلم بها عن شراسة الأخطبوط وميله إلى الأذى ، ولقد حاولت أن أمسك بعض الأخطبوطات الصغيرة ولكنها كانت تسرع بحيث لا أستطيع اللحاق بها . غير أن الأخطبوط الكبير عند منحدر الوادى بينما كان يبدو أنه ليس خائفا بدرجة كبيرة إلا أنه كان يبتعد منى دائماً ، وفى المرات القليلة التى لاقيته فيها كان دائماً ينسحب إلى شقه حيث لم يكن يختفى تماما ،و إنما كان يظل كاشفا على جزء من جسمه

وأذرعه غير المستقرة . وكنت فى أول الأمر أتركه وحده ، ولكن حب الاستطلاع بالنسبة لتغيرات لونه الغريبة شجعنى على أن أقترب منه .

وكان الأخطبوط دائما يبدو مغتاظا لوجودى . وربما كان اضطرابه يرجع إلى الخوف لأنه بالتأكيد لم يتقدم للقتال . وكان دائما يتعرض لسلسلة من التغيرات فى لونه لا تنقصها الغرابة . كان الخجل هو الخاصية التى يمتاز بها . وليست هناك طالبة فى أول غرام لها يمكن أن تكون قد تعرضت لحالات خجل أسرع أو أكثر من الحالات التى تعرض لها هذا الأخطبوط الغريب . وكانت الألوان الشائعة التى يتغير فيها هى الأبيض والبنى المبرقش ، والقرمزى المائل للسواد ، والرمادى الضارب إلى الحمرة ، وأخيرا الأزرق اللازوردى الذى يقترب من لون الماء . وعندما يصل إلى أقصى حالات الهياج كان يتحول إلى اللون الأبيض الذى أعتقد أنه رد فعل للخوف . وفى بعض حالات التغير كان يصبح مخططا ، ففى بعض المرات ظهرت عليه خطوط واسعة من اللونين القرمزى والأبيض ، وفى مرة أو مرتين ظهرت خطوط متموجة من اللونين الأزرق الفاتح والوردى الداكن . وحتى بعض البقع الحمراء والنقط الأرجوانية غير المنتظمة كانت تظهر ضمن ألوانه . ومع ذلك فإن هذه التغيرات فى الزخرفة كانت قلما تستمر طويلا .

ولقد كنت أسمع أن لمسة خفيفة على جلد الأخطبوط تترك علامة

ذات لون زاه ، وكنت متلهفا على رؤية هذه الحالة . واستعرت من البحار عصا طويلة وهبطت إلى قاع البحر مرة أخرى . كان الأخطبوط لا يزال في مكانه . وسبحت فوقه والعصا في يدى . وترددت أول الأمر في الإقدام على التجربة ، فلقد تصرف المخلوق برقة جعلتني أقرر أن أتخلى عن الاقتراب منه ، غير أن حب الاستطلاع القديم تغلب على فمددت العصا ببطء وضربت جسده على طول جانبه .

وعندئذ بدأت أشياء كثيرة تحدث . فانتزعت العصا من يدى وارتفعت إلى السطح واندفع الأخطبوط خارجا من الشق وقذف بسحابة كبيرة من الحبر الأرجوانى . وفى لحظة قصيرة رأيته يسبح بعيدا وكان يبدو فى شكل طويل لين . ثم وجدت نفسى محاطا بالضباب . ولم يكن هذا الضباب معتما ولكنه كان يشبه كثيرا ستارا من الدخان الكثيف فى الهواء الجاف حيث تصبح الرؤية متعذرة . والحقيقة أننى كنت فى غاية الاضطراب والفزع،حتى إن تفكيرى الوحيد كان الابتعاد عن هذا المكان . ومن تحت الخوذة جاءتنى رائحة خفيفة لا تشبه أية رائحة أخرى ، وأقرب وصف لها أستطيع أن أتصوره هو رائحة السمك . أما اللون فقد كان أكثر مدعاة للدهشة لأننى كنت دائماً خاضعاً للاعتقاد بأن حبر ذوات القوائم الرأسية حبر أسود . ولكنه بدلا من هذا ظهر أرجوانيا داكنا ، ثم خف بعد ذلك وتحول إلى أزرق سماوى قاتم . وأستطيع أن أتذكر أيضاً أننى

رأيت حين خف اللون خطوطا حمراء غير ثابتة عندما سقطت أشعة الشمس الآتية من الارتفاع البعيد على هذه المادة بزوايا مائلة . ولقد انتشر الحبر فى سحابة امتدت بضع ياردات واستغرقت بعض الوقت فى هذا العمق قبل أن تتبدد . والواقع أنها ارتفعت إلى أعلى لتطفو كضبابة قاتمة قبل أن تتبخر .

ولم أستطع الاستمرار فى مراقبة تغيرات الألوان لبضعة أيام حتى تمكنت من اصطياد أخطبوط صغير من بعض الأعشاب التى تنمو على بعد ياردات قليلة من الشاطىء بالقرب من المكان الذى تنتهى عنده الشُّعب إلى مناطق رملية ضحلة . ونقلت الحيوان الصغير الذى كان امتداده يبلغ سبع بوصات أو ثمانيا إلى بركة بالقرب من منزلى القديم ، حيث احتفظت به عدة أيام . واندمج الأخطبوط فى بيئته الجديدة بارتياح بالغ ولم يحاول أن يهرب ولكنه أحال الحياة إلى شقاء بالنسبة للعدد الهائل من الكابوريا والأسماك الصغيرة التى كانت تشترك معه فى البركة . وكانت الكابوريا هى فريسته الرئيسية ، فقد كان يمسك بها دون أن تشعر ، وعن طريق التربص لها منتظرا فى صبر . ولقد كان الصبر هو أظهر فضائله . وكثيرا ما كان يجلس عدة ساعات فى مكان واحد دون أن يتحرك متجها ببصره بلا هدف إلى الأشكال التى تتحرك فى الماء ، الأمر الذى كان يثير نفورى . وكان يستخدم قدرا كبيرا من الذكاء للحصول على

الـكابوريا ، وكان يختار موقعاً يتربص فيه حيث يكون مسيطرا على ركن بأكمله من أركان البركة .

وكانت الصخور التى يسكنها بنية اللون ، وكان هذا هو اللون الذى يتخذه حين تربصه لاصطياد فريسته . وكانت له سيطرة تامة على تغيرات لونه . وتعد الحرباء بالنسبة إليه فى هذه الناحية من الهراء . وهذه التغيرات فى اللون عمليات معقدة ،ولـكن الأخطبوط يسيطر عليها عن طريق تمدد وانـكماش مجموعة من الخلايا متصلة بأكياس ملونة وتعرف باسم الخلايا الملونة ، وتوجد هذه الخلايا فى الطبقات الخارجية من الجلد فوق سطح الجسم ، و بالإضافة إلى ذلك هناك سلاسل أخرى كـثيرة من الخلايا صفراء اللون وتشع وميضا غريبا متغير الألوان يوحى بعض الشىء ببريق اللآلىء . والخلايا الملونة وهى ذات ألوان مختلفة تفتح وتغلق حسب الإرادة وتتخذ أى لون من ألوان قوس قزح أو جميع هذه الألوان .

وخلايا اللون تحركها أعصاب شديدة الحساسية تتصل بالمخ والعين . والعين هى التى تحدد بصفة رئيسية اختيار اللون على الرغم من أن الانفعال يبدو أنه ذو تأثير حاسم . فعدما تشعر الأخطبوطات بالخوف فإنها تتخذ عادة اللون الأبيض أو لونا آخر خفيفا ، والهياج يجعلها تتفجر فى ألوان قاتمة . وليست هناك كائنات أخرى فى العالم تستطيع أن تغير ألوانها تماماً وبنفس

السرعة . ان الانفعال قد يجعل وجه الإنسان يحمر غضبا أو يصفر ألما أو قلقا ، ولكن ليس هناك من يستطيع أن يمسك يده و يجعلها بإرادته خضراء اللون ذات خطوط صفراء أو حتى ذات لون أصفر أو بنى خالص ، ودعك من الأزرق الفاتح أو اللازوردى . والفنان قد يرسم صورة ، ولكن الأخطبوط وحده هو الذى يستطيع أن يلون بشرته بما يصور انفعالاته أو يتخذ تماماً نفس لون التربة التى يقف عليها ، إن الكائن ذا النظام الدقيق الذى يملك عقلا وجهازا عصبياً على درجة غير عادية من التنسيق هو وحده الذى يستطيع أن يحقق أعجوبة إدارة آلاف من الخلايا مرة واحدة و يفتحها و يغلقها بسرعة فى نظام دقيق .

والحيوانات ذات القوائم الرأسية ليست مقصورة على تغيير اللون ولكنها تشتهر بقدرتها على أن تشع أقوى ضوء لامع فى مملكة الحيوانات . وعلى الرغم من أن إشعاع الضوء هذا مقصور على عدد قليل جداً من أنواع ذوات الأرجل العشر التى تعيش فى أعماق البحر — وهى حيوانات السبيدج ذوات الأذرع العشر — إلا أن ضوءها يكون ساطعا بدرجة يفوق معها ضوء الحشرة المضيئة التى تعرف باسم الحبحب . والأعضاء الضوئية يمكن العثور عليها فى أى مكان من الجسم بما فى ذلك مقلة العين نفسها ، والأغرب من هذا أنها توجد حتى داخل الحيوان . وفى هذه الأنواع الأخيرة تكون أنسجة الجسم شفافة حتى لا تحجب الضوء عند خروجه . وهذه الأعضاء

الضوئيةمتباينة تماماً . فبعضها ليس إلا كميات من سائل ذى بريق ، والبعض الآخر عدسات معقدة ومركبة بعناية ولها مرايا من نسيج عاكس . والواقع أنه حتى الآن لا يعرف إلا القليل عن هذه الأخطبوطات والسبيدج التى تعيش فى أعماق البحار ، وذلك على الرغم من أنه أمكن إمساك عينات قليلة منها وروقبت وهى تشع ضوءا قوياً يستمر لبضع ساعات وذات يوم ، عندما يتم اختراع الوسائل اللازمة لاستكشاف الأعماق السحيقة من المحيط بارتياح وأمان ، سوف نعلم الكثير عن هذه الحيوانات الغريبة .

ولقد كان أخطبوطى ينتظر فى مكان بعيد عن الأنظار حتى تغامر إحدى حيوانات الكابوريا بالاقتراب منه ، وعندئذ كان إما أن ينقض على الضحية ويكتم أنفاسها بملامسه الصغيرة ، وإما أن يندفع فجأة من مكانه ويمد أذرعه ويمسك بفريسته قبل أن تجد الوقت الكافى للفرار . وهو قلما كان يخطىء فى انقضاضه ، ولكن عندما كان يحدث ذلك كان يستعيد غداءه بمطاردة سريعة قبل أن يذهب بعيداً . وقبل أن تمر أربع وعشرون ساعة كان قاع البركة قد أصبح مفروشاً بدرقات الكابوريا المجوفة . والغريب أن الأخطبوط كان يلتهم ضحيته من أسفل ، فيقضم الصدفة السفلى اللينة بمنقاره الصغير الذى يشبه منقار الببغاء ثم يلعق محتويات الكابوريا بلسانه الذى يشبه المبرد قبل أن يلقى بالصدفة الفارغة بعيدا . وكان من النادر أن يأكل السيقان والأقدام ، ولكنها كانت تنزع عادة وترمى . وكان

القليل من تناول الطعام يتم فى أثناء النهار ، بل إننى رأيت عند الظهر واحدة من الـكابوريا تزحف فوق ملامس الأخطبوط المتراخية دون أن يزعجها أو دون أن تدرك الخطر الذى تتردى فيه . أما فى المساء ، وخصوصاً قبل الغروب مباشرة ، فإن الأخطبوط كان يمسك كل ما يستطيع الوصول إليه .

واصطياد إحدى الأسماك لم يكن بهذه السهولة تقريباً ، وعلى الرغم من أننى رأيت الأخطبوط يقوم بعدة محاولات لذلك إلا أنه نجح فى مرة واحدة فقط فى اصطياد سمكة صغيرة من سمك القوبيون كانت قد قررت لسذاجتها أن ترقد على بعد بوصات قليلة أسفل ركنه المختار ، وكما حدث بالنسبة لعدد من الـكابوريا أحيطت السمكة بالملامس الـكثيرة التى تتلوى . وما إن أمسكت بممصات هذه الملامس حتى كانت قد انتهت ، لأن الأخطبوطات فى طريقة هجومها تستخدم أسلوباً من أقوى الأساليب التى ابتكرت . وهذا الأسلوب يعد أقوى من المخالب المنحنية والأسنان الحادة ولا يفوقه إلا الإبهام المقابل للأصابع فى الإنسان .

ووقع هذه الممصات على الجسد العارى يعد غاية فى الغرابة . إنه ليس كريها ، ولـكنه فى حيوان صغير الحجم يعطى الإحساس بأن مئات من الأيدى المبللة اللزجة تشد البشرة . وقوة الممصات تدعو إلى الدهشة . اننى عندما حاولت أن أرفع الأخطبوط الصغير عن رسغى تعلق به فى إصرار ،

وحتى عندما خلصت جميع اللامس إلا واحدة فقط كان على أن أشدها بقوة لاتتناسب مع حجمه الصغير لـكى أخلص الممصات .

ولقد حدث فى بعض الحالات أن تمزقت اللامس قبل أن تتخلص الممصات من تشبثها . وهذه الممصات التى تعمل على نفس المبدأ الذى تعمل عليه كعوب المطاط الصغيرة التى نعلق بها الأشياء فوق الزجاج الأمامى للسيارات ، هذه الممصات تحرك بوساطة مكبس عضلى . فحافة الواحدة منها تثبت على الجسم ثم يرفع الجزء الأوسط ويسحب إلى الداخل تاركا فراغا . والممصات يمكن أن تتحرك من جانب إلى آخر ، إلا أنه فى حالة شدها مباشرة فإنها تبدى مقاومة وقوة كبيرة . وهى فى الأخطبوطات ليس لها عنق ولـكنها مركبة على نتوءات منخفضة . أما فى السبيدج فهى أطول قليلا ولها جذوع . وفى حيوان السبيدج الضخم تـكون حوافى الممصات مزودة بأسنان رفيعة تجعلها أكثر قوة . ولقد أمسك صيادو الحيتان عددا من الحيتان بها عشرات من الجروح المستديرة فى رءوسها أصيبت بها فى معارك عنيفة مع مردة من السبيدج فى المحيط . وبعض هذه الجروح كان قطرها يزيد على بوصتين ، الأمر الذى يدل على أن المخلوقات التى تملك هذه الممصات مخلوقات ضخمة .

إلى أى مدى ينمو السبيدج أو الأخطبوط ؟ . هناك رواية حقيقية عن سبيدج فى شمال الأطلنطى كان طوله يبلغ ٥٢ قدما . . وكانت ملامسه تمتد

مسافة غير عادية فتصل إلى ٣٥ قدما . أما الأقدام السبع عشرة الباقية فهى لجسده الأسطوانى الذى يبلغ محيطه ١٢ قدماً . وكانت عين هذا الحيوان العجيب يبلغ طولها تسع بوصات وعرضها سبعاً ، وهى بهذا تعد أكبر عضو للابصار فى العالم . أما الممصات فيبلغ قطرها بوصتين وربع بوصة، وما دامت بعض الجروح التى وجدت على الحيتان تزيد على هذا الرقم فليس مما يتنافى مع العقل أن نفترض وجود سبيدج أكبر من ذلك فى أعماق شمال الأطلنطى وربما يبلغ طول هذا السبيدج ستين أو سبعين قدماً . ومع ذلك فإنه حتى هذه الحيوانات العجيبة من السبيدج تكون فريسة لحيتان العنبر الهائلة التى تمزقها بأسنانها الطويلة القاطعة . وفى الكتاب العلمى المفضل « رحلة شاشالوت » يعطى المؤلف مستر فرانك بولين وصفاً واضحاً لمعركة دارت بين حوت ضخم من حيتان العنبر وواحد من السبيدج .

ويقول المؤلف « فى الساعة الحادية عشرة صباحاً كنت أقف مستنداً إلى سور السفينة أحملق فى سطح البحر اللامع عندما حدث اضطراب عنيف فى نفس المكان الذى كانت أشعة القمر تتركز فيه ، وكان الاضطراب هائلا حتى إننى رغبت أول الأمر ، وقد تذكرت موقعنا ، فى أن أحذر جميع العمال ، لأننى كنت أسمع دائماً عن جزر بركانية ترفع رءوسها فجأة من الأعماق أو تختفى فى لحظة واحدة . وكنت أشك فى الواقع فيما يجرى الآن . وأحضرت المنظار من الكابين حيث كان معلقاً فى حالة

استعداد وركزته على المنطقة المضطربة . وبعد فحص قصير اقتنعت تماماً بأنه ليس للبراكين أو الزلازل علاقة بما يحدث . غير أن القوى التى أحدثت الاضطراب كانت هائلة ، الأمر الذى ينهض عذرا لافتراضى الأول . كان هناك حوت ضخم يشترك فى معركة معينة مع حيوان من السبيدج فى نفس ضخامته . وكان يبدو أن ملامس السبيدج التى لا نهاية لها تحيط بجسد الحوت الهائل . وكان رأس الحوت يظهر كشبكة من أذرع تتلوى ، لأن الحوت كان يبدو كما لو كان يمسك الجزء الخلفى للسبيدج بين فكيه ويمزقه بطريقة منظمة . وإلى جانب رأس الحوت الأسود المنتصب كان يظهر رأس حيوان هائل من السبيدج وكان منظره مخيفا بشكل لا يمكن تصوره حتى فى حلم محموم . وإذا كان على أن أقدر حجمه بدقة فهو فى حجم برميل يسع ٣٥٠ جالونا ، ولكنه قد يكون ، بل من المحتمل أنه كان أكبر من ذلك بكثير . وكانت عيناه عجيبتين لأن حجمهما وسوادهما — بعكس بياض رأسه الضارب إلى الزرقة — كان يجعل منظرهما مثيرا . لقد كان طول قطرهما قدما على الأقل ، وكانت مشاهدتهما فى هذه الظروف أمراً مخيفاً مروعا . وكان يحيط بالحيوانين المتصارعين عدد كبير من سمك القرش يشبه جماعة من الثعالب تحيط بأسد ، وكانت الأسماك تستعد للمشاركة فى الوليمة ، ويبدو أنها كانت تساعد على تحطيم السبيدج الضخم .

ولسوء الحظ لم يذكر بولين نتيجة المعركة . ولكن الانسان يستطيع الافتراض بأن الحوت خرج منتصرا لأن طعام حوت العنبر يتألف خصيصا من السبيدج .

وإذا كان السبيدج والأخطبوط يتهمان بأنهما مخيفان ومتوحشان فمن الممكن الرد على هذا بأنهما يعيشان فى عالم ما تحت الماء حيث التوحش والغرائز البدائية هى أكثر العواطف شيوعاً وحيث الطريقة الوحيدة للحياة هى أن تتطابق مع الأسلوب السائد . وليس هناك شك فى أن حيوانا هائجا من ذوات القوائم الرأسية الهائلة يمكن أن يكون خصما مخيفا . ولكن الحالات الحقيقية التى هاجم فيها أخطبوط أو سبيدج آدميين أو غواصين حالات نادرة بحيث يمكن تجاهلها على الرغم من المؤلفات الكثيرة التى تقـــول عكس ذلك . ان الجانب الأكبر من توحش هـذه الحيوانات يكون محصورا فى الحصول على طعامها وهو عمل طبيعى ومعقول .

وما زالت هناك مهمة أخرى أكثر غرابة للامس الأخطبوط أو السبيدج . فهذه الأذرع تجعل تلك المخلوقات قادرة على تخليد جنسها . والأذرع التى تقوم بهذه الوظيفة تعرف باسم كأس المائة ،وهى الأذرع التى تحتوى على الحيوانات المنوية فى ذوات القوائم الرأسية وهى تنفصل وتبقى

فى الانثى . وهذا الاسم نتج عن خطأ وقع فيه كوفيير ولـكنه خطأ أمين يمكن تقدير ظروفه . والاسم أيضا يعنى الذراع ذات الخلايا المائة ، وقد وقع الخطأ عندما عثر على الجزء المنفصل من هذه الأذرع ذات الخلايا الـكثيرة معلقا بالغطاء المجوف لقوقعة أنثى واعتقدوا خطأ أنه نوع من الديدان الطفيلية . وأطلق على هذه الدودة الغريبة اسم كأس المائة ، ولم يكتشف هذا الخطأ الا عندما أجريت بحوث جديدة فى عادات التلقيح عند هذا الحيوان .

ويبدو أن ذراع القوقع الذكر تمتد فى أثناء فترة التلقيح حتى تصبح على هيئة سوط طويل يشبه الدودة . وهذا السوط يكون محملا بحيوانات الاخصاب المنوية . وعندما يتلاقى الذكر بالأنثى تتشابك ملامسهما فى عناق يشبه عناق قنديل البحر . وبعد أن ينتهيا من هذه العملية الجنسية الغريبة يودع طرف السوط تحت غطاء الأنثى حيث يظل بعض الوقت لأن الأنثى لا تـكون مستعدة بعد لوضع البيض . وعندما يخرج البيض أخيرا يخصب بوساطة السائل المنوى الذى يكون فى انتظاره . والذراع التى فصلت لا تصبح مفقودة إلى الأبد لأن الذكر يستطيع أن يخرج ذراعا ثانية وثالثة .

وذوات القوائم الرأسية مختلفة بدرجة تبعث على الدهشة حتى إن

لديها أنظمة أخرى للتوالد ، ففى بعض أشكالها لا تنفصل أذرع الخلايا المنوية وإنما هى مهيأة بحيث تستطيع إخراج ونقل الحيوانات المنوية إلى غطاء الأنثى بالقرب من قناة البويضات . والحيوانات المنوية نفسها تعد أغرب ما فى عملية التزاوج المعقدة هذه. انها نسيج يتخذ شكل أنبوبة طويلة تحمل السائل المنوى وجهازا لقذفه وتحمل ما هو أغرب من هذا كله وهى غدة لزجة لالصاق الأنبوبة بالأنثى . وهذه الأنبوبة يمكن استخدامها حسب الارادة ، وهو شرط حكيم يراعى أن الأنثى قد تختار فيما بعد الوقت المناسب لايداع البيض فى ظروف مناسبة . وفى بعض الأنواع الأخرى يكون الذكر ممسكا بالحيوانات المنوية عندما يخرج من غطائه ويضع فى غطائه الأنثى أو يلصقها بالغشاء المحيط بفمها حيث يخصب البيض فى بعض الأحيان .

وتبدى بعض ذوات القوائم الرأسية قدرا من الحب الأموى والعناية الأبوية يدعو إلى الدهشة . لقد روقب الأخطبوط العادى Vulgaris فى أحد متاحف الأحياء المائية وهو يحرس بيضه الذى كان ملصقا بجدار من الحجر . وكان يستنكر بعنف أى تدخل ويحرص على وجود دورة من الماء تجرى حول البيض حتى لا تمسك به أية طفيليات وحتى يزود بالأكسيجين المناسب . ولم يكن البيض يترك وحده لفترة طويلة تكفى لكى تحصل

الأم على الطعام رغم أن عملية التفريخ استغرقت وقتا طويلا . ولقد كانت الحراسة شديدة للغاية حتى إن أخطبوطا آخر من نفس النوع غامر بالاقتراب مرات كثيرة فكانت النتيجة أن هوجم وقتل . ويبدو أن الحب الأموى عند الأخطبوطات عاطفة شديدة غريبة ، غير أنه ليس هناك شك فى أن هذه العاطفة يحركها نفس الولع الذى يجعل الأبوين فى الإنسان يضحيان بسعادتهما ورغباتهما من أجل أن يذهب الابن أو شقيقته إلى الكلية مثلا

وعناية ذوات القوائم الرأسية بالبيض تعد مسئولة عن كثير من الأشياء المتناقضة تناقضا حقيقيا . فى فصيلة الأرجنوتا Argonauta تحمل الأنثى معها صدفة ملفوفة بشكل جميل بديع ، وهذا يبدو متعارضا مع ماقلناه من قبل من أن ذوات القوائم الرأسية الحديثة هى كائنات طرحت عنها أصدافها . والواقع أن صدفة الأرجنوتا ليست صدفة حقيقية ولكنها غلاف بيضة يتخذ شكل الصدفة الحلزونية وهو غلاف قوى من حيث التركيب والشكل وArgonauta ليست مقيدة بأية حال بهذه الصدفة لأنها تستطيع أن تتركها أينما تريد ، الأمر الذى تردد أنه حدث فى ظروف معينة . وليس هناك أى حيوان هلامى آخر مزود بهذه الطريقة . تخيل مثلا محارة فتحت غلافها وخرجت لتستنشق الهواء ، إن صدفتها تظل مثبتة بها بوساطة ذراعين لهذا الغرض . وأنثى الأرجنوتا هى وحدها التى تملك هذه الحماية وهى تكون صدفتها

لابغطائها كما تفعل جميع الحيوانات الهلامية الأخرى وإنما بذراعيها اللتين أعدتا لذلك بما لكل منهما من قرص غشائى منبسط . وعندما تولد الأرجنوتا فانها لاتكون ذات أصداف أول الأمر وهى لاتبدأ فى تكوينها إلا بعد أن يصبح عمرها أسبوعا أو أسبوعين . ولسوء حظ التاريخ الطبيعى لأرسطو فان هذه الحيوانات لاتسبح فوق سطح البحر كسفن صغيرة وتكون أذرعها ممتدة كالشراع كما كان يعتقد إلى حد بعيد ذلك العالم الطبيعى القديم الذى اشتهر بالبحث والدراسة ، ولكنها تزحف على القاع أو تسبح بمعونة ممصاتها كأى حيوان آخر من ذوات القوائم الرأسية . و بينما يكون بيض الأرجنوتا موضع حماية تامة ومحوطا بعناية أموية فإن الكبير منها يدفع ثمنا باهظا لامتلاكه الصدفة حتى ولو كانت صدفة غير حقيقية . فهذه الحيوانات فقدت بعض الذكاء والحرية التى تتمتع بها ذوات القوائم الرأسية الأخرى .

وشعب أناجوا لا تعطى حين تنظر إليها من فوق البحر أية علامة تشير إلى أنها تستضيف أخطبوطات لا بد أنها تأوى إلى شعابها أو بعض حيوانات من السبيدج الصغير ذى الخطوط الملونة تحتمى فى الأعشاب التى تطفو دائما فوق مجرى الماء . أو ماهو أكبر حجما وأبشع منظرا وهى حيوانات الديكابودا التى تتحرك فى مجموعات صغيرة فى الماء . كذلك لا يجد الغواص

ما يشير إلى وجود واحد من هذه الأنواع .

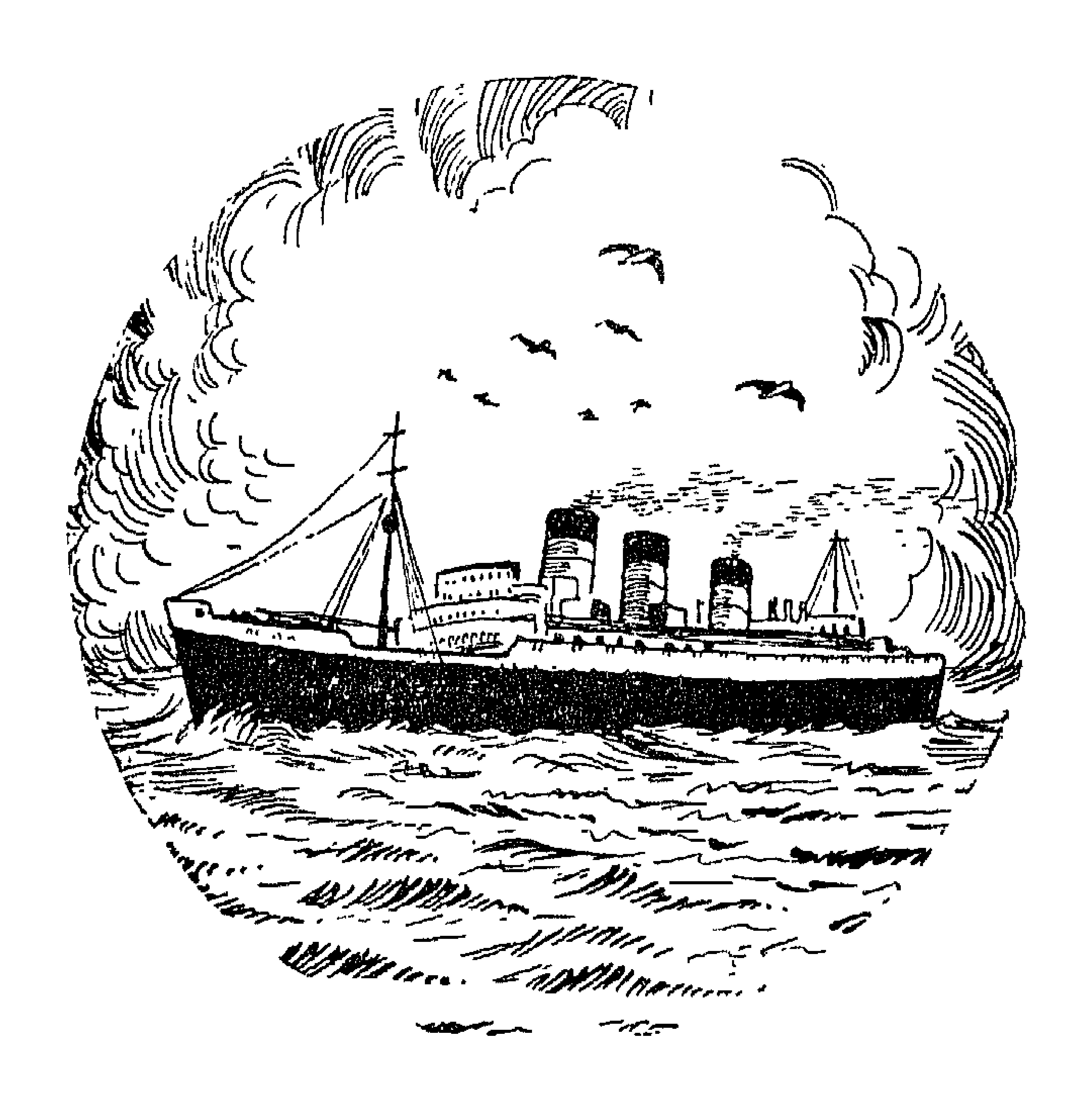
انها على عكس سمك هذه الشعب لا تخرج إلا ليلا . أما فى ساعات النهار المضيئة فانها ترقد فى سكون منكمشة فى شقوق بيوتها المرجانية أو طافية دون حركة فى ذلك المنظر السحرى للماء بين القاع والسطح وعيونها تحملق فيما حولها منتظرة غروب الشمس الذى يلقى ظلالا غامضة فوق الأعماق الزرقاء . وعندئذ تزحف خارجة من شقوقها وتأخذ فى الانزلاق على الصخور المرجانية أو فى السياحة كسهام حية بين الماء الاخضر ، أو فى الانقضاض على فريستها ، أو فى القيام بغير ذلك من الأعمال الغريبة التى تتميز بها ذوات القوائم الرأسية .

انى عندما أفكر فى شعب اناجوا أتذكر دائما شيئين . أولا ، الارض المرجانية نفسها وألوانها . وثانيا ، الاخطبوط الذى يعيش فى الوادى الغارق فى الماء بعينه الغريبة وجسده الذى يشبه المطاط . ويعد هذا الاخطبوط أكثر من أى شىء آخر روح هذه الشعب . إن الاخطبوطات بشكلها الغريب المستهجن تعد السكان المناسبين لعالم ألغيت فيه جميع القواعد المسلم بها . حيث تبدو الحيوانات كما لو كانت نباتات وحيث الدود جميل والاشجار من حجر هش والكابوريا تظهر كأشياء ليست هى فى الواقع وحيث الازهار تبيد الاسماك والاسماك تقلد الرمال والصخور ، وحيث

الخطر يكمن فى اللون البرىء أو الشكل الذى لا يوحى بالأذى . وكون هذه الحيوانات تعد من سكان الاماكن الليلية المظلمة بعد السمة الاخيرة من صفاتها .

إن الاخطبوطات تشغل مكانا من أماكن الخلق لا يمكن أن تشغله حيوانات أخرى وهو مكان تحتله على الوجه الاكمل .

وكانت سفينة..



* هذا الأديب نغمة غريبة نادرة في عصرنا الحديث . انه رجل حالم . عاش حالما ومات في ريعان شبابه . انه توماس ولف Thomas wolfe (١٩٠٠ ــ ١٩٣٨) وقد اخترنا هذا الفصل من قصته الطويلة « عن الزمن والنهر » وله قصص أخرى يتحدث فيها عن طفولته وحرمانه . وكل أبطال قصصه هم المؤلف نفسه : ففي قصته « عودي إلى البيت يا ملاكي » تراه يصرخ بكل قلقه وحيرته »

وفجأة وكأن أحـدا لا يتوقعها ، ظهرت السفينة الانجليزية كما تظهر الصورة في تلسكوب سحرى . ظهرت بالقرب من سواحل فرنسا ودنت منها بصورة غريبة وكأنها جبل ضخم ينطلق بسرعة . لم يكن في ذلك الوقت أى شعور بالاقتراب التدريجى من الشاطىء ، أو أن السفينة تـكبر لحظة بعد أخرى ، بل إنها تـكاد تشبه الوجوه التي نراها على شاشة السينما تنتقل من شكل إلى شكل بسرعة ، وفجأة كما ينطلق المارد من القمقم دون أن يصده أحد .

وفى أول الأمر كان هناك هدوء لانهائى يضفيه الليل على البحر . وكانت هناك ملامح أوروبا العتيقة ، وكانت الأرض ومنحدراتها الخضراء الغنية ، ومزارعها الصغيرة ذات الأشكال المختلفة ، وقلاعها القديمة . ثم هذه المدينة « شربورج » التي تبدو من بعيد كقالب ضخم من الطباشير كتلك التي نستخدمها في صب المعادن .

وإلى الغرب ، ثم الى الجنوب قليلا تصاعدت حلقات من الدخان سوداء منخفضة ، دلت على مكان السفينة . إنها تقترب بسرعة . كانت أول الأمر نقطة ، وبعد ذلك بقعة ، ثم سفينة . كانت نقطة لا يكاد يلحظها أحـد في هذا الهدوء الشامل في خريطة المساء . وهى الآن هناك تزحف في رقة وراء

الصخور ، تضغط على الماء ولا تخاف منه بآلاف أطنانها الستين ، حتى لقد جعلت السماء والماء والأرض إطارا رائعا لها بعد أن كانت شيئا لا يذ كر بالنسبة لهذا الاطار .

و فى اللحظة التى بلغت الشاطىء ، استقرت الشمس على الأمواج كقطعة من الفحم التى تخبو ، فأضواؤها القديمة تكسرت على البحر وعلى أرض الشاطىء بلا عنف ولا حرارة . وإنما كانت بعيدة ، متوهجة ، كأنها قرص ملتهب . وسرعان ماغرقت الشمس فى البحر ، وتضرجت السماء المهجورة بوهج هائل لا يحتمل ، لقد ذبل ضوء الشمس العتيد . وكانت السفينة ما تزال خارج الميناء ولـكنها تدنو قليلا قليلا ثم ألقت بمراسيها على الشاطىء .

انها تبدو الآن وكأنها لا تتحرك أو كأنها كانت مربوطة هناك منذ وقت طويل ، ومع ذلك فانك تلحظ دنو الشاطىء منها قليلا قليلا . وماتزال المياه ترغى وتزبد من جوانبها فى أعمدة ضخمة ، وتلتف حولها طيور البحر فى شراهة وصخب . وانطلقت منها مراسيها فجأة ، واستقرت السفينة .

و بدأت الأضواء تخبو على الشاطىء فى ذلك الوهج الذى يملأ السماء من ناحية الغرب بالذهب والنار ، ويذوب قليلا قليلا فى لون برتقالى ثم فى لون العنب ثم فى لون الفستق ، ثم يتلاشى ، ويجىء الليل .

وكانت المدينة بعيدة قد غمرها الظلام ، و بدت من بعيد كشبح يتحرك فى الحقول و يلقى بظله على الماء ، ومع ذلك فالسماء كانت مليئة بالضوء ،

ضوء السماء الغريب الذى يتبدى للناس الواقفين فى الغسق دون أن يلمسهم باشعاعاته .

وفى هذه الساعة من الليل نرى سماء فرنسا تتسم بصفات سامية حزينة فتبدو السماء بعيدة ولكنها شامخة بذلك الهدوء والوقار التقليدى . وتحت هذه السماء يرى الإنسان الناس فى جمال وأسى يتحركون إلى بيوتهم فى بطء بين صفوف الأشجار . أما الضوء فهو ما يزال رقيقاً مشرقا متلألئاً . وقد انتهى العمل الكبير ، انتهى كل مرح صاخب ، وكل كراهية ، وكل حب ، وكل أمل وكل رغبة ، وكل جروح للجسم والقلب والعقل ، وكل حمى نشاط الإنسان . أما النساء ذوات العيون الحزينة والملابس الطويلة فلم يعدن الآن بين الأشجار يقطفن الزهور ، فقد جاء الليل ولن يذهبن إلى الغابة بعد ذلك .

والآن ، وفى هذا الضوء ؛ وفى كل فرنسا كان الناس يخرجون من الحقول ، لقد استغلوا آخر شعاع من أشعة النهار . لقد انتهى الصيف أو كاد ، والحقول قد اصفرت والعشب قد جف . وفى آلاف الأماكن على جانبى نهرى الراين والمارن ، وفى بورجوندى وفى لورين وفى الجنوب بدأت العربات الكبيرة تتحرك ببطء فى الطرقات .

وفى المدن الكبرى أخذ النشاط المجنون يدب فى أرصفة المقاهى حيث يتزاحم الناس ، يضايق بعضهم بعضا ، وعلى أرصفة الشوارع أخذت أمواج

الناس بثرثرتهم وصخبهم ، والشوارع قد تعالت فيها أصوات العربات والترام والاتوبيسات ونفير سيارات التاكسى الصغيرة التى لا حصر لها ، وفوق هذا كله،وفوق هذه الحقول الذابلة ،وفوضى هذه المدينة الكريهة .. فوق هذا كله تعلقت شارة من الضوء الحزين : انها ستار الليل .

ولو أن زائرا أجنبيا جاء من بلد غريب ، وليكن أمريكيا مثلا ، ورأى الشاطىء هكذا ولأول مرة لتخيل أن هذه الأرض يسكنها جنس غريب عن العالم كله ، ولهجر هذا العالم القاحل بأضوائه الخابية ، ولأحس بكثير من الفزع لهذا كله . لأن هذا الزائر سيشعر بالاضطراب العميق والدهشة الغامرة من هذه العناصر ، لأن تجاربه فى حياته لم تمكنه من فهم مايرى بوضوح ولم تجعله يتهيأ لهذه المفاجأة ، لأنها كانت غارقة فى السلام بلا أمل ، وفى الجمال بلا مرح ، وفى الهدوء باستسلام بلا لذة . ومنظر هذه السفينة الراسية الضخمة التى لاتتحرك لابد أنه سيثير فيه رعشة النصر ، والتجدد المفاجىء لايمانه وأمله ، إيمانه بالحظ السعيد فى الحياة .

إن السفينة قد وقفت هناك كشىء غريب فى هذه المياه ، لها حقيقة السحر ، تلك الحقيقة التى لقوتها وروعتها تبدو كأنها خرافة . قد كانت معجزة وصادقة عندما ينظر الانسان إليها كسحر مشرق بالقرب من الشواطىء ، حزينة كصرخة نشوة قوية ارتفعت فى حلق انسان . ان منظر السفينة يبدو كأن عشيقة قد لفت ذراعيها حول خصر الفتى الذى تحبه .

.. رست السفينة تماما الآن . وقفت هناك فى الماء وفى هدوء شامل .
وعلى الرغم من أنها تبدو من الخارج ساكنة غاية السكون ، ثابتة جامدة كأى جبل أو صخر ، إلا أن قصة قوتها وسرعتها يمكنك أن تقرأها فى كل خط من خطوطها . فهى تتوهج وتنبض بالسر الديناميكى للحياة . وعلى الرغم من أن جوانبها الضخمة العالية هادئة كالصخرة ، إلا أن قاعها يكاد يضرب فى قاع البحر . ولكننا نرى خطوطا جانبية تروى قصة أخرى ، قصة عبورها للبحر مئات المرات ، وتروى ذكرياتها عن البحار الغربية ، وطلوع الشمس والقمر ، وكثير من الأضواء ، واقتراب شهر ابريل من الشواطىء النائية ، وتغير الحروب والتواريخ ، ومآسى رحلاتها التى يشترك فيها ألوف المسافرين بكل مافيهم من حياة وكراهية ،وحب ومرارة وغيرة ودسائس ، والعوالم التى خلقها الله فى ستة أيام كاملة ومنفصل بعضها عن بعض ولا تربطها إلا سفينة والا بحر .

والسفينة تتألق بتاريخ مشرق . ثم إلى جانب ذلك هى فى الواقع زائر من الدنيا الجديدة ، وذلك الزائر الأجنبى الذى جاء هو الآخر من الدنيا الجديدة على ظهر السفينة سيلاحظ على الفور ذلك بوضوح . فهى قد بنيت فى بضع سنوات بعد الحرب ، فهى من انتاج أوربا وعمالها ومهندسيها وبحارتها ودبلوماسيتها ، ولكن روحها والنبض الذى يظهر فى كل خط من خطوطها لم يكن أجنبيا ، بل كان أمريكيا .

ولـكن الذين بنوا كل هذه السفن الـكبرى هم أورو بيون ، ولـكن بغير أمريكا لن يكون لها معنى . فهذه السفن تضج بالنشوة السامية التى أودعها العالم الحديث؛ أعنى السفر إلى أمريكا. وليست هناك أى تجربة أروع من تجربة السفر إلى أمريكا ، فهى لا يمكن مقارنتها لا فى متعتها ولا نشوتها ولا آمالها الساحرة ولا معجزاتها التى تتحقق عبر هذه المياه الغريبة .

وفى هذا الهواء الرقيق تتألق السفينة كأنها جوهرة ، فـكل مصابيحها مضاءة تتألق صفاً صفاً فى خط طوله ٩٠٠ قدم ، فتبدو كأنها مدينة قامت على الصخور ورصعت هذه الصخور باللآلئ . وفوق ذلك كله كانت سطوح السفينة متوهجة بالضوء ، وكذلك الأدوار العليا منها ، وصدرها العالى كان ممتلئاً قويا طامحا ، والطرقات كلها واسعة كأنها شوارع فى مدينة ، وحجراتها الخرافية ، وقاعاتها والبارات ، والمقاهى ، والمـكتبات وغرف الاستقبال ، وقاعات الرقص ، وحمامات السباحة ، والمقصورات الأرستقراطية الخاصة للأسر العريقة ، والأجنحة الخاصة التى لـكل منها قاعة استقبال وحمام شديد البريق ، كل هذا يجتاز البحار العاصفة ، يقاوم الأبدية وأمواج الأطلنطى بسرعة ٢٧ عقدة فى الساعة . وتسكنها الأشباح وتحمل آلاف النساء الجميلات المعطرات الغنيات وقد سرن بفساتين معطرة يحركها الهواء على ظهورهن العارية ، ولهن بشرة كالمخمل الناعم ، وهن يسرن فى الضوء وفى طرقات السفينة .

وإلى جانب هذا كله أربع مداخن ضخمة يتصاعد منها بخار ودخان متوحش ينطلق من جوف السفينة الذى يغلى كالجحيم .

وهذه السفينة الخيالية الخرافية ، هذا الزائر من الدنيا الجديدة ، هذا المخلوق الخرافى الساحر الغريب الذى يبدو غريباً لهذه الشواطىء الفاتنة ، أشاع السرور فى هذا الشاطىء الغريب.وقد صنعت لترسو على كل شواطىء العالم ،وتعلو وتهبط على سطح الكرة الأرضية ،وتجتذب اليها كل القارات مبتلعة البحر والأرض ، لتدخل سموات أوربا كأنها غريب من عالم آخر لتحترق فى ذلك الهواء الرمادى الغريب الكالح لأوربا ، لتنبض وتتوهج تحت سماء أوربا الغامضة .

ولكنها غريب رائع ، فهى شىء متألق متلألىء . ومن المؤكد أنها جاءت بروعتها هذه من مكان محدد على الأرض ، فى هذا المكان المحدد من الممكن أن يراها الناس وأن يفهموها ، وفى هذا المكان المحدد فى استطاعتها أن تنزلق على الماء لتتربع على عرشها الكبير . هذا المكان هو أمريكا . هذا المكان هو السواحل الأمريكية . هذا المكان هو رحلتها إلى القارة الأمريكية . هذا المكان هو أخيراً ودائما الميناء الذى يجب أن تنطلق اليه ، هذا الميناء هو صخرة الحياة الضخمة المتكبرة : مدينة الأبراج العالية التى اقتحمت طريقها إلى المحيط .

عندما اقترب الأمريكيون من السفينة ، ورأوها تطلعوا اليها وعرفوها توا ، وأحسوا بطمأنينة تسرى فى أجسامهم .

فقالت سيدة فجأة وهى تشير إلى السفينة ، إلى ضخامتها وبريقها : أنظرى . أليس هذا رائعا ؟ . ياالهى ! إنها هائلة . كيف يمكن أن يتصور الإنسان أنه سيبلغ الشاطىء بغير هذه السفينة ؟ .

فقالت زميلتها فى لهجة من الارهاق والتعب ، وكانت تجلس على كومة من الحقائب تدخن سيجارتها،ولها ساقان طويلتان وضعت واحدة فوق الأخرى ، وفى كثير من عدم الاكتراث راحت تتطلع إلى جمهور المسافرين . وقالت : ياعزيزتى إن أول شىء سأفعله هو أن أعثر على سريرى .

ولم تشأ زميلتها أن تهدأ ، وكان وجهها أحمر متورداً ، وكانت شديدة الاضطراب لهذه الرحلة التى ستقطعها .

وراحت الفتاة الأخرى تشير باصبعها إلى حقيبة دفنت فى هذا الكوم من الحقائب. وتصرخ قائلة إلى المسافرين:هذه حقيبتى. أين بقية الحقائب ؟ ألا يجد أحد بقية حقائبى ؟ قالتها بصوت حاد وهى تحتج على حمال ذى شارب ضخم .

وحاولت زميلتها أن تنبهها إلى أن تسكت . .

وراحت الفتاة تحدثها وتقول : إننى لا أستطيع أن أقنعه بأن يفعل شيئا .. إننى لا أجد حقيبتى الكبيرة واثنتين صغيرتين .. ان هذا أفظع شىء سمعته .. ألا ترين ذلك ؟ أنت يا ... ثم عادت مرة أخرى تضع يديها على أذنيها لأنها كانت صماء بعض الشىء ، وراحت تحرك خاتما فى أصبعها . أما وجهها الصغير المتورد ، فقد امتقع بعد هذا الاضطراب وهذه الثورة . وقد جعلت تأتى بحركات مضحكة .

وبدأت زميلتها تضحك فجأة وتقول لها : « ماهذا يا استر ؟ يا الهى . ماهذا ؟ ... » وسكتت كأنه لا يوجد شىء آخر تقوله .

أما استر هذه ، فهى شقراء ولها عينا حمامة ، أما وجهها فهو شىء نادر ، غنى بالأضواء كأنه مادة مشعة أكثر إشعاعا من وجوه كل المسافرين الذين سحرتهم السفينة بقوتها وضخامتها .

ومعظم هؤلاء المسافرين قاموا برحلات كثيرة ، ولكن هذه السفينة الضخمة أثارتهم بوهجها واستولت على قلوبهم كما لو كانوا أطفالا صغارا فوقفوا جميعا ساكتين فى الزورق الذى ينقلهم إلى السفينة الكبيرة ، وقفوا هناك بوجوه متطلعة إلى أعلى . وكان غريباً حزيناً أن يبدوا جميعاً هكذا وقد ارتسمت الوحدة والحنين على عيونهم ، وكأن وجوههم ازدادت صفرة وبياضا ، ثم بدأت تلمع عندما انعكست عليها أضواء السفينة .

وكان ، هناك شيء صغير ، عار ، أعزل ، وسط هذه الوجوه وحولها .
ذلك الشيء هو روعة الأبديةوالبحر والموت .. إنهم يسمعون الزمن . هؤلاء الناس أرواح عارية وحيدة ، وهم غرباء على الأرض وكثير منهم يحن إلى مكان يستريح فيه ، الذين أتعبهم السفر والذين أرهقهم البحث ، سيجدون السلام والحياة الهادئة حيث لارغبات ولا شهوات ، فأين يجد المكدود السلام .. وعلى أى شاطىء يجد المسافر بيته آخر الأمر . . متى ينتهى هذا كله : السعى الأعمى . الشهوات الكاذبة وطموح بلا ثمرة يزداد عقما عندما يصلون إلى هذا المكان .. و الصراع أو السباق مع الأشباح . والعذاب المجنون للعقل والروح فى اندفاعات الحياة وزخرفها . . وطرقاتنا المتربة والصراخ و الغيظ.والشوارع البلهاء المتكررة الكثيرة العقيمة . والشراهة المريضة .. والعطش والظمأ الذى نرويه بالخمر . .

وفى لحظة أخرى ، وفى الظلام ، تتبدى وجوه المسافرين فى فزع وسكون ولكنها جميعا تتطلع إلى السفينة . وهذا كل ماهناك .. اختفت كلماتهم ، وذكرى حركاتهم التى قاموا بها قد تلاشت ، ولم يعد الانسان يتذكر سوى صمتهم ووجوههم المتطلعة إلى أعلى فى ضوء الزمان المبدد ، إنها وجوه هادئة ساكنة ، وهم يتحركون فى الظلام الذى يخيم على نهر الزمن. إننا نراهم وقد انتظروا على جانب السفينة الكبيرة ، ساكتين كأنهم محكوم عليهم بالموت ، فوجوههم حزينة بيضاء . وقدبادلتهم السفينة نفس

النظرة الهادئة الحزينة أيضا.وهذا اللقاءالصامت يلخص كل لقاء بين الأحياء من الناس . فى هذا الصمت نسمع الأنفاس البطيئة الحزينة للانسانية ، ونعرف مصير الانسان .

كادت المرأة تقول من جديد : « أنظرى . أنظرى . هل هناك شيء أروع من هذا ؟ . »

وتعالت التحيات فى أعلى السفينة . وتلفتت المرأة بوجهها المتورد الصغير ورأت عددا كبيراً من الرجال وقد بدواصغاراً منعزلين صامتين ، وقدانحنوا ينظرون من فوق سور السفينة . فنظرت هى إلى أعلى ، ونظرت للناس حولها ، وإلى الضوء القديم الواهى وهو يتساقط على شواطىء الليل ، وإلى الأمواج الهادئة وقد لونها النهار بحمرته الذاهبة . واستمعت إلى أصوات طيور البحر ، وملأتها الدهشة ، واستولى عليها القلق عندما لم تجد ماتعبر به عن كل ماتشعر به من جمال ، وحاولت أن تمسك هذه المعانى التى تدور فى نفسها وأن تحتفظ بها إلى الأبد .

ثم عادت لتقول فى صوت عال « هؤلاء الناس هنا .. وهذهالسفينة .. يا إلهى . هذا كل ما أريد أن أقوله . هذه الأشياء التى أعرفها . . الأشياء التى فى داخلى هنا .. الأشياء كما أراها . .

هذه الأشياء كلها وكيف تحدث وهذا التصميم الجميل . . ولا أحد

يسألني . هذا الشيء الرائع الذي يجرى فى داخلى طول الوقت .. ولا أحد يريد أن يعرف كيف يحدث » .

وظلت تحملق فى صديقتها وكأنها تتهمها ، إلى أن شعرت بالناس يبتسمون لها و بضحكات زميلتها . فتغير لون وجهها ،واستولى عليها شعور بالسعادة ، شعور غامر ، شعور امرأة بالنصر والمتعة .. ومع ذلك وهى تضحك شعرت بوخز الدهشة والقلق القديم أمام رغبة جامحة . ورأت رجالا كثيرين منفردين صامتين ، مهمومين ، وضخامة السفينة تحت ضوء الليل القديم . ثم تذكرت العبارة المشهورة : « ألا تستطيع أن تسحب التنين أو تسحب لسانه من أحشائه . » ولكن الدهشة ماتزال تملأ جوانبها .

ومضت هذه الفتاة الغريبة الجميلة تقول لنفسها : إلى أى مدى سأتحمل هذا السرور الذى لايطاق ، وموسيقى هذه الأغنية الهائلة التى لا أنطق بها ، وقلق هذا المجد الذى لا يتخيله أحد والذى يملأ حياتى حتى تكاد تنفجر ، ويمسك لسانى فلا يكاد ينطق . هذا كثير .. لايطاق .. أن يشعر الانسان بعيون من الجمر تتفجر فى قلبه .. وموسيقى غريبة وحشية تزدحم فى حلقه ، بل انتصار هذه الأغنية الكاملة وهى تتقلب فى بطنى تريد أن تولد وليست هناك وسيلة للتعبير عنها . أيتها اللحظة الساحرة الكاملة المجهولة التى لا مفر منها .. أن يقف الانسان هنا الى جانب هذه السفينة

الـكبيرة ، على هذه الحافة المائلة من الليل . وبهذه الدهشة التى تفج فى قلبى ، ولا يعرف الاشيئا واحدا هو أننا على نحو من الانحاء قد امتلأ نا بك أيها الزمن . ثم نرى كيف احتشد كل هؤلاء الناس على ظهر السفينة الـكبيرة .. أناس صامتون منعزلون رائعون .. إخوة غرباء فى هذه الرحلة جمعتهم المصادفة فى أيام حزينة . وأنت أيها الشاب — فقد رأت الآن شابا لأول مرة ، ينحنى من أعلى السفينة فى صمت ، وقد تدلى على سور الليل — لماذا أنت وحدك بينما كل الرفاق ينتظرون ؟ ثم راحت تقول لنفسها : يأيها الشاب . فأنت ما تزال تستمتع بالسر والوحدة . كم أنت هزيل ، جائع ، مجنون بغرورك ، تتحرك لتحقيق رغباتك المستحيلة، ثم تتدلى من أسوار الليل . وأنت متوحش ، شامخ ، مجنون ، طائش . وعيناك جائعتان ، وروحك مزقها العطش ، وقلبك يتضور جوعا لا يشبعه طعام . وما تزال تتدلى من أسوار الليل والأحلام ، الأحلام الـكبرى ، ومصنوع من الحب لا يرويه المجد ، و يخطىء الناس فهمك بقسوة مع أنك على حق .

انظرى — قالتها لنفسها — كيف أن هذا الضوء يتوج جبينه . ماأشد وهجه ، ما أشد احتراقه ، ما أشد جماله .. ما أكثر حرارتك و كبرياءك ، انك كروح الشباب المتوحشة الضائعة ! ما أشبهك بأبى ذلك الغريب الضائع الذى لن يعود .

وتلفت اليها ورآها ، وعندما وجدها ضاع ، وعندما أضاع نفسه وجدها وعندما رآها رأى فى لحظة عابرة أروع صورة ، ربما كانت صورة رأتها الحياة قبل ذلك . ولم يعرف أبداً أنه فى هـذه اللحظة قد سقط فوق سكين الحب . ومنذ تلك اللحظة لم يشعر بفقدها أبداً . ولم يشعر أبداً بتلك الوحدة التى كانت تسحقه ، انما كان يشعر بقوة الشباب الذى هو ثمرته الباقية . وفى لحظة اللقاء نفذت إلى حياته بسحر أسود . وقبل أن يعرف ذلك كانت هى تنبض فى دمه . كيف لم يعرف ذلك ؟ وتسللت إلى صميم قلبه ، وسكنت إلى الأبد شقة حياته . وهى كسارق الحب الكبير تسللت إلى كل نفسه ، وأصبحت جزءاً من كل ما فعل وما قال وما كان . ومن خلال هذا الغزو الكبير الذى مس كل جمال فى الدنيا ، كل شىء يلمسه ويمسه ويحلم به ، حتى لم يبق أمامه جمال لاتشارك فيه ، ولاموسيقى لاتتخللها ، ولافزع ، ولا جنون ، ولا حقد ، ولا مرض لنفسه ، ولا حزن صامت . لم يردد صورتها الوحيدة التى لها ملايين الأشكال . ولاشىء فى حريته ، وانطلاقه وفزعه ، ودمه المتدفق ، ويأسه ، لايحمل ذلك الطابع العميق للأغلال القديمة .. أغلال الحب .

وبعد هـذه الحيرة المعذبة الشابة ستصبح هذه الفتاة مركز قلبه ، وغاية حياته ، والصورة الخالدة ، والوحدة التى تجمعهما وتجمع لذته وقوته وكل حياته فى يقين باهر ، فى سيادة مطلقة ووحدة شاملة ، اسمها الحب .

« ضعنى كصمغ على قلبك ، كصمغ على ذراعك ، لأن الحب قوى كالموت ، والغيرة قاسية كالقبر ، والفحم هناك فحم كالنار له لهيب أسود » .

والآن بدأت كل الوجوه تتجه إلى السفينة ، وجوه متكبرة قوية غنية حية بالثراء والفخامة ، ومقصورات مضاءة ، ثم أقفلت الأبواب وأخذت السفينة طريقها فى الظلام فوق أمواج البحر .

الحياة مغامرة



« يعتبر « اوهنرى O. Henry » (١٨١٢ ـ ١٩١٠)
أشهر كتاب القصة القصيرة فى أمريكا . وقصصه لها طابع خاص . أنها
تعتمد على المفاجأة فى النهاية وعلى المصادفة . وقد اختـار شخصياته من
واقع الحياة الأمريكية . انه صاحب مدرسة فى قصـة المفاجأة . وقصته
المنشورة هنـا هى نموذجية بالنسبة لـكل قصصه القصـيرة . واسمه
الحقيق هو وليام سيدنى بورتر » .

جلس بيلنجر وجون ريجنالد فورستر فى الحجرة الصغيرة إلى يسار الداخل فى نادى بوهاتان .. وقال بيلنجر لزميله :

— هل سمعت قصة الرجل القادم من الغرب ؟

فقال جون : بلا شك . . . ثم غادر الغرفة .

وتناول فورستر قبعته (الخوص) من عامل الملابس بالنادى ، وخرج من ذلك الجو الذى كان يحبط به (كما يقول هملت) . . . كان بيلنجر قد تعود عدم إصغاء جلسائه لقصصه دون أن يعبأ بذلك . . . أما فورسـتر فـكان منبسط الأسارير ، يريد التنقل من مكان لآخر كما يتنقل الطير بين أفنان الأشجار ... وإذا أراد الإنسان أن يكون فى صفاء مع نفسه ، بحث عن شخص آخر يتفق معه فى الآراء والصفات والأخلاق .

وكان الجرى وراء الحظ هو أحب شىء إلى فورستر لأنه كان مغامراً بطبعه ولـكن مولده ، والعرف والتقـاليد ، وضيق نفوذ قبيلة منهاتان ، قد حرمته

جميعاً من هذه الميزة .. خلق المغامرة . . . لقد سلك جميع الطرق والدروب التي تزيل ملل الحياة وضجرها ، ولـكنه لم يرض عن واحدة منها ، لأنه كان يعلم ما سوف يجده فى نهاية كل طريق ، وعلمته التجارب والمنطق ، فى دقة تامة ، ماقد يؤدى اليه الانحراف عـن الطريق المألوف . ووجد فى موسيقى الجو المحيط به نغمة مملة رتيبة طغت على موسيقى الحياة نفسها . ولم يتعلم من ذلك شيئا . . . لم يتعلم أن الأرض ولو أنها كروية الا أن الدوائر قد انقلبت إلى مربعات ، وأن المنفعة الحقيقية هى فى معرفة « ما يدور فى الخفاء » .

وسار فورستر على غير هدى و بلا هدف ، محاولا عدم المبالاة بأى طريق يسلـكه . بل كان يسره أن يضل الطريق إذا كان ذلك مستطاعا ، ولـكنه فقد الأمل حتى فى هذا .. إن المغامرة والثروة رهن إشارة الانسان فى المدن الـكبرى ، ولـكن الفرص كالسيدة المقنعة تجلس فى سيارة مقفلة يحميها لفيف من الأدلاء ، وتدرج بها هذه السيارة فى قلب المدينة أو فى ضواحيها أو فى أطرافها ، وقد تمر بك ولا تراها .

ووقف فورستر بعد ساعة من التجوال ، عند ناصية أحد الشوارع الواسعة الهادئة ، يتطلع فى كآبة إلى فندق قديم رائع المنظر ، خافت الأنوار وكان سبب كآبته شعوره بالجوع و بضرورة تناول طعام العشاء . . إن تناول

الطعام فى هذا الفندق ليس مغامرة لأنه من أحب الفنادق إليه ، وتعود أن يتناول فيه طعامه الجيد الطهى والمنتقاة ألوانه فى عناية . . فى صمت وسكون حتى الموسيقى فيه لم تكن تتعدى مقطوعة « دا كابو » .

وخطر له أن يتناول طعامه فى أحد الفنادق الرخيصة ولو من غير الموثوق بجودتها فى المدينة حيث يقدم الطهاة من كل جنس ألوان طعامهم الوطنية ليلتهمها الأمريكيون الشرهون ، فربما يحدث أمر ما خارج عن المألوف ، أو يعثر على مبتدأ لا خبر له ، أو طريق بلا نهاية ، أو سؤال لا جواب له ، أو سبب بلا أثر ، أو على جدول عذب فى محيط الحياة الأجاج . . ولم يكن مرتديا سترة السهرة ، بل سترة عادية داكنة اللون ، لا يمكن أن تكون موضع تساؤل السقاة الذين يقدمون (أطباق المكرونة) وهم يرتدون قمصانهم المرفوعة الأكمام .

وأخذ جون رجنالد فورستر يبحث فى جيوبه عن النقود ، لأنه كلما كان الطعام رخيصا ، وجب عليك دفع ثمنه . ولم يعثر فى جيوبه الكبيرة والصغيرة وعددها ثلاثة عشر جيباً ، على بنس واحد ، واتضح له من دفتر شيكاته أن حسابه فى بنك « أولد آيارنسايد تراست كومبانى » مكون من خمسة أرقام ، ولكن . . .

ورأى فورستر إلى يساره رجلا ينظر إليه فى عجب وذهشة . وكان هذا الرجل ، رجل أعمال فى الثلاثين من عمره أو حولها ، حسن الملبس ، واقفا كمن ينتظر سيارة أوتوبيس ، مع أن الشارع لا يسير فيه الأوتوبيس . . وبدا

لفورستر أن اقتراب الرجل منه ودهشته الظاهرة يدلان على تطفل شخصى . ولـكن نظراً لأنه كان دائب البحث « عما يدور فى الخفاء » ، وبدلا من اعتراضه عليه ، فقد نظر إليه وعلى فمه ظل ابتسامة . وقال له الرجل وهو يزداد اقترابا منه :

— هل لم تجد نقودك ؟

— يبدو ذلك . . لقد كنت أظن أن فى جيبى دولاراً .

فضحك الرجل وقال :

— أوه. أعرف ذلك . ولـكنك لم تجده . لقد مررت أنا بمثل هـذا للأزق عندما كنت أقف على ناصية الشارع الآن . لقد وجدت بنسين فى جيب «صدرتى» الأعلى ، ولا أدرى كيف وصلا إليه . . بنسين فقط » . فهل تعرف لوناً من الطعام أستطيع شراءه بهما ؟

— إذن فأنت لم تتناول طعام العشاء بعد ؟

— أجل . ولـكنى أريد أن أتناوله . والآن . . فإنى أعرض عليك اقتراحا . إنك تبدو كمن يستطيع الحصول على طعامه . وثيابك نظيفة ومحترمة بصرف النظر عن الشخصية ..وأعتقد أن ملابس تشبه ملابس رئيس السقاة ، فما قولك فى أن نذهب إلى هذا الفندق ونتناول فيه طعام العشاء معا ؟ وسننتقى من ألوان الطعام ما يختاره أصحاب الملايين ، أو إذا شئت ننتقى الألوان

التى ينتقيها الرجل العادى عندما يريد الانصراف مرة واحدة فى العمر ثم نتراهن بالبنسين على من منا يتعرض لثورة أصحاب الفندق وانتقامهم. ان اسمى آيفز، وأعتقد أن كلينا فى نفس المنزلة من الحياة ، فهيا قبل أن تنبت للبنسين أجنحة .

فقال فورستر فى مرح : « هيا بنا » .

لقد كانت هذه ،على الأقل ،مغامرة على حدود مملكة الحظ الغامضة ، وعلى كل حال فهى خير من عدم الجلوس إلى مائدة أحد المطاعم .

وجلس الرجلان إلى مائدة فى أحد أركان قاعة الطعام فى الفندق ... ووضع آيفز أحد البنسين تحت كفه فوق المائدة وقال : راهن على من منا يطلب . . وخسر فورستر . .

وضحك آيفز ، وطلب من الساقى ألوان الطعام والشراب التى يريدها ، فى وقار من اعتاد تناول الفاخر من الألوان . . ووافق فورستر على الطلب فى إعجاب شديد .

وقال آيفز : إننى رجل قضيت حياتى فى السعى وراء المغامرات وخلقها، ولست بالمغامر العادى الذى يبحث عن جائزة مشتهاة، ولا بالمقامر الذى يعلم أنه معرض للربح والخسارة . . إن ما أريده هو النضال فى مغامرة أجهل عواقبها . . إن نسيم الوجود بالنسبة إلى هو تحدى القدر فى أحلك

صوره ومظاهره . . وان الدنيا لم توجد إلا لنعيش فيهـا بين شد وجذب ، و بين أطواء الغيب ، حتى يستطيع الانسان الدخول فى معتركها وهو لا يكاد يجد طريقاً للحظ به علامات تقوده إلى ما سوف يجده فى نهاية الطريق الذى يسير فيه . إننى كالـكاتب فى إحدى المصالح الحكومية الذى يشكو مر الشكوى ممن يأتى إليه ليستعلمه عن شىء . . . إن جملة « إنه يريد أن يعرف » هى عذر ذلك الـكاتب لزملائه إذا لاموه على رد السائل خائباً ... حسناً . أنا لا أريد أن أعرف ، ولا أريد أن أعقل ، ولا أريد أن أخمن أو أحدس . . . بل أريد أن أراهن على يدى دون أن أراها .

فقال فورستر مبتهجاً : اننى أفهم تماماً ما تقول . . ولقد أفصحت عما يعتمل فى نفسى، وأعوزتنى الـكلمات للتعبير عنه. .إننى أريدأن أخاطر... فما قولك إذا طلبنا زجاجة من خمر « المورسيل » أيضاً ؟

— اتفقنا . . ولقد سرنى أنك فهمت فـكرتى التى ستزيد من عداوة أصحاب الفندق للخاسر منا .فامض فى المغامرة إذا لم يكن هذا مما يضايقك . و أنا لم أقابل مغامراً حقيقياً إلا مرات قليلة ، مغامراً لا يسأل القدر طريقاً مرسوماً محدداً لرحلته التى لم يبدأها بعد . . . ولـكن كلما ازداد العالم مدنية وحكمة ، يصبح من العسير الدخول فى مغامرة لا تستطيع التكهن بنهايتها . لقد كان فى عصر الملـكة اليزابيث أن تهين الحارس ، أو تقرع الأبواب ،

أو تحفر فى أركان الجدران بسلاحك وأنت آمن .. أما الآن وفى عصرنا هذا ، فإذا لم تخاطب جندى البوليس فى احترام وتبجيل فإنك لا تستطيع التكهن بالمكان الذى سيرميك بين جدرانه فى مركز البوليس .

فأومأ فورستر برأسه موافقاً وقال: أعرف ذلك . . أعرف ذلك .

واستمر آيفز فى حديثه قائلا : عدت إلى نيو يورك بعد أن قضيت ثلاثة أعوام فى طواف حول العالم ، وليست الأمور فى الخارج خيراً منها هنا . ويبدو أن العالم كله ملىء بالعجائب. وكل ما يهمنى منه هو المقدمات، وقد حاولت القيام بعمل ضخم فى إفريقيا ، وكنت أعرف ما تفعله البندقية السريعة إذا كان الهدف على بضع ياردات . . وقتل فيل أو خرتيت برصاصة ، يبعث فى نفسى نشوة أكبر من تلك التى كنت أشعر بها وأنا تلميذ عند إجراء عملية قسمة مطولة على السبورة .

— حسناً . حسناً . وبعد .

— وقد يكون فى الطائرات شىء غريب . وحاولت التحليق بالمنطاد ولكن اتضح لى أن الأمر كله مجرد ريح وثقل .

فقال فورستر : وماذا عن النساء ؟

فقال آيفز : كنت أتجول فى إحدى أسواق القسطنطينية منذ ثلاثة أشهر ، فرأيت سيدة مقنعة — طبعا —ولم يكن يبدو منها غير عينين

جميلتين تفحص بهما بعض الحلى من الـكهرمان واللؤلؤ تحت مظلة أحد الباعة.. وكان يصحبها تابع نوبى عملاق ، فاحم اللون .. واقترب منى التابع بعد لحظة ، ودس فى يدى قصاصة من الورق . وتحينت الفرصة للاطلاع عليها ، وقرأت ما سطرته السيدة فيها بالقلم الرصاص « عند باب حديقة البلبل فى الساعة التاسعة مساء » . . . فهل ترى يا مستر فورستر ان هذه بداية طيبة ؟ .

— استمر فى قصتك .

وقمت ببعض الاستعلامات ، فعرفت أن حديقة البلبل ملك لعظيم تركى كان رئيسا للوزارة ، أو شيئا من هذا القبيل . . وتوجهت طبعا إلى باب الحديقة المقوس فى تمام الساعة التاسعة ، ودخلت الحديقة وجلست على مقعد مستطيل بجوار سيدة مقنعة يفوح منها عطر متضوع . . . وتجاذبنا أطراف حديث طويل عرفت منه أن اسمها « ميرتل تومون» وأنها صحفية تكتب عن « الحريم التركى » مقالات ترسلها إلى إحدى صحف بمدينة شيكاغو . . وقالت لى انها لاحظت وهى فى السوق الطراز الأمريكى لثيابى. وسألتنى عما إذا كنت أستطيع أن أكتب شيئا عن ذلك لصحف العاصمة .

— حسنا . حسنا .

— لقد ركبت الزوارق الصغيرة فى كندا ، على صفحة الأنهار

الصغيرة السريعة الجريان وفوق مساقط المياه ، ولكنى لم أستطع الحصول على ما كنت أسعى إليه لأنى كنت أدرك أن ليس لعملى هذا غير نتيجتين لا ثالثة لهما ، فإما ابتلعتنى الأعماق ، وإما وصلت إلى سطح البحر .. وقامرت بلعب الورق ، ولكن أصحاب الموائد الخضراء أفسدوا اللعبة بتعداد النسبة المئوية لأرباحهم . . . وتعرفت على الكثيرين فى القطارات ، وبعثت بالرد على كثير من الاعلانات ، وطرقت أبواب الغرباء ، وانتهزت كل فرصة سنحت لى ، ولم يكن لهذا كله إلا النهاية التقليدية والختام المنطقى للمقدمات ...

وقال فورستر : أعرف ذلك فقد بلوته بنفسى . . . وسنحت لى الفرص لتجربة حظى . . . وهل هناك حياة خالية من المستحيلات كالحياة فى هذه المدينة ؟ . ويبدو لى أن هناك فرصا لا حصر لها لتجربة ما يوحى به الخاطر عفو الساعة ، وإنما لا يفشل واحـــد فى كل ألف فى وضعك فى المكان الذى كنت تتوقع أن تقف عنده . وكم وددت أن يخيب المترو وسيارات الأوتوبيس الآمال كما فعل غيرها .

— لقد أشرقت الشمس على ليالى ألف ليلة . . . ولم يعد هناك خلفاء . . . وتحولت آنية الصياد إلى زجاجة فارغة مهيأة لحبس جنى يفور أو قد تجمدت أطرافه يومين كاملين ... إن الحياة تسير فى تكرار رتيب ، وقضى العلم على روح المغامرة ، ولم يعد هناك أمثال الفرص التى أتيحت

لكولومبس والرجل الذى كان أول من أكل المحار. والأمر الوحيد المؤكد هو عدم وجود أمر غير مؤكد . . .

فقال فورستر : حسناً . إن تجربتى هى التجربة المحدودة لرجل من سكان المدن ... ولم أطف بالعالم كما طفت أنت ، ولكن يظهر لى أن آراءنا بالنسبة إليه واحدة . . . ودعنى أخبرك أنى شاكر حتى لمغامرتنا الصغيرة هذه بنت المصادفة ، فإنها قد تسفر ، على الأقل ، عن لحظة حرجة تحتبس فيها أنفاسنا بعد تقديم فاتورة الحساب .. وقد يجد الحجاج الذين يسافرون بلا زاد أو نقود ، طعما للحياة خيراً من فرسان المائدة المستديرة الذين كانوا يسافرون للخارج محوطين بالحاشية والأتباع ، وتحت شرائط قبعاتهم صكوك الملك جون المالية ... والآن .. فإذا كنت قد انتهيت من تناول قهوتك فهيا نتراهن بقطعة من قطعتى نقودك على من منا يتلقى ضربة القدر المنتظرة .. إنى سأختار الكتابة .

وقال آيفز : بل الصورة .

وقال فورستر : حسناً . فلتكن الصورة . .

ثم رفع فورستر يده عن قطعة النقود وقال : لقد خسرت . . آه ... لقد نسينا أن نتفق على خطة هروب الفائز . . وإنى أقترح أن تغادر مكانك عند حضور الساقى بدعوى الاتصال تليفونيا بصديق ، وسأبذل جهدى

فى أن أقضى فى مراجعة الحساب وقتاً يكفيك لأخذ قبعتك ومغادرة الفندق . وإنى لأشكرك يامستر آيفز على هذه الأمسية الشاذة الخارجة على المألوف ، والتى أرجو أن تتكرر .

وقال آيفز : إذا لم تخنى ذاكرتى ، فان أقرب مركز للبوليس يقع فى شارع ماك دوجال . . . واسمح لى بأن أقرر لك أنى استمتعت بهذا العشاء .

وأومأ فورستر إلى الساقى . . . وجاء الساقى فيكتور سريعاً وكأنه يطير فى الهواء لا سعياً على قدميه . . . ووقف بجوار المائدة ووضع قائمة الحساب مقلوبة بجوار فنجان فورستر ، فتناولها الأخير وأخذ يراجعها فى بطء متعمد . بينما استلقى آيفز مسترخياً على مقعده ، والتفت إليه فورستر وقال له :

— عفواً . لقد ظننت أنك ستتصل بصديقنا جرايمز بشأن سهرتنا فى المسرح فى مساء الخميس ، فهل نسيت ذلك ؟

فقال آيفز : أوه . يمكننى الاتصال به فيما بعد . . . آتنى بقدح من الماء من فضلك .

وذهب الجرسون . . . وقال فورستر : هل تريد أن تكتوى بنار هذا الخطر المحدق ؟

— أرجو ألا يكون لديك اعتراض. لأنى لم أشاهد فى حياتى زجلا يقبض عليه فى فندق عام بتهمة النصب عليه بثمن العشاء . . .

— حسناً . إذن فسوف ترى «مسيحيا» يلاقى حتفه فى حلبة المصارعة وأنت جالس تحتسى قهوتك .

وجاء الجرسون بقدح الماء ، وظل واقفاً كالمحصل العنيد . وتردد فورستر بضع ثوان ، ثم أخرج قلمه من جيبه ووقع باسمه على فاتورة الحساب ، فأخذها الساقى وانحنى محيياً فى أدب وانصرف .

وتلفت فورستر إلى آيفز وقال فى ضحكة مغتصبة :

— إننى ، فى الواقع ، أشك فيما إذا كنت كما يقولون «هاوى مغامرات» وهذا الوصف فى نظرى مساو لوصف آخر وهو « جندى الحظ » . . ولابد أن أعترف لك بأننى قد مضى علىّ عام أو أكثر وأنا أتناول طعامى فى هذا الفندق مرتين أو ثلاثا كل أسبوع . وأوقع دائما على قوائم الحساب .

وتوقف قليلا ، ثم قال وفى صوته رنة إعجاب :

— لقد كانت جرأة كبرى منك أن تبقى لترانى فى هـذا المأزق ،

مع علمك بأنى مفلس لا أملك مليما ، ومع علمك أيضاً بأن من المحتمل أن يجرفك تياره .

فأجابه آيفز فى ضحكة فاترة :

— أعتقد أنه يجب على أن أعترف لك أيضاً بأنى صاحب هذا الفندق .

إنه الحب



* ماخوذة من قصة «محنة ريتشارد فيفريل» - Ordeal of Richard Feveret التى نشرت سنة ١٨٩٥ للكاتب الكبير جورج ميريديث George Meredith (١٨٢٨ — ١٩٠٩) وهى تصور درجات من الحب الصافى الذى هو شعور بأن الدنيا كلها أوركسترا تعزف أنغاما سماوية ، أو أن الطبيعة قد أقامت مهرجانا فى السماء والأرض . . لأن اثنين يحب كل منهما الآخر . أليست هذه مناسبة ، أليس هذا سببا كافيا . . اثنان متحابان ، فى عالم يندر فيه الحب . . .

هذه فلسفة الشاعر الانجليزى الكبير جورج ميريديث .

اللعنة على كل نظام . .

اللعنة لهذا العالم الفاسد .

لنشم الهواء النقى لهذه الجزيرة الفاتنة .

فهذه الروابى الخضر راحت ترفل فى الذهب ، والجداول من ذهب ، وجذوع أشجار الصنوبر من ذهب . فالشمس راحت تهبط إلى الأرض ، وتتمشى فى الحقول والمياه .

الشمس تهبط إلى الأرض والحقول والمياه تهتف هتافات من ذهب . الشمس تهبط وتسبقها ملايين الشعاعات الصغيرة تبشر بقدومها بين الأوراق والغصون والوديان والمروج اللامعة فتزداد جذوع الصنوبر احمرارا . الشمس تترك وقع أقدامها الحمراء على جوانب الغابة الكثيفة ، وعلى الأعشاب المبللة

الخضراء .. وترى أعضاء أشجار الغابة قد غشيها الضوء ، وهو فى سباق مستمر مع تلك الظلال الطويلة المتراخية ، سباق عبر الوديان والتلال ، وهناك فى أعلى السحب ، تركت الشمس آثاراً من أصابعها الوردية .

وعلى المنحدرات الرقيقة فى هذه الغابة ، تمشت الأشعة فى رقة ، فراح كل شىء يرتجف ويرتعد ويتنقل من لون إلى لون ، ويهتز كذيل البلبل ويردد لحنا بلا نغم . كل شىء يتحرك من صمت إلى صمت .

كل شىء هنا وهناك ينعش القلب . كهذا الغرب الملتهب ، وتلك المرتفعات القرمزية ، تلقى بجلالها فوق الأغصان المتشابكة الكثيفة . فيا أيها الإشعاع انزل .. وعانق الخلق والابداع بنارك المباركة ، ثم امض بعيداً عنا يأيها الإشعاع، وخليفتك الضوء ، أنتم جميعاً وزراء وعبيد «المعنى» الذى ينبض فى كل شىء .

كان هـذا هو مهبط السحر والفتنة . فهنا وبعيدا عن شتى الشواطىء الزائفة، يلتقى أمير الجزيرة وأميرتها . وهنا يجلسان كالبلابل، وفى كل عين وكل أذن وكل يد يصبيان مالا نهاية له من كنوز روحيهما الشابة أبدا .

دورى يا عجلات الدنيا المزمجرة : صرخات السفن وهى تمخر البحار الهادئة ، وصرخات النظام الذى لايعرف كيف يتحقق ولا كيف ينطبق ، ثم يشكو للكون . لن يسمعكم أحد هنا فى هذه الجزيرة المسحورة .

لقد ناداها باسمها قائلا : لوسى . وهى فى خجل من جرأتها الهائلة ، نادته باسمه قائلة : ريتشارد . هذان الاسمان هما النغمتان السائدتان فى كل موسيقى الملائكة التى ترددها فى السماء ..

« لوسى ، حبيبتى » .

« ريتشارد » .

نغمتان تنسجم معهما الأرض فى دورانها .

وهناك بعيداً ، وعلى أطراف الغابة جلس راع ينفخ فى مزماره المتواضع ، لحواء التى غرقت فى تأملاتها .. والمزمار هو أداة الحب ، انه قديم ومتواضع وليس فيه الا نغمتان .. ولكن العازف الخبيث ، كيف يستطيع أن يردد كل هذه الأنغام و الألحان .

وليس لهما بعد ذلك إلا قليل من الكلام ، فالضوء يروح ويجىء يلعب بأمواج المشاعر وهى تضطرب ، وتتفجر عندما يصبح النغم قويا ، فلا تكون إلا آهات وإلا حنين ..

ولعل الحب يعزف نغمته فى براعة ، لأن طبيعة المحبين حادة متعطشة ، ولأنها تتغذى على الشوق الدائم .

والحب يصور الرجال والنساء على قيثارته فى روعة وجمال ، أو ينفخها فى المزامير ، أو يدوى بها فى الطبول ، أو لعله هو الذى يقود الأوركسترا

لهم جميعاً . انه ما يزال العازف الماكر . . وهم ينطقون ويذوقون السحر والوجد ، ولـكنهما رغم أنغامها ما تزال « كونسيرا » أرضيا . انهما لا يدريان بشيء حولهما ، لا يدريان بالمشاعر وهي تتفجر ، وتتعالى من إحساس إلى شوق . ويتساميان إلى روح ، ويصبحان كالأرواح ، يمشيان بلا جسد . . بلا جسد .

هنا يجلس اثنان يكفيهما الماء والخبز ، فهذه أعظم مآدب الحب .

لقد تجاوزا أطراف الفلسفة. وغريزتهما قد انطلقت إلى أبعد من العلم، وهما يعلمان عن يقين أنهما خلقا لجنة عدن ، فهل تستطيع أنت أن تقول لهما غير ذلك ، وأن تحدثهما عن السقوط من السماء إلى الأرض ؟ « وهذه الهبة المقدسة قد خبئت من أجلي » .

هكذا تنطلق الصرخة المقدسة من فم كل منهما ، وهكذا تتردد وتتجاوب الأنغام حائرة بينهما . كيف أضاءت هذه العبارة السنوات التي مضت ، والسنوات التي ستجيء .

« أنت لي . وأنا لك . »

« ولد كل منا للآخر . »

إنهما يؤمنان بأن الملائكة كانت مشغولة بهما منذ ولادتهما . لقد

حرص سكان السماء على أن يجمعوا بينهما . ثم كان النصر . فيا للعجب !
وبعد هذا الكد والألم ، والمصاعب التى لاحد لها ، انتصر سكان السماء .

« نحن هنا نجلس ، نحن الاثنين ، فقد كتبونا فى السماء واحدا . . »

انفخ مزمارك أيها الحب السعيد .

انفخ مزمارك لهذين السعيدين الطيبين .

والألوان أصبح لها جزر ، بدأ يهبط السماء . .

وفى الغرب ، بدا البحر ينحسر تحت النار الغارقة ، والنجوم جعلت تقفز الواحدة تلو الأخرى ، وترتجف ، وتتراجع أمام القمر الصاعد الذى يرشف أكواب الفضة من السحب ، ويضع أقدامه على فم الصنوبر ، ويرتاد السماء .

« لوسى ، ألم تحلمى أبداً بأن تقابلينى ؟ »

« ريتشارد . نعم لأننى تذكرتك دائماً ! »

« لوسى ، ألم تتمنى أن نلتقى ؟ . »

« تمنيت . »

وبدا القمر شابا أشقر اللون خالداً ، كما طلع عليهما أول مرة ، عندما كانا فى الجنة . . ولم يكن هناك ليل يواجه القمر ، وإنما نهار مقنع . وأما السماء فنصفها ، ما يزال مضرجا بالحمرة ، فلا هو ظلام ولا هو نهار .

« أنت لى ، أنت لى إلى الأبد »

استمع الموسيقى الرائعة . .

« وهل أنت لى ؟ »

وانطلق شعاع رقيق تحت أشجار الصنوبر حيث كانا يجلسان ، أما الجواب فقد جاء من عينيها ، فقد استدارت إليه لحظة ثم رفعت عينيها وخفضتهما ، فمن خلال عينيها تبدو روحها عارية أمامه . .

« لوسى . عروسى . حياتى » .

وبدأ الليل يلف ظلامه حول أشجار الصنوبر ، والشعاع الرقيق يدور حولهما ، وينصب فى قلبيهما ، وانطبقت شفاها .

لا تنفخ فى مزمارك أيها الحب ، لا تنفخ هذه اللحظة .

أو انفخ كما تشاء ، فانك لا تستطيع أن تعبر عن قبلتهما الأولى ، لن تستطيع أن تشرح جمالها ، ولا قداستها .

وسكت الحب . وفى ذلك العالم الفسيح ، وعلى مشارف الغابة ، غنى الراعى ، ومر بأصابعه على مزماره ، وبكآبة على وجهه مضى صامتاً فى طريقه وسكنت الغابة . فلا شىء يسمع إلا « صقر الليل » يدور على غصن شجرة الصنوبر ، ويغمره ضوء القمر . .

جـزيرة ولدت



* هذا الفصل اخترناه من كتاب السيدة راشيل كارسون Rachel Carson الذى صدر لها فى سنة ١٩٥٣ باسم «البحر حولنا» The Sea Around Us وقد استطاعت بقدرتها الهائلة على الوصف والتحليل أن تصور لنا هذا الصراع العنيف بين الحياة والموت ، بين الوهم والحقيقة، مع أن المؤلفة لم تولد على الشاطىء ، بل انها لم تر البحر إلا بعد أن تخرجت فى الجامعة .

منذ ملايين السنين بنى أحد البراكين جبلا على قاع الأطلنطى . وفى ثورة بعد ثورة دفع البركان بكميات هائلة من الصخور البركانية التى تراكمت على مئات عديدة من الأميال عبر قاعدته ووصلت فى ارتفاعها إلى سطح البحر . وفى النهاية ظهر مخروطه كجزيرة تبلغ مساحتها مائتى ميل مربع . ومرت آلاف السنين ، وآلاف الآلاف ، وأخيراً خفضت الأمواج هذا المخروط وجعلته كله تحت سطح الماء إلا قطعة صغيرة ظلت فوقه . وهذه القطعة هى التى نعرفها باسم جزيرة برموده .

وقصة حياة برمودة كررتها مع بعض الاختلاف جميع الجزر التى تعترض سبيل امتداد مياه المحيطات بعيدا عن الأرض ، لأن هذه الجزر المنعزلة فى البحر تختلف اختلافا جوهريا عن القارات . فالأراضى الهائلة والمساحات الشاسعة من أحواض المحيطات لا تزال حتى الآن إلى حد كبير كما كانت طوال الجزء الأكبر من العصور الجيولوجية . ولكن الجزر سريعة

الزوال . فهى تخلق اليوم وتدمر غدا ، و باستثناء عدد قليل منها فانها تأتى نتيجة ثورات عنيفة لانفجارات بركانية تحت سطح البحر تعمل ربما لعدة ملايين من السنين لتحقق غايتها . إنها أحد المتناقضات فى أساليب الأرض والبحر . ان هذه العملية التى يبدو أنها تنطوى فى طبيعتها على الدمار والكوارث يمكن أن تؤدى إلى عمل من أعمال الخلق .

ولقد خلبت الجزر دائما لب الانسان . وربما تكون الاستجابة الفطرية للانسان . حيوان الأرض ، أن يرحب بهذا التدخل البسيط من جانب أرضه فى الامتداد الواسع الشامل للبحر . فهنا فى حوض هائل من أحواض المحيطات وعلى بعد ألف ميل من أقرب قارة ، بضعة أميال من الماء تجرى تحت سفينتنا فتصل إلى إحدى الجزر . و يستطيع خيالنا أن يتتبع انحدارها إلى أسفل عبر الماء المعتم إلى حيث تستقر علي قاع البحر . ثم نتساءل فى دهشة : لماذا وكيف ارتفعت هنا فى وسط المحيط ؟

ومولد أية جزيرة بركانية هو حدث يتميز بعملية طويلة عنيفة : فقوى الأرض تجاهد لتخلق . وكل قوى البحر تقاوم . وقاع البحر حيث تبدأ الجزيرة لايزيد سمكه فى أى مكان عن خمسين ميلا ، وهو غطاء رقيق فوق حجم الأرض الهائل . وفى هذا الغطاء توجد فطور وشقوق عميقة نتيجة للبرودة والانكماش غير المتكافئين فى العصور الماضية . وعلى طول

مثل هذه الخطوط الضعيفة تأخذ الحمم البركانية المصهورة فى الضغط ثم تنفجر فى النهاية مندفعة إلى البحر . غير أن البركان البحرى يختلف عن الانفجار البركانى على سطح الأرض حيث تندفع الحمم والصخور المصهورة والغازات وغيرها من المقذوفات إلى الهواء عن طريق فوهة مفتوحة . أما هنا على قاع المحيط فان البركان يلقى مقاومة تتمثل فى ثقل كل ماء المحيط فوقه . وعلى الرغم من الضغط الهائل لماء البحر الذى يبلغ ارتفاعه ميلين أو ثلاثة أميال فان مخروط البركان الجديد يرتفع إلى أعلى تجاه السطح نتيجة تدفق المقذوفات . وعندما يصل إلى الأمواج على السطح فان قمته المكونة من الرماد والصخور البركانية اللينة تتعرض لهجوم عنيف وتظل الجزيرة النامية لفترة طويلة تحت سطح البحر عاجزة عن الظهور . إلا أنه فى النهاية ونتيجة لانفجارات جديدة يندفع المخروط إلى أعلى فى الهواء ، ويتم بناء جزء قوى من المقذوفات الصلبة أمام هجمات الأمواج .

وتحمل خرائط الملاحين عددا كبيرا من الجبال البحرية التى اكتشفت أخيراً . وكثير منها عبارة عن بقايا مغمورة بالمياه لجزر كانت قائمة فى العصور الجيولوجية الماضية . ونفس هذه الخرائط تبين جزرا خرجت من البحر منذ ٥٠ مليون سنة على الأقل، وجزرا أخرى ارتفعت منذ فترة تقع فى نطاق ذاكرتنا نحن . وقد يكون من بين الجبال المغمورة تحت ماء البحر والتى

تبينها هذه الخرائط ماقد يصبح جزرا فى الغد ،وهى الآن تتشكل بعيدا عن الأنظار على قاع المحيط وتنمو مرتفعة نحو السطح .

ولأن البحر صنع بالانفجارات البحرية ، فان هذه تحدث دائما . وهى لا تكتشف فى بعض الأحيان الا بوساطة الأجهزة . وفى أحيان أخرى يكتشفها أى مراقب يمر بطريق المصادفة . والسفن فى المناطق البركانية قد تجد نفسها فجأة فى ماء يضطرب بعنف . وتكون هناك انفجارات عنيفة من البخار ويبدو البحر كما لو كان يغلى فى ثورة ، وتنطلق النافورات من سطحه ثم تطفو فوقه جثث أسماك وكائنات بحرية أخرى إلى جانب كميات من الرماد والصخور البركانية .

ومن أحدث الجزر البركانية الكبيرة فى العالم جزيرة اسينشون فى جنوب الأطلنطى . ولقد كان الطيارون الأمريكيون فى الحرب العالمية الثانية يغنون بقولهم :

إذا لم نجد اسينشون

فستحصل زوجاتنا على معاش

وهذه الجزيرة هى قطعة الأرض الوحيدة الجافة بين نتوء البرازيل وانبعاج أفريقيا . انها كتلة محروقة من الرماد حيث يمكن أن نعد فوهات مالا يقل عن أربعين بركانا خامدا . وهى لم تكن دائما جرداء إذ أخرجت

سفوحها البقايا المتحجرة لأشجار كانت تنمو فوقها . وليس هناك من يعرف ماذا حدث لهذه الأشجار ، فان أول إنسان ارتادها منذ حوالى ١٥٠٠ عام وجدها بلا أشجار . وهى اليوم خالية من أية خضرة طبيعية سوى أعلى قمة فيها ، وهى التى تعرف باسم الجبل الأخضر .

ونحن لم نشهد فى العصور الحديثة مولد جزيرة كبيرة مثل اسينشون . ولكننا نسمع من حين لآخر نبأ ظهور جزيرة صغيرة فى مكان لم تكن فيه أية جزر من قبل ، وربما اختفت هذه الجزيرة فى البحر مرة أخرى بعد ذلك بشهر أو بعام أو بخمسة أعوام . فهذه هى الجزر الصغيرة التى تولد لتموت والتى يكون نصيبها الظهور لفترة قصيرة فقط فوق سطح البحر ..

ولقد ظهرت فجأة فى حوالى عام ١٨٣٠ جزيرة من هذه الجزر فى البحر الأبيض المتوسط بين صقلية وساحل إفريقيا ، ارتفعت من عمق يبلغ مائة قامة بعد أن ظهرت علامات تشير إلى وجود نشاط بركانى فى هذه المنطقة . لقد كانت أكبر قليلا من كومة من الرماد الأسود . وربما كان ارتفاعها مائتى قدم . ثم هاجمتها الأمواج والرياح والمطر . وتفتتت موادها المسامية اللينة بسهولة وتآكل كيانها سريعاً وغرقت فى البحر . إنها الآن تحت سطحه تظهر على الخرائط باسم شعب جراهام .

وفى عام ١٩١٣ اختفت فجأة جزيرة فالكون التى كانت قمة بركان

بارز فوق سطح الباسفيك على بعد حوالى ألفى ميل من شرق استراليا . وبعد ذلك بثلاثة عشر عاما ظهرت فوق السطح مرة أخرى عقب انفجارات عنيفة فى هذه المنطقة وظلت قطعة من الإمبراطورية البريطانية حتى عام ٤٩ ثم أعلنت وزارة المستعمرات أنها اختفت من جديد .

ومنذ اللحظة التى تتكون فيها أية جزيرة بركانية يكون مقدراً لها الدمار . انها تحمل فى نفسها بذور زوالها ، لأن حدوث انفجارات جديدة أو انهيارات فى تربتها اللينة قد يسرع بتفككها . وسواء أجاء دمار الجزيرة سريعاً أم جاء بعد عصور طويلة فى الزمن الجيولوجى فإن ذلك قد يعتمد أيضاً على القوى الخارجية . الأمطار التى تزيل الطبقات العليا من الجبال ، والبحر ، بل والانسان نفسه .

وجزيرة سوث ترينداد ، أو كما يقولها البرتغاليون « أيلها ترينداد » تعد نموذجا لجزيرة نحتت فى أشكال غريبة عبر قرون عملت فيها عوامل التحات . إنها جزيرة تبدو فيها بوضوح علامات الفناء . وهذه المجموعة من القمم البركانية تقع فى الأطلنطى على بعد حوالى ألف ميل شمال شرق ريو دى جانيرو . ولقد كتب أ . ف . نايت فى عام ١٩٠٧ يقول : « إن ترينداد جزيرة بالية من أولها إلى آخرها . لقد تحلل كيانها بفعل نيران بركانية و بفعل الماء حتى إنها تتفكك إلى قطع صغيرة فى كل مكان » .

وخلال فترة تبلغ تسع سنوات بين زيارات نايت تداعى جانب أحد الجبال بأكمله فى أكبر انهيار من الصخور والحطام البركانى .

ويتخذ تفكك الجزيرة فى بعض الأحيان شكلا عنيفاً مفاجئاً . ولقد كان أعظم حدث فى التاريخ هو عندما دفعت جزيرة كراكاتو بكل ما فى باطنها بمعنى الكلمة . ففى عام ١٦٨٠ وقع انفجار ينذر بشىء ما على هذه الجزيرة الصغيرة التى تقع فى مضيق سوندا بين جاوة وسومطرة فى الجزر الهندية الهولندية، وبعد ذلك بمائتى عام حدثت سلسلة من الزلازل . وفى عام ١٨٨٣ بدأ الدخان والبخار ينبعث من شقوق فى المخروط البركانى وأصبحت الأرض ساخنة بشكل ملحوظ ثم انطلقت من البركان القعقعة والأزيز اللذان يحملان معنى التحذير . وفى ٢٧ من أغسطس انفجرت جزيرة كراكاتو فعلا . ثم حدثت سلسلة من الانفجارات المروعة وبعدها كان النصف الشمالى من المخروط قد اختفى كله . وقد أضاف اندفاع مياه المحيط فجأة ثوراناً جديداً إلى ذلك المرجل نتيجة للبخار الملتهب الذى انبعث منه . وعندما انحسر أخيراً جحيم المقذوفات البيضاء الساخنة والصخور المصهورة والبخار والدخان كانت الجزيرة التى ظلت تقف ١٤٠٠ عام فوق سطح البحر قد أصبحت تجويفا ينخفض ألف قدم عن هذا السطح، وكان ما تبقى منها هو طرفا واحداً فقط من أطراف فوهة البركان .

وأصبحت كرا كاتو — فى دمارها هذا — معروفة للعالم كله . فإن الثوران أحدث موجة يبلغ ارتفاعها مائة قدم اكتسحت القرى على طول المضيق وقتلت عشرات الألوف من الأشخاص . ولقد شعر بهذه الموجة كل من كانوا على شــواطىء المحيط الهندى فى كاب هورن ؛ ثم دارت حول كاب هورن إلى المحيط الأطلنطى وانتشرت شمالا وظلت محتفظـة بقوتها حتى بعد أن وصلت الى القنال الانجليزى . أما أصوات الانفجارات فقد سمعت فى جزر الفيليبين واستراليا وعلى جزيرة مدغشقر التى تبعد حوالى ثلاثة آلاف ميـل . ومن قلب كرا كاتو اندفعت سحب من الرماد البركانى والصخور المسحوقة وارتفعت الى طبقات الجو العليا وطافت حول العـالم لتحدث حالات من غروب الشمس فى كل بلد لفترة استمرت قرابة عام .

وعلى الرغم من أن زوال كرا كاتو المثير كان أعنف ثوران بركانى شاهده الإنسان الحديث ، فإنه يبدو أن الجزيرة نفسها كانت نتيجة لثوران أعظم . وهناك ما يدل على أن بركانا هائلا كان يقف حيث تقع الآن مياه مضيق سوندا ، ثم حدث فى أحد العصور البعيدة انفجار مروع نسف هذا البركان وترك قاعدته فقط ممثلة فى سلسلة من الجزر المنفصلة . وكانت أكبر هذه الجزر هى كرا كاتو التى يبدو أنها أخذت معها فى زوالها ما تبقى من

السلسلة الأصلية لفوهة البركان. غير أنه فى عام ١٩٢٩ ظهرت جزيرة بركانية جديدة فى هذا المكان هى — أناك كرا كاتو — طفلة كراكاتو .

ويسود الاضطراب المنطقة التى تحتلها جزر ألوشيان كلها نتيجة الحرائق الباطنية وعدم الاستقرار فى أعماق الأرض . وهذه الجزر نفسها هى قمم سلسلة من الجبال التى تمتد مسافة ألف ميل تحت سطح البحر والتى كان مهندسها الرئيسى عملا من أعمال البراكين . والتركيب الجيولوجى لهذه السلسلة غير معروف ، ولكنها تنهض فجأة من أعماق المحيط فى حوالى ميل من أحد جوانبها وميلين من الجانب الآخر . ومن الواضح أن هذه السلسلة الضيقة تدل على وجود شق عميق فى القشرة الأرضية . والبراكين على معظم هذه الجزر نشيطة الآن أو خامدة بصفة مؤقتة . وفى التاريخ القصير للملاحة الحديثة فى هذه المنطقة حدث فى كثير من الأحيان أن أعلن عن ظهور جزيرة جديدة ، ولكن ربما جاء العام التالى ليجد هذه الجزيرة قد اختفت .

وجزيرة بوجوسلوف الصغيرة غيرت — منذ اكتشافها لأول مرة عام ١٧٩٦ — شكلها وموقعها عدة مرات ، بل إنها اختفت تماما ولكن لتظهر مرة أخرى . ولقد كانت الجزيرة الأصلية كتلة من الصخر الأسود نحتت فى أشكال غريبة مرتفعة . وكانت تذكر المستكشفين والبحارة الذين يقتربون منها فى الضباب بشكل القلعة ، ولهذا سميت كاسل روك ،

أى القلعة الصخرية . ولقد تبقى فى الوقت الحاضر برج واحد أو برجان من أبراج هذه القلعة ، ولسان من الصخر الأسود يدفع الموج من تحته جيوان سبع البحر ، ثم مجموعة من الصخور المرتفعة التى تردد صدى صرخات الآلاف من الطيور المائية . وفى كل مرة يثور فيها البركان الذى أنشأ هذه الجزيرة — كما حدث ست مرات على الأقل منذ أصبح الرجال يراقبونه — تظهر كتل جديدة من الصخور الملتهبة من وسط المـاء الساخن ويرتفع بعضها حتى يصل إلى بضع مئات من الأقدام قبل أن يدمر فى انفجارات جديدة . وكل مخروط جديد يظهر ،يكون كما يصفه جاجار عالم البراكين : القمة الحية لكتلة بحرية هائلة من المقذوفات البركانية يبلغ ارتفاعها ستة آلاف قدم وتقوم على قاع بحر بيرنج حيث تختفى جبال الوشيان فى البحر العميق .

ومن الاستثناءات القليلة لهـذه القاعدة الكونية — وهى أن جزر المحيطات لها أصل بركانى — تلك المجموعة الغريبة من الجزر التى تعرف باسم صخور سانت بول . وصخور سانت بول التى تقع فى المحيط الأطلنطى بين البرازيل وإفريقيا تقف كحاجز طفر من أعماق المحيط فى وجه التيار الاستوائى ، وككتلة تتحطم عليها بعنف مفاجىء الأمواج التى قطعت ألف ميل دون أن يعوقها شىء . وتشغل مجموعة الصخور كلها مساحة لا تزيد على ربع ميل ، وتبدو فى شكل خط منحن أشبه بحدوة الجواد . وأعلى

صخرة فيها لا يزيد ارتفاعها على ٦٠ قدما فوق سطح البحر حتى إن رشاش الماء يبللها إلى قمتها . وهذه الصخور تنحدر إلى الماء فجأة ويكون انحدارها رأسياً حتى الأعماق السحيقة . ولقد حار الجيولوجيون منذ داروين فى أصل هـذه الجزر السوداء التى تغسلها الأمواج دائماً . ويتفق معظم هؤلاء الجيولوجيين على أنها تتركب من مادة تشبه المادة التى يتكون منها قاع البحر نفسه وأنه حدثت فى عصور بعيدة حالات ضغط شديد على قشرة الأرض دفعت بكتلة صلبة من الصخر إلى أعلى مسافة تزيد على ميلين .

وصخور سانت بول عارية جرداء لا تنمو عليها حتى حشائش البحر ، وتبدو كمكان لا تستطيع أن تتوقع أن تعثر فيه حتى على عنكبوت ينشر خيوطه على أمل أن يصيد إحدى الحشرات الهائمة . ومع ذلك فإن داروين عثر على بعض العناكب عندما زار هذه الصخور عام ١٨٣٣ . وبعد ذلك بأربعين عاما أعلن علماء الطبيعة الذين كانوا على ظهر السفينة البريطانية « تشالنجر » أنهم وجدوا أيضاً بعض العناكب منهمكة فى نشر خيوطها . وهناك كذلك قليل من الحشرات بعضها يعيش متطفلا على طيور البحر التى تبنى ثلاثة أنواع منها عششها على الصخور . ومن هذه الحشرات حشرة صغيرة ذات أجنحة تعيش فى الريش . وبهذه الحشرة تنتهى قائمة سكان صخور سانت بول فيما عدا السكابوريا القبيحة الشكل التى تنتشر فوق هذه الجزر وتعيش بصفة رئيسية على جراد الماء الذى

تحضره الطيور لصغارها . وليست جزر سانت بول وحدها هى التى لديها مجموعة غريبة من السكان ، لأن حيوانات ونباتات جزر المحيطات تختلف عن مثيلاتها فى القارات بدرجة تدعو إلى الدهشة . ونموذج الحياة فى الجزر نموذج غريب له دلالته . ففيما عدا الأشكال التى أدخلها الإنسان أخيراً فان هذه الجزر النائية عن القارات لم تسكنها قط أى حيوانات ثديية من حيوانات الأرض باستثناء الحيوان الثديى الوحيد الذى تعلم الطيران وهو الخفاش . وليست هناك ضفادع أو سمندلات أو أية حيوانات برمائية أخرى . أما الزواحف فقد يكون هناك قليل من الحيات والسحالى والسلاحف ، ولكن كلما ابتعدت الجزر عن الأرض قلت الزواحف حتى تختفى نهائياً من الجزر المعزولة تماما . وتوجد هناك عادة أنواع قليلة من الطيور البرية وبعض الحشرات والعناكب . وفى الجزر النائية جداً مثل جزيرة تريستان دا كونها التى تقع فى جنوب الأطلنطى على بعد ١٥٠٠ ميل من أقرب قارة لا توجد من الحيوانات البرية سوى ثلاثة أنواع من الطيور البرية وعدد قليل من الحشرات وبضع قواقع صغيرة .

ومن الصعب بمثل هذه القائمة المنتقاة أن نتصور ما يعتقده بعض علماء الأحياء من أن هذه الجزر أمكن استعمارها عن طريق الهجرة عبر جسور أرضية حتى ولو كان هناك دليل قوى على وجود هذه الجسور . إن الحيوانات التى لا أثر لها على الجزر هى الحيوانات التى كان لا يمكن

أن تأتى إليها إلا على شىء جاف فوق هذه الجسور الافتراضية . ومن ناحية أخرى فان النباتات والحيوانات التى نجدها على جزر المحيطات هى هذه النباتات والحيوانات التى استطاعت أن تأتى بفعل الرياح والأمطار . وكبديل لهذا الرأى إذن يجب أن نفترض أن ما يوجد فى هذه الجزر جاء عن طريق أغرب هجرة فى تاريخ الأرض . هجرة بدأت قبل ظهور الإنسان بوقت طويل وما زالت مستمرة ، هجرة تبدو أشبه بسلسلة من الحوادث الكونية أكثر منها عملية منظمة من عمليات الطبيعة .

إننا فقط نستطيع أن نقدر على سبيل التخمين الفترة التى ظلت فيها أية جزيرة من جزر المحيطات بعد ظهورها خالية من أى ساكن . فمن المؤكد أنها فى حالتها الأصلية تكون أرضاً جرداء جافة مثيرة للنفور بدرجة لم يعهدها الإنسان . فلا يتحرك على سفوح تلالها البركانية أى كائن حى ولا تنمو أية نباتات فوق حقولها العارية التى صنعتها مقذوفات البراكين . ولكن قليلاقليلا تصل إليها النباتات والحيوانات التى ستستعمرها من القارات البعيدة ممتطية الرياح أو منساقة مع التيار أو مسافرة فوق كتل أو أشجار طافية .

إن أساليب الطبيعة متأنية جدا ، متمهلة جدا، وعنيدة جدا حتى إن اسكان جزيرة من الجزر قد يستغرق آلافا أو ملايين من السنين. ومن المحتمل ألا يزيد عدد المرات التى يستطيع فيها كائن معين كسلحفاة مثلا أن يهبط فوق

شواطىء هذه الجزيرة عن ست مرات طوال كل هذه العصور . وعندما تدهش لماذا لا يشاهد الانسان عمليات الوصول هذه بصفة مستمرة فإنك عندئذ لا تفهم الخطى السحرية للعملية .

ومع ذلك فاننا نلمح فى بعض الأحيان هذه العملية . إن الرمث الطبيعى لأشجار اقتلعت أو نباتات جافة يشاهد كثيراً طافيا فوق سطح البحر على مسافة تزيد على ألف ميل من مصبات الأنهار الاستوائية مثل الكونغو والجانجيز والأمازون والأورينوكو . ومثل هذا الرمث يستطيع أن يحمل مجموعة من المسافرين من الحشرات أو الزواحف أو الحيوانات الهلامية . وبعض هؤلاء المسافرين رغم إرادتهم قد يستطيعون الصمود فى البحر أسابيع طويلة ، والبعض الآخر قد يموت فى الأشواط الأولى من المرحلة . وربما كانت حشرات الخشب وهى أكثر الحشرات التى توجد فى جزر المحيطات غالبا ، هى خير ما يلائم السفر على الرمث بين فصيلة الحشرات كلها . وأقل الأحياء صلاحية هى الحيوانات الثديية . ولكن حتى مثل هذه الحيوانات تستطيع أن تقطع مسافات قصيرة بين الجزر . ولقد أمكن بعد انفجار جزيرة كراكاتو بأيام قليلة إنقاذ قردة صغيرة من فوق بعض جذوع الأشجار الطافية فى مضيق سوندا ، وكانت القردة قد أصيبت بحروق شديدة ولكنها عاشت بعد هذه التجربة .

وليس هناك شىء آخر يستطيع أن يقوم بدور الماء والرياح والتيارات

بالهوائية فى إحضار السكان إلى الجزر . ولقد كانت الطبقات الجوية العليا حتى قبل أن يدخلها الإنسان بمخترعاته مكانا يعج بالمرور . فالهواء على ارتفاع آلاف الأقدام فوق الأرض يزدحم بالكائنات الحية التى تطير أو يسوقها التيار أو تتعلق فى الجو أو تدور رغم إرادتها مع الرياح العليا . ولم يتم اكتشاف هذه الطبقات الجوية الآهلة إلا عندما وجد الإنسان نفسه الوسائل التى تمكن بها من غزو هذه المناطق غزوا فعليا . ولقد تمكن العلماء بوساطة الشباك والفخاخ من أن يجمعوا من طبقات الجو العليا أشكالا من الأحياء التى تسكن جزر المحيطات ، فالعناكب التى يعد وجودها الثابت على هذه الجزر مشكلة محيرة ، أمكن اصطيادها على بعد حوالى ثلاثة أميال فوق سطح الأرض ، كما أن بعض الطيارين مروا بين « مظلات » من الحرير الناعم صنعتها العناكب على ارتفاعات تبلغ ميلين أو ثلاثة أميال . كذلك أمكن إمساك كثير من الحشرات الحية على ارتفاعات تتراوح بين ٦ آلاف و ١٦ ألف قدم حيث تبلغ سرعة الرياح ٤٠ ميلا فى الساعة . ومن الممكن على مثل هذه الارتفاعات و بين مثل هذه الرياح القوية أن تنقل هذه الحشرات إلى مسافات تبلغ مئات الأميال . أما البذور فقد أمكن أيضاً جمعها على ارتفاعات تصل إلى خمسة آلاف قدم . ومن بين الأحياء التى تم صيدها بعض أعضاء العائلة المركبة وخصوصاً ما يسمى بالعوسج المماثل لما يوجد على جزر المحيطات .

وثمة ناحية غريبة فى نقل النباتات والحيوانات بفعل الرياح ، هى أن الرياح فى الطبقات العليا من الغلاف الجوى لا تنطلق بالضرورة فى نفس الاتجاه الذى تتجه به على سطح الأرض . فالرياح التجارية سطحية بشكل واضح ، حتى إن رجلا يقف على سفوح سانت هيلانة على ارتفاع ألف قدم من البحر يكون فوق هـذه الرياح التى تهب تحته بقوة . ومتى ارتفعت الحشرات والبذور وما شابهها ودخلت الطبقات العليا من الهواء أصبح من الممكن عملها فى اتجاه مضاد لاتجاه الرياح السائدة عند مستوى الجزيرة .

والطيور التى تقطع مسافات واسعة والتى تزور جزر المحيطات فى مواسم هجرتها قد تقوم أيضاً بدور كبير فى توزيع النباتات ، وربما كذلك بعض الحشرات والمحارات البرية الصغيرة . ولقد استطاع داروين أن يجمع من كرة من الطين أخذها من ريش أحد الطيور اثنين وثمانين نباتا مستقلا تنتمى إلى خمسة أنواع متميزة . وكثير من بذور النباتات ذات سطح مشرشر أو مغطى بالأشواك ، الأمر الذى يجعلها قابلة للتعلق بالريش. والطيور التى تطير سنويا من ألاسكا إلى جزر هاواى ، وربما إلى ما بعد ذلك ، مثل طائر الدمشق الذهبى فى الباسفيك ، قد تساعد فى حل كثير من ألغاز توزيع النباتات .

ولقد قدمت كارثة جزيرة كراكاتو إلى علماء الطبيعة فرصة كافية

لملاحظة استعمار هذه الجزيرة . فكرا كاتو اعتبرت بعد انفجارها عام ١٨٨٣ جزيرة جديدة من وجهة النظر الجيولوجية ؛ إذ أن الجانب الأكبر من الجزيرة دمر تماما ، وما تبقى منها اختفى تحت طبقة عميقة من المقذوفات البركانية والرماد ، ظلت ساخنة لعدة أسابيع . وما إن أصبح من الممكن زيارة الجزيرة حتى أخذ العلماء يبحثون عن علامات تدل على الحياة ، على الرغم من أنه من الصعب أن نتصور كيف يمكن أن يبقى أى كائن حى على هذه الجزيرة . ولم يستطع العلماء العثور على نبات واحد أو حيوان واحد . ومرت تسعة أشهر قبل أن يستطيع كوتو عالم الطبيعة أن يعلن : « لقد اكتشفت عنكبوتا دقيقا ؛ واحدا فقط . وكان هذا الرائد الغريب مشغولا بنشر خيوطه » . ولما لم تكن هناك حشرات فى الجزيرة فإن نشر خيوط هذا العنكبوت الصغير الجرئ كان عبثا . والواقع أن جزيرة كرا كاتو ظلت خالية من أى شيء لمدة ربع قرن سوى من قليل من أوراق النبات الجافة . ثم بدأ المستعمرون فى الوصول ، فوصل قليل من الحيوانات الثديية عام ١٩٠٨ ثم عدد من الطيور والسحالى والأفاعى والحيوانات الهلامية والحشرات والديدان التى تسمى بالحراطين . وقد وجد العلماء الهولنديون أن ٩٠ ٪ من سكان كرا كاتو الجدد من الأنواع التى يمكن أن تكون قد وصلت بوساطة الهواء .

ولما كانت الحياة على الجزر معزولة عن الحياة على القارات ولا توجد

بها أية فرصة لعملية التهجين التى تستهدف حفظ النسبة والتخلص من الغريب والشاذ ، فقد تطورت هذه الحياة بطريقة عجيبة . فعلى هذه القطع النائية من الأرض نشطت الطبيعة فى خلق أشكال غريبة ، وأنتجت كل جزيرة أنواعاً وطنية ، أى أنواعاً خاصة بها وحدها ولا يوجد مثيل لها فى أى مكان آخر على الأرض ، كأنما تثبت بهذا تغيرها العجيب .

ولقد تلقى الشاب داروين أول شعاع عن الحقائق الهائلة عن أصل الأنواع من صفحات تاريخ الأرض التى كتبت عن حقول المقذوفات البركانية فى جزر جالاباجوس . وعندما قام داروين بمراقبة النباتات والحيوانات — السلاحف الضخمة والسحالى السوداء المحيرة التى تصيد طعامها من الأمواج على الشاطىء ، وسبع البحر والطيور ذات التنوع العجيب — أصيب بالدهشة للتشابه الغامض بينها وبين الأنواع التى توجد على الأرض الأصلية فى جنوب ووسط أمريكا . ولكنها مع هذا تتسم بكثير من الاختلافات التى تميزها ، لا عن أنواع الأرض الأصلية فحسب ، بل وعن الأنواع التى توجد فى الجزر الأخرى من نفس المجموعة . وبعد ذلك بسنوات كتب داروين فى مذكراته يقول : « يبدو أننا اقتربنا بعض الشىء فى الزمان والمكان من الحقيقة الهائلة — لغز الألغاز — وهى الظهور الأول للكائنات الجديدة على الأرض .

ومن « الكائنات الجديدة » التى انتشرت على الجزر بعض الطيور التى تعد نماذج محيرة . لقد استطاع طائر صغير يشبه الحمام أن يجد طريقة فى بعض العصور البعيدة قبل ظهور الإنسان إلى جزيرة موريشيوس فى المحيط الهندى . وببعض عمليات من التغير التى نستطيع نحن أن نتخيلها فقد هذا الطائر قدرته على الطيران وأصبحت له ساقان قصيرتان قويتان وكبر حجمه حتى وصل إلى حجم الديك الرومى. وهذا هو أصل طائر الدودو المنقرض الذى لم يعش طويلا بعد وصول الإنسان إلى جزيرة موريشيوس . ولقد كانت نيوزيلنده هى الموطن الوحيد لطائر الموا المنقرض وهو أحد أنواع الطيور التى تشبه النعامة والتى يبلغ ارتفاعها ١٢ قدما . وكان الموا يتجول فى نيوزيلندة منذ أوائل العصر الجيولوجى الثالث ، وما بقى منه عند وصول الماورى سرعان ما انقرض .

وهناك أنواع أخرى غير الدودو والموا اتجهت إلى الزيادة فى الحجم . وربما أصبحت سلحفاة جالاباجوس ضخمة الحجم بعد وصولها إلى الجزيرة على الرغم من أن الحفريات التى وجدت فى القارات تلقى ظلالا من الشك على هذا الرأى . وعدم استخدام الأجنحة بل وفقدان الأجنحة نفسها (كما حدث لطائر الموا) يعد نتيجة للحياة على الجزر ، فالحشرات التى توجد على الجزر الصغيرة التى تكتسحها الرياح تتجه إلى فقدان القدرة على الطيران

أما التى تحتفظ بهذه القدرة فانها تكون معرضة لخطر القائها فى البحر . وتوجد فى جزر جالاباجوس غربان بحرية فقدت قدرتها على الطيران كما يوجد فى جزر الباسفيك ١٤ نوعاً على الأقل من الطيور من فصيلة السكركى لا تطير .

ومن الصفات الممتعة الجذابة التى تمتاز بها أنواع الأحياء فى الجزر الألفة العجيبة وعدم الخداع فى تصرفاتها مع الإنسان ، تلك الألفة التى لاتغيرها التجارب المريرة سريعا . فعندما زار روبرت كوشمان مورفى جزيرة سوث ترينداد عام ١٩١٣ مع بحارة السفينة دايزى هبطت طيور خطاف البحر على رءوس البحارة وأخذت ترمق وجوههم بنظرات فاحصة . أما طيور القادوس فى جزيرة لايزان التى من عاداتها الغريبة أن ترقص فى مرح فقد سمحت لعلماء الطبيعة بأن يسيروا فى مستعمرتها ، وكانت تجيب بانحناءة رزينة على التحايا المهذبة من جانب الزائرين . وعندما زار عالم الطيور البريطانى دافيد لاك جزر جالاباجوس بعد داروين بقرن واحد وجد أن الصقور تسمح للانسان بلمسها وأن طيور صائد الذباب حاولت أن تأخذ بعض الشعر من رءوس الرجال لاستخدامه فى عششها . وكتب لاك يقول : إنها متعة غريبة أن يجد الانسان الطيور البرية تستقر على كتفه ، وهذه المتعة يمكن أن تزداد لو كان الانسان أقل ميلا إلى التخريب .

ولكن الانسان لسوء الحظ كتب أسود سجل له كعامل مدمر فى

جزر المحيطات . انه قلما وضع قدمه على إحدى الجزر ولم يحدث فيها تغييرات مخربة . لقد دمر بيئات بأكملها عن طريق القطع والتنظيف والحرق ، وأحضر معه الفأر الشرير ، وكان يطلق فى الجزر دائما كل ماحملته سفينة نوح من الماعز والخنازير والماشية والكلاب والقطط وغير ذلك مما لا يعد من الحيوانات الأصلية التى تستوطن هذه الجزر . ومثل هذا أيضا بالنسبة للنباتات . وما إن حدث ذلك حتى هبط ليل الانقراض على أنواع وراء أنواع من الأحياء على الجزر .

وثمة شك كبير فيما إذا كانت هناك علاقة فى العالم كله أدق توازنا من تلك العلاقة التى توجد بين الأحياء فى الجزر و بين بيئتها . إن هذه البيئة ذات نمط واحد . ففى وسط المحيط الذى تحكمه تيارات ورياح نادراً ماتحول اتجاهها ، تكون التغيرات الجوية قليلة ، وليس هناك أعداء من الطبيعة سوى القليل ، بل ربما ليس هناك أعداء على الاطلاق . والصراع العنيف من أجل البقاء ، وهو الشيء الطبيعى فى الحياة على القارات، يكون هادئا علي الجزر . ولذلك فانه عندما يحدث أى تغيير مفاجىء لهذا النمط الرقيق من أنماط الحياة فان الكائنات التى تعيش على الجزر تكون أضعف من أن تقوم بالتغيرات الضرورية لبقائها .

ويحدثنا أرنست ماير عن سفينة تحطمت بالقرب من جزيرة لورد هوو فى شرق استراليا عام ١٩١٨ وسبح فئرانها إلى الشاطىء . وخلال عامين

كانت هذه الفئران قد أبادت جميع الطيور التى تستوطن الجزيرة تقريباً حتى إن هذا الرجل الذى عاش فى الجزر كتب يقول : « لقد أصبحت جنة الطيور هذه أرضاً مقفرة ، وخيم سكون الموت حيث كان كل شىء ينطق بالألحان » .

وعلى جزيرة تريستان دا كونها أبيدت جميع الطيور الفريدة التى انتشرت هناك على مر العصور بفعل مجموعة من الخنازير والفئران ، وفى جزيرة تاهيتى بدأت الأنواع التى تستوطن الجزيرة تنهزم أمام حشد من الأنواع الغريبة التى جلبها الانسان . ولعل جزر هاواى تعد مثلا واضحا على نتائج التدخل فى التوازن الطبيعى . إن علاقات معينة نشأت عبر القرون بين الحيوان والنبات ، وبين النبات والتربة . وعندما جاء الانسان وأثار اضطرابا عنيفاً فى التوازن أحدث بذلك سلسلة متتابعة من انعكاس الآية .

فلقد أحضر فانكوفر ماشيــة وماعزاً إلى جزز هاواى ، وكان الدمار الذى أصاب الغابات والنباتات الأخرى هائلا . كذلك كانت نتيجة إدخال أنواع من النباتات سيئة للغاية . ويقال إن رجلا يدعى كابتن ما كى أدخل نباتاً يعرف باسم ما كانى إلى حدائقــه الجميــلة فى جزيرة موى . وكانت بذور هذا النبات خفيفة تستطيع الرياح حملهــا . وسرعان ما اختفت من حدائق الــكابتن وأتلفت المراعى فى جزيرة موى ثم أخــذت تنتقل من جزيرة إلى أخرى . وفى وقت من الأوقات أحضر شباب فرق الوقاية

المدنية الأمريكية لتطهير هونوليولى من هذه البذور ، ولكن ما ان أتلفوها حتى وصلت بذور ونباتات جديدة على الرياح . وهناك نبات آخر يسمى اللنتانا أدخل كنوع من أنواع الزينة . وهذا النبات يغطى الآن آلافا من الأفدنة ولكنه ملىء بالأشواك على الرغم من المبالغ الهائلة من المال التى نفقت لإحضار حشرات طفيلية للسيطرة عليه .

وبعض الكائنات على الجزر تتشبث بخيط دقيق يربطها بالحياة . فطيور الشرشير لا توجد فى أي مكان فى العالم سوى فى جزيرة لايزان الصغيرة . وحتى فى هذه الجزيرة تعيش هذه الطيور عند طرف واحد فقط حيث توجد الأرض المشبعة بالماء . وربما كان مجموع أفراد هذا النوع لا يزيد على الخمسين ، ولهذا فان تدمير قطعة الأرض الصغيرة المليئة بالمستنقعات التى تستوطنها هذه الطيور أو إدخال أنواع معادية أو منافسة يمكن أن يذهب بخيط الحياة الرفيع الذى تتعلق به .

ولقد كان الإنسان يقدم على عبثه المألوف بتوازن الطبيعة وهو يجهل الأحداث التى ستتبع ذلك ولكننا فى الأزمنة الحديثة على الأقل قد نستفيد من التاريخ . لقد جلب البرتغاليون الماعز فى حوالى عام ١٥١٣ إلى جزيرة سانت هيلانه التى كانت قد اكتشفت حديثاً والتى كانت قد أخرجت غابة بديعة من الصمغ والأبنوس والخشب البرازيلى ، وعندما جاء عام ١٥٦٠ كان عدد الماعز قد تضاعف حتى إنها كانت تتجول فى أنحاء الجزيرة

بالآلاف فى جماعات تمتد ميلا . وكانت تدوس بأقدامها الأشجار الصغيرة وتأكل كل ما نبت من الزرع . وكان المستعمرون فى ذلك الوقت قد بدأوا يقطعون ويحرقون الغابات ، حتى إنه من الصعب أن نقرر : أهو الإنسان أم الماعز يعتبر مسئولا عما لحق بالغابات من دمار ؟ ولكن النتيجة لم يكن هناك شك فيها . ففى أوائل عام ١٨٠٠ كانت الغابات قد اختفت . وكتب عالم الطبيعة ألفريد والاس فيما بعد عن هذه الجزيرة البركانية التى كانت ذات يوم جميلة تكسوها الغابات فوصفها « بالصحراء الصخرية » التى استمرت بقايا النباتات الأصلية فيها تعيش فقط على قمم وحوافى فوهات البراكين التى لا يمكن الوصول إليها .

وعندما زار عالم الفلك هالى جزر الأطلنطى حوالى عام ١٧٠٠ وضع عدداً قليلا من الماعز على شاطىء جزيرة سوث ترينداد . وفى هذه المرة تقدمت عملية إزالة الغابات دون مساعدة الإنسان ، وتقدمت سريعاً حتى إنها انتهت خلال قرن واحد . واليوم يوجد على سفوح ترينداد شبح غابة وتنتشر فوقها جذوع أشجار ميتة نخرها السوس . أما تربتها اللينة التى لم تعد تمسكها الجذور المتشابكة فإنها تنزلق إلى البحر .

ومن أكثر جزر الباسفيك التى تثير الاهتمام جزيرة لايزان ، وهى قطعة من التربة تقع بعيداً خارج سلسلة جزر هاواى . لقد كانت هذه التربة تغذى فى وقت من الأوقات غابة من الصندل والنخيل ذى الأوراق

التى تشبه المروحة إلى جانب خمسة أنواع من الطيور البرية خاصة بلايزان وحدها ، من بينها التغلق وهو طائر قزم لا يزيد ارتفاعه على ست أقدام وله جناحان صغيران جداً (وهما لم يستخدما مطلقاً كجناحين) وله قدمان كبيرتان جداً وصوت يشبه صليل جرس يأتى من بعيد . وفى حوالى عام ١٨٨٧ أخذ كابتن احدى السفن التى زارت لايزان بعض طيور التغلق ونقلها إلى جزر ميدواى على بعد حوالى ثلاثمائة ميل إلى الغرب حيث أنشأ جالية ثانية . وكان يبدو أن هذه الخطوة موفقة، إذ سرعان ما أدخلت الأرانب إلى لايزان . وفى خلال ربع قرن كانت الأرانب قد قتلت النباتات التى كانت على الجزيرة الصغيرة وحولتها إلى صحراء رملية . وأخيراً أبادت نفسها . أما بالنسبة للتغلق فإن دمار جزيرته كان قاتلا . ومات آخر طائر منه فى عام ١٩٢٤ .

وربما كان من الممكن فيما بعد تجديد جالية لايزان من المجموعة التى توجد فى ميدواى لولا أن هذه المجموعة من الجزر كانت قد أصيبت بمأساة أيضاً . فأثناء الحرب كانت الفئران تهبط إلى شواطئ الجزر ، الواحدة بعد الأخرى من السفن وزوارق إنزال الجنود . وقد غزت هذه الفئران ميدواى عام ١٩٤٣ . وكانت النتيجة أن قتلت طيور التغلق كبارها وصغارها وأكل بيضها . وآخر طائر منها شوهد عام ١٩٤٤ .

إن مأساة جزر المحيطات تكمن فى أن أنواعها التى ظهرت نتيجة عمليات بطيئة على مر العصور ، أنواع فريدة لا تعوض . ولو كان هناك عالم

عاقل لنظر إلى هذه الجزر كممتلكات ثمينة ومتاحف طبيعية مليئة بأعمال الخلق الجميلة العجيبة التى تفوق قيمتها كل ثمن ؛ إذ أنها لا تتكرر فى أى مكان آخر من العالم . إن رثاء و.ه. هدسون لطيور برارى الأرجنتين كان يصبح أكثر صدقاً لو أنه قيل فى الجزر : « لقد اختفى الجمال وليس له من عودة » .

جرترود



* مأخوذة من كتاب ستيفن ليكوك Srephen Leacock
التى نشره بعنوان « قصص تافهة » Nonsense Novels

كانت ليلة عاصفة هوجاء على ساحل اسكتلندا الغربى ، ومع ذلك فليس هذا من شأننا فى هذه القصة، لأن مسرحها لم يكن فى غرب اسكتلندا، وكل ما هنالك أن الطقس هناك كان سيئاً جداً فى شرق ايرلندا كذلك .

إن مسرح هذه القصة هو جنوب انجلترا ، وتدور حوادثها فى قصر « نوشام توز » قصر اللورد نوش ، وفى الفضاء المحيط به .

وقصر نوشام ، مثال للبيت الانجليزى ، وبنى الجزء الرئيسى منه على طراز اليزابيث من الطوب الأحمر ، أما الجزء القديم فيه — وهو موطن زهر الأيرل — فقد بنى على الطراز النورماندى ، وأضيف إليه سجن وملجأ للأطفال اليتامى . ويمتد حول القصر من جميع نواحيه دغل عظيم رائع وحديقة امتلأت بأشجار البلوط وأشجار الدردار العتيقة .. وشمخت بالقرب من المنزل شجيرات التوت ونبات الخبيزى التى غرسها الصليبيون .

وكان الجو حول القصر مليئاً بتغريد الطيور ونعيق الحجل وأصوات الغربان ، بينما تطوف الغزلان والأبقار الوحشية وغيرها من ذوات

الأربع حول مروجه ، أليفة ترعى الحشائش . وكان المكان فى الواقع مرعى خصيباً ومعرضاً دائماً لها .

وامتد ، من المنزل حتى الحديقة الكبرى ، طريق طويل عريض أنشأه و مهده هنرى السابع .

ووقف لورد نوش بجوار المدفأة فى حجرة المكتب . وقد استشاط غضباً وقال :

— اسمع يا بنى .. إنك ستتزوج من هذه الفتاة ، وإلا حرمتك من ميراثى ، ولن تكون ولدى.

ورفع اللورد رونالد الشاب هامته وسدد إليه نظرة تجلى فيها التحدى وقال :

— إننى أتحداك . ولن تكون أبى من الآن فصاعدا ، وسأبحث لى عن أب غيرك . ولن أتزوج إلا من الفتاة التى أحبها . أما الفتاة التى لم أرها حتى الآن ف ...

فقاطعه الإيرل قائلا :

— أيها الأحمق ، هل تتخلى عن مقاطعتنا هذه واسم خلد آلاف السنين . لقد علمت أن الفتاة جميلة ، وعمتها راغبة فى زواجها منك . . إنهم فرنسيون . أوه !. انهم فى فرنسا يفهمون هذه الأمور .

— ولكن السبب الذى تبديه . .

— أنا لا أبدى أسباباً . . أصغ إلى يا رونالد . إننى أمنحك مهلة شهر وستظل هنا طوال هذه المدة ، وإذا رفضت فى نهايتها طاعتى فانى سأتخلى عنك وأقطع صلتى بك .

ولم يقل اللورد رونالد شيئا ، وخرج من الحجرة مسرعا وامتطى جواده وسار به على غير هدى .

وغاص الايرل فى مقعده بعد خروج رونالد ، وتغير وجهه، ولم يعد وجه ذلك النبيل المتعجرف ، بل أصبح وجه المجرم الذى يطارده الجميع . وقال فى نفسه « يجب أن يتزوج من هذه الفتاة . إنها ستعرف كل شىء عاجلا » .

لقد هرب تاتشيموف من سيبيريا .. انه يعرف ذلك وسيخبرها به . . إن جميع المناجم ستئول إليها ومعها هذه الممتلكات . . وأنا . . آه إن هذا يكفى » .

ونهض وتوجه نحو دولاب جانبى وملأ لنفسه كأسا من الجن احتساها جرعة واحدة ، وعاد من جديد ذلك السيد الانجليزى الأصيل .

ودخلت فى هذه اللحظة عربة تجرها الخيول ويقودها أحد رجال الإيرل نوش فى زيه الرسمى ، إلى الطريق الموصل لقصر نوشام تون ، وقد جلست بجواره فتاة شابة تكاد تشبه طفلة ، أضأل جسما من السائق ،

واختفى وجهها حتى لا تـكاد تظهر معالمه ، تحت قبعتهـا المزدانة بريش أسود متهدل .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن هذه الفتاة كانت جرترود المربية التى جاءت لتتسلم مهام منصبها الجديد فى نوشام توز . .

وفى الوقت الذي دخلت فيه العربة الطريق من أحـد أطرافه كان هناك شاب طويل القامة يدخل من طرفه الآخر ، ينم وجهه الطويل عن نشأته الأرستقراطية ، وقد امتطى صهوة جواد طويل الرأس ويسير فى اتجاه جرترود .

ترى من يكون هذا الشاب الذى يقترب من جرترود وهو يحث جواده ويحفزه؟ .. إنه لم يكن غير اللورد رونالد .

لقد كتب فى لوح القدر أن يلتقى الاثنان . وازداد اقتراب كل منهما من الآخر ، حتى التقيا . ورفعت جرترود رأسها ووجهت إلى النبيل الشاب عينين معبرتين فاحصتين ، بينما التفت لورد رونالد إلى راكبة العربة ورماها بنظرة أشبه ما تـكون بنظرة الغزال بل تفوقها حدة وتحديقا . . .

ترى هل كانت هذه النظرات المتبادلة بداية الحب ؟.. من يدرى ؟..

والآن فلنتكلم عن جرترود ... ان جرترود دى مونجمورنس ماك فيجن لم تعرف أبويها وهى طفلة ... ولم تـكن تعرف عن أمها شيئا سوى

أمها فرنسية بارعة الجمال ، ومات أهلها وأصدقاؤها فى الثورة .

ومع ذلك فقد احتفظت جرترود بذكرى أبويها ، إذ علقت على صدرها ميدالية بها صورة مصغرة لأمها، بينما تدلت حول عنقها سلسلة علقت بها صورة لأبيها ، كما احتفظت معها بصور جدتها وأبناء أعمامها . .

ولم تعرف جرترود عن أبيها إلا القليل . وكل ما تعرفه عنه أنه سيد انجليزى عريق المولد عاش هائما على وجهه فى الكثير من البلاد . . . ولم ترث عنه إلا كتابا فى قواعد اللغة الروسية ، وكتاب « ترجمة » رومانية وآلة لقياس الأبعاد ، وكتاب هندسة التعدين .

وقد نشأت جرترود وهى طفلة غريرة فى كنف عمتها التى ربتها على المبادىء المسيحية السليمة ، ثم ماتت هذه العمة بداء الصرع وجرترود فى السابعة عشرة من سنها .

وكانت الوفاة فى ظروف غامضة؛ إذ قدم لزيارتها فى ذلك اليوم رجل غريب ملتح يرتدى الزى الروسى ، ووجدت جرترود عمتها بعد ذهاب هذا الزائر فى حالة إغماء انقلب إلى غيبوبة لم تفق منها أبدا ... وقيل إنها أصيبت بالصرع تجنبا للفضيحة . وهكذا دخلت جرترود معترك الحياة وحيدة لاتدرى ماذا تصنع . وكانت هذه هى المشكلة التى واجهتها جرترود ...

وبينما هى تفكر ذات يوم فى مصيرها إذا بها تقرأ اعلانا فى الصحف هذا نصه : (مطلوب مربية، تعرف اللغة الفرنسية والايطالية والروسية والرومانية والموسيقى وهندسة التعدين، بمرتب جنيه و٤ شلنات و٤ر٥ بنس فى السنة... اتصلى بالكونتيسة أوف نوش بالمنزل رقم ٤١ أ شارع ديسيمال سكس بميدان بلجراف) .

وكانت جرترود فتاة سريعة الفهم ، ولم تفكر فى هذا الاعلان أكثر من ساعة ونصف ساعة ، حتى لفت نظرها التوافق العجيب بين ماهو مطلوب توافره فى المربية المرغوبة وبين ما تعرفه هى نفسها .

وقدمت نفسها فى الميعاد المحدد إلى الكونتيسة التى أقبلت عليها فى لطف وايناس اطمأنت إليهما الفتاة . وسألتها الكونتيسة : هل تتقنين الفرنسية ؟

فأجابتها جرترود فى تواضع : نعم (نطقتها بالفرنسية)

— والإيطالية ؟

— نعم (نطقتها بالإيطالية)

— والألمانية ؟

— نعم (نطقتها بالألمانية)

— وار وسية؟

— نعم (نطقتها بالروسية)

— والرومانية ؟

— نعم (نطقتها بالرومانية)

فذهلت الكونتيسة لاتقان الفتاة لهذه اللغات العصرية وتطلعت اليها فى نظرات ثاقبة... ترى ، أين رأت هذه الملامح من قبل ؟ ومرت بيدها فوق جبينها فى تفكير عميق ، ودقت الأرض بقدمها ... حقا .. لقد حيرها هذا الوجه .

وقالت : كفى . لقد عينتك .. فاذهبي غدا إلى قصر نوشام توز لتبدئى فورا فى تعليم الأطفال ، ويجب أن أخبرك بأنه من المنتظر أيضا أن تساعدى الايرل على كتابة رسائله الروسية لأن له مناجم كثيرة فى تشمنسك ..

تشمنسك . يا لله !! لماذا كان لهذه الكلمة صدى غريب فى أذنى جرترود ؟ هل لأنها كانت مدونة بخط أبيها على الصفحة الأولى من كتابه عن التعدين ؟ ترى أى سر هناك ؟

وذهبت جرترود فى اليوم التالى إلى قصر نوشام توز ونزلت أمام باب

القصر ومرت بزمرة من الخدم فى الزى الخاص وسارت حتى تخطت الباب وقابلتها السكونتيسة مرحبة بها ، ثم ساعدتها على حمل حقيبتها إلى الطابق العلوى .

ونزلت الفتاة بعد قليل وأدخلت غرفة المكتبة حيث قدمت إلى الإيرل . وما كادت تقع عليها عيناه حتى ارتسمت على وجهه الدهشة جلية واضحة . . ترى . أين رأى هذه الملامح والقسمات . ومتى ؟ . أرآها فى المسارح أم فى حلبات السباق ؟ هل رآها فى الطريق ؟ ... كلا . كلا . لقد كان رأسه ميدانا لذكريات غامضة ...وأخذ يذرع الغرفة حتى وقف بجانب الدولاب ، وصب لنفسه كأساً مترعة من الخمر، احتساها دفعة واحدة حتى زالت عنه دهشته وعادت إليه نفسه ،نفس النبيل الإنجليزى الرزين .

وذهبت جرترود إلى غرفة الطفلين اللذين وكل إليها أمرهما لتتعرف عليهما وتكون لنفسها فكرة عنهما .

ونعود إلى الحديث عن الإيرل وولده ... لقد كان لورد نوش المثل الكامل للنبيل الإنجليزى والحاكم الإنجليزى . وأكسبته السنوات التى قضاها فى السلك السياسى فى القسطنطينية وسانت بطرسبرج وسولت ليك سيتى رقة ونبلا عجيبين ، بينما أكسبته إقامته الطويلة فى سانت هيلانة

وجزيرة بتيكيرن ، وهاملتون وأونتاريو طابعاً غريباً لا يظهر على وجهه مايعتمل فى باطنه ... وتعلم من عمله كنائب لرئيس خزانة الميليشيا فى المقاطعة حياة الجندية الشاقة ، كما جعله عمله فى القصر الملكى على اتصال مباشر بالأسرة المالكة نفسها .

وحببه ولوعه بالرياضة الخلوية إلى قلوب مستأجرى أملاكه . وكان الإيرل بارعا فى صيد الثعالب والصيد بالكلاب ، وقتل الخنازير ، وصيد الخفافيش ، وغير ذلك مما كان يتلهى به أفراد طبقته فى عصره .

وورث لورد رونالد هذه الهوايات عن أبيه وأظهر منذ طفولته استعداداً لها . وأظهر نبوغاً كبيراً فى الألعاب ، الرياضية وهو فى كلية إيتون ، كما كان أول زملائه فى الأشغال اليدوية فى كامبردج . وهمست انجلترا كلها باسمه فى بطولة تنس الطاولة ، وهو نصر يؤهله ولا شك لاحتلال مقعد فى البرلمان البريطانى .

واستقرت جرترود فى قصر نوشام توز . ومرت الأيام والأسابيع سراعا واجتذبت هذه الفتاة اليتيمة قلوب الجميع بفتنتها وجمالها وأصبح الطفلان الصغيران عبدين طيعين لها . وكانت الطفلة الصغيرة (راشيل فريدا) تردد على مسامعها دائماً كلمة (أنا أحبك) وهى ملقية برأسها الصغير فى حجرها ... حتى الخدم قد أحبوها .

وكان رئيس البستانيين يحضر باقة من الورد إلى غرفتها فى كل صباح قبل أن تستيقظ ، وتنوعت هدايا البستانيين الآخرين إليها وكلهم يسعى لمرضاتها ومسرتها ... وكانت حجرتها لا تخلو منهم فى النهار . أما فى الليل فكان رئيس الخدم الذى أحب هذه الفتاة الوحيدة بلا أصدقاء ، يطرق بابها فى المساء ليقدم لها زجاجة ويسكى ، أو صندوقا من حلوى بتسبرج .. حتى المخلوقات العجماوات أعجبت بها و بطريقتها الصامتة ، فكانت طيور الرخ تحط على كتفيها ، والكلاب تتبعها كظلها أينما سارت .

أما رونالد . . فقد قابلها ذات صباح وتبادلا أطراف حديث بدأته جرترود قائلة بالإنجليزية ثم بالألمانية :

(أى صباح كئيب هذا ؟) وأجابها رونالد :

بل هو صباح كريه .

كريه . . لقد رنت هذه الكلمة فى أذنيها طوال يومها . . وتوالت مقابلاتهما بعد ذلك اليوم . وكانا يلعبان التنس ، وتنس الطاولة بالنهار أما بالليل فكانا — طبقاً لتقاليد القصر الصارمة — يجلسان مع الايرل والكونتيسة للعب البوكر ، ثم يجلسان بعد ذلك فى الشرفة معاً و يشاهدان القمر وهو يدور فى كبد السماء .

ولم ينقض وقت طويل حتى أدركت جرترود أن لورد رونالد يكن

لها شعوراً حاراً ، غير مجرد الشعور نحو زميلة له فى لعبة تنس الطاولة . وكثيراً ما كان — وهى موجودة ، ولا سيما بعد تناول العشاء — يشرد بأفكاره ولا يحس بمن حوله .

وفى إحدى الليالى ، ذهبت جرترود إلى غرفتها . وقبل أن يلمس رأسها الوسادة ، وبعد أن ارتدت ملابس النوم ، فتحت نافذة الحجرة على مصراعيها ، وتطلعت إلى الحديقة فرأت لورد رونالد جالساً على مقعد خشبى تحت النافذة ، وقد رفع بصره إليها وكان وجهه شاحباً شحوباً ينم عن الألم والعذاب .

ومرت الأيام . وسارت الحياة فى قصر نوشام توز على وتيرتها العادية فى القصور الإنجليزية ... فيدق جرس الإيقاظ من النوم فى الساعة السابعة صباحا ، و يدوى صوت البوق فى الثامنة لتناول طعام الافطار وتنفخ صفارة أخرى فى الثامنة والنصف لإقامة الصلاة . ويرتفع العلم على السارية فى الواحدة من بعد الظهر لتناول طعام الغداء ، وتطلق بندقية فى الرابعة ، لتناول الشاى ، و يعلو رنين الجرس فى التاسعة مساء إيذاناً بحلول موعد ارتداء سترة العشاء ، وفى التاسعة والنصف تطلق قذيفة أخرى إيذاناً بأن المائدة قد أعدت لتناول طعام العشاء .. وتنتهى السهرة فى منتصف الليل ثم يعلو رنين الجرس فى الواحدة بعد منتصف الليل ليدعو الخدم إلى إقامة الصلاة .

وكان الشهر الذى حدده الايرل لابنه لورد رونالد يمر سريعاً ... إنهم الآن فى ١٥ من يوليو ولن تنقضى بضعة أيام حتى يحل يوم ١٨ من يوليو...

وكثيراً ما كان يقول الايرل لابنه عندما يقابله :

— تذكر يابنى ... فاما أن توافق وإما أن أحرمك من الميراث .

ترى أى مكان تحتله جرترود من أفكار الايرل ؟ لقد كانت لهفتها على معرفة ذلك هى النقطة المريرة فى كأس سعادتها ، لأنها لم تستطع أن تتكهن بأسباب النفور الملحوظ الذى كان يبديه الايرل نحوها .

ورماها ذات يوم فى أثناء مرورها أمام باب المكتب (بلبيسة حذاء) ، كما رماها مرة أخرى وهم على مائدة العشاء بقطعة من « السجق » فى وحشية ظاهرة .

وكان من عملها أن تترجم للايرل رسائله المكتوبة باللغة الروسية .. وبحثت عبثا عن السر . ووردت للايرل ذات يوم برقية روسية ، ترجمتها له جرترود وكان نصها « ذهب تتشيموف إلى السيدة فوجدها قد ماتت » .

وكان يوم ورود البرقية هو اليوم الذى رماها فيه الايرل بقطعة (السجق) لأن البرقية أثارت أعصابه وغضبه .

ووجدت جرترود فجأة السر الذى كانت تبحث عنه ، فى يوم كان الايرل فيه بعيدا عن القصر فى صيد الخفافيش ، وقد عثرت عليه بإلهام

المرأة الدقيق الذى يطغى فى كثير من الأحيان على سوء المعاملة ... لم يكن لورد نوش المالك القانونى لقصر نوشام توز ، بل كان الوارث ابن عم بعيد له مات فى أحد سجون روسيا التى وضعته بين جدرانها مؤامرات الايرل وهو سفير لبريطانيا فى تشمنسك ، وأصبحت ابنة ابن العم هذا هى المالك الحقيقى للقصر ... وقرأت قصة الأسرة كاملة فى المستندات التى أمامها وان كانت قد خلت من ذكر اسم هذه الوريثة ...

عجيب قلب المرأة ؛ هل دفعها الاطلاع على هذا السر إلى امتهان الايرل وازدرائه ؟ كلا ! . فقد علمها مصيرها المحزن كيف تعطف على الناس ...

ومع هذا فقد بقى السر كما هو ... سرا ... وترى ، لماذا يضطرب الايرل كلما وقعت عليها عيناه ؟ ! بل لماذا كان يتراجع فى بعض الأحيان خطوات إلى الوراء بشكل يلفت نظر من يكون معه . وكثيراً ما يخفى اضطرابه فى هذه الحالة باحتساء كأس مترعة من الخمر الممزوجة بماء فيشى فيعود إلى نفسه ورزانته .

ولم تنس جرترود هذه المستندات ، ولم تغب عن فكرها لحظة واحدة ... وورد ذكرها فى أثناء الحفلة الراقصة التى أقيمت فى قصر نوشام تود ودعى إليها جميع الجيران ... وخفق قلب جرترود توقعاً للمجهول ، وأصلحت ثوبها البسيط بيد مرتجفة حتى لا تبدو فى هيئة غير

مناسبة أمام أنظار لورد رونالد . . . لقد كانت مواردها ضئيلة ولا شك ، ومع ذلك فقد كان حسن ذوقها فى انتقاء الملابس وعبقريتها التى ورثتها عن أمها الفرنسية فى كيفية تنسيقها خير معين لها فى مثل هذه المناسبات . ووضعت وردة يتيمة فى شعرها ، واستنبطت لنفسها (تفصيل) ثوب من بعض رسوم الصحف ورسوم مظلة قديمة حتى جاء الثوب وكأنه ثوب احدى سيدات البلاط الملكى . ووضعت له حزاما من شرائط الحزم المجدولة، وزينت أذنيها بقرط قديم ورثته عن أمها .

وغدت جرترود محط أنظار الجميع ، وكانت بين أنغام الموسيقى الحالمة المتدفقة صورة حية للفتاة الجميلة الطاهرة البريئة التى لايستطيع أى انسان الفكاك من سحرها وفتنتها . . . و بلغ الحفل ذروته . . . كما كانت هى فى ذروة جمالها .

ووقف لورد رونالد مع جرترود تحت إحدى الخمائل وتلاقت نظراتهما، وقال لها رونالد :

— جرترود ! . انى أحبك .

لقد كانت كلمات بسيطة، ومع ذلك فقد أثارت الرعدة فى أوصالها ، بل هزت كيانها كله . . . وارتمت عليه وطوقت عنقه بيديها البضتين وقالت : رونالد ! رونالد ! .

وظهر بجوارهما الايرل فى هذه اللحظة تحت أضواء القمر ، ووجهه يتميز غيظا وقال : هكذا ...

ثم التفت إلى رونالد وقال:

— يبدو وأنك قد اخترت يابنى

فأجابه رونالد فى خيلاء :

— أجل يا أبى

— اذن فأنت تفضل هذه الفتاة المعدمة على تلك الوارثة التى اخترتها أنا لك ؟ .

فنقلت جرترود نظراتها بين الأب وابنه فى دهشة وعجب ...

وقال رونالد :

— أجل .

واحتسى الايرل بقية الكاس التى كان يحملها بين يديه وقال :

— فليكن ما تريد . ولكنى لن أورثك شيئا ، فغادر هذا المكان فورا ولا تعد اليه قط .

وقال رونالد لجرترود فى حنان : « تعالى ياجرترود ولنهرب معا ».

ووقفت جرترود بينهما . وسقطت الوردة من شعرها وتهدل الحزام من خصرها واختل ثوبها ولكنها مع هذا كله كانت تشعر بأنها سيدة نفسها.

وقالت لرونالد فى حزم وثبات :

— كلا يارونالد . إنك لن تقــدم على هذه التضحية من أجلى .

ثم وجهت حديثها للايرل قائلة فى نبرات باردة كالثلج :

— إن لى ياسيدى كبرياء لاتقل عن كبريائك ، وان ابنة متشينيكوف ماك فيجين لا تستجدى فضلا أو منة من أى مخلوق .

لقد نطقت باسم أبيهـا فى زهو واعتزاز ... وأخذ الايرل مشدوها كما لو كان قد أصيب بطلق نارى وقال :

— هذا الاسم . هذا الوجه . هذه الصورة الفوتوغرافية . مهـلا . قفى يابنيتى .

ولست فى حاجة إلى سرد نهاية القصة ، فلابد أن القارىء قد أدرك أن جرتر ودهى الوارثة المجهولة .

وتعـانق العاشقان ، وانبسطت أســارير الايرل وقال لهما : (فليبارك كما الله)

و تدفقت جموع الضيوف ومعهم الـكونتيسة إلى الخميلة، مقدمين التهانى التى كانت لقلبى العاشقين نورا يفوق أضواء النهار .

وتزوج رونالد من جرترود وا كتملت سعادتهما ... ترى هل هناك المزيد فى هذه القصة ؟ أجل . لقد قتل الايرل فى إحدى رحلات الصيد بعد بضعة أيام ، أما السكونتيسة فقد قضت عليها إحدى الصواعق ، وسقط الطفلان فى بئر ...

وبذلك ا كتملت سعادة جرترود ورونالد .

حب وحرب



هذا الفصل اخترناه من « قصة الأشبال Young Lions »
للكاتب الكبير أروين شو Irwin Shaw [١٩١٤ —]
وقد كتب شو الكثير من القصص وأعد الكثير للسينما وعاش فى
هوليود طويلا ، ولكنه عاد ممروراً ولا يزال هذا الطعم عالقاً
بقلمه . وقصة « الأشبال » هذه تصور لنا معسكرات الاعتقال فى
ألمانيا وصور العذاب والألم فيها . ولكن هذا الفصل الذى اخترناه
كان فى بداية القصة .. بداية الطريق إلى الحرب .

كان نوح مضطربا . فهذه أول حفلة أقامها ، وحاول أن يتذكر كل الحفلات التى رآها فى السينما أوالتى قرأ عنها فى الكتب أوالمجلات. وذهب إلى المطبخ مرتين ليتفقد الآيس كريم الذى اشتراه هو وروجر . ثم نظر فى ساعته مرة بعد أخرى ، وهو يتمنى أن يعود روجر من بروكلين ومعه فتاته قبل أن يجىء الضيوف ، لأنه يخشى أن يرتكب إحدى الحماقات فى اللحظة التى يجب أن يبدو فيها هادئا وقوراً .

ونوح و« روجر كانون » يسكنان فى غرفة واحدة ، لا تبعد كثيراً عن جامعة كلومبيا فى مدينة نيويورك . إنها غرفة كبيرة ، بها مدفأة ، على الرغم من أنك لا تستطيع أن تشعلها ، وفيها حمام إذا نظرت من نافذته وتدليت بجسمك كله فانك تستطيع أن ترى نهر هدسون .

وبعد وفاة والده ، بدأ نوح يجوب البلاد . وكان منتهى أمله أن يرى نيويورك

فليس فى الأرض مكان يأويه غير هذه المدينة ، واستطاع أن يجد فيها عملا بعد إقامته يومين فيها . ثم قابل روجر فى المكتبة العامة .

من الصعب عليه الآن أن يصدق أنه مرت به فترة من الوقت لم يكن يعرف فيها روجر ، عندما كان يتجول فى شوارع المدينة أياماً دون أن ينطق بكلمة ، فلم يكن له صديق ، ولم تنظر إليه امرأة ، ولم يشعر بالراحة فى أى شارع ، وكانت ساعات النهار تمضى سخيفة مملة .

لقد كان يقف حالماً أمام واجهات المكتبات يحملق فى هذه الصفوف الكثيبة من الكتب . ثم مد يده إلى كتاب ، إنه ما زال يذكره ، كتاب للشاعر ييتس ، واصطدمت يده بأحد الزبائن ، وتلفت له يقول: « متأسف » . ثم بدأ يتحدث إليه، وخرجا إلى الشارع والسماء تمطر ، ومضيا يتحدثان . وكان هذا الرجل هو روجر الذى دعاه إلى المطعم وشربا قدحين من البيرة ، واتفقا على أن يتناولا العشاء فى مساء اليوم التالى .

ولم يكن لنوح أصدقاء حقيقيون . وكانت طفولته قلقة ، مشردة ، فقد عاش شهوراً بين غرباء لا يهتمون به ، فأصبح من المستحيل عليه أن يكون اى صداقة . ثم إن خجله الشديد ، وإحساسه بأنه طفل تافه لا يلفت نظر أحد ، جعلاه يزداد تباعداً عن الناس . وكان روجر أكبر من نوح

بأربع أو خمس سنوات ، وأكثر طولا ونحافة ، ووجهه هزيل ، مكفهر يدل على قوة إرادة ، وهو يتحرك بثقة كانت تثير حقد نوح ، فهذه صفات الذين تخرجوا فى الجامعة . وروجر لم يذهب إلى الجامعة ، ولكنه أحد هؤلاء الذين ولدوا وفيهم ثقة بالنفس ، واطمئنان لا يتزعزع . فهو ينظر إلى العالم بجفاف واستخفاف ، الأمر الذى جعل نوح يحاول الآن أن يقتدى بهذه النظرة .

وقد أحس نوح بأن روجر يحبه ، وتساءل نوح عن سر هذا الحب . وقال فى نفسه ، لعل روجر يشفق عليه لأنه وحيد فى هذه المدينة ، فى ثيابه الرثة ، وقلة خبرته ، وقلقه ، وخجله الشديد . وعلى أى حال بعد أن التقيا مرات عديدة فى المطاعم الإيطالية الرخيصة ، تلفت روجر إلى نوح وقال له « هل تحب هذا المكان الذى تعيش فيه ؟ »

وأجابه نوح « ليس كثيراً » ، قالها بإخلاص . لقد كان يقيم فى غرفة موحشة ، جدرانها رطبة ، وبها حشرات ، وأنابيب دورات المياه تدوى فوق رأسه .

وقال له روجر : « عندى غرفة كبيرة بهاسريران . ولا مانع أن تشاركنى فيها بشرط أن تسمح لى بأن أعزف على البيانو مرة فى منتصف كل ليلة » .

وبدا الامتنان على وجه نوح وان كانت دهشته لم تنته بعد ، فهو

يستبعد أية علاقة إنسانية بين الناس فى هذه المدينة المزدحمة ، ولكنه رغم ذلك انتقل إلى الغرفة الكبيرة التى تطل على النهر . وكان روجر يبدو كأنه شبح صديق . وكان لطيفاً ، سهلا . فهو لا يطالب أحداً بشيء ويبدو أنه كان يستمتع بتثقيف صديقه الصغير بصورة جافة . فهو يتحدث إليه فى كل شيء : فى الكتب، والموسيقى ، والرسم ، والسياسة ، والمرأة. وقد سافر إلى فرنسا و إيطاليا ، وأسماء المدن القديمة الساحرة تتردد على لسانه كأنه يعرفها جميعاً . وله نظريات جافة ، ساخرة ، عن الإمبراطورية البريطانية وعن ديموقراطية الولايات المتحدة ، وعن الشعر الحديث ، وعن الباليه والأفلام والحرب. وليس له طموح خاص . وهو يعمل من حين إلى حين فى إحدى الشركات التى تقوم باستفتاء الجمهور بشأن بعض المنتجات التجارية . ولا يعبأ كثيراً بالمال ، وينتقل من فتاة إلى فتاة بدافع الملل والعبث . وهو عموماً بملابسه الأنيقة ، وابتسامته العابرة ، صورة لشبان أمريكا المعاصرين .

وكان هو ونوح يتمشيان على شاطىء النهر إلى جوار الجامعة . وقد عثر روجر على عمل لنوح كمدير لأحد الملاعب على الضفة الشرقية للنهر . وكان نوح يكسب ثمانية عشر جنيهاً فى الأسبوع ، وهو أكبر من كل مبلغ كان يكسبه من قبل . وأثناء مشيهما على شاطىء النهر ، كان نوح مأخوذاً بحديث روجر ، وخاصة عندما يقول له :

« هناك يوجد قسيس يشرب الويسكى كل يوم بعد الظهر ، ويجلس فى مقهى على التل البعيد ، يترجم شعر بودلير . . . » أو عندما يقول له : « إن مشكلة المرأة الأمريكية هى أنها إما أن تكون كابتن الفريق أو لا داعى للعب . وسبب ذلك أنها تضخم قيمة العفة . وإذا تظاهرت بالإخلاص لك فإنها تعتقد أنها قد كسبت حق تقييدك ووضعك فى المطبخ . فالمرأة الأوربية أحسن . فكل إنسان هناك يعرف أنه ليس عفيفاً ، وهناك نظام معتدل للقيم . فالخيانة هى رصيد الذهب بين الجنسين . وهناك سعر محدد لتغيير العملة ، وأنت تعرف ثمن كل شىء عندما تذهب لشرائه وأنا شخصياً ، أفضل المرأة المستسلمة . وتقول جميع الفتيات اللاتى عرفتهن إننى أتبع مع النساء نظاماً إقطاعياً ، وربما يكن على حق وأنا أفضل أن تستسلم لى المرأة على أن أستسلم لها أنا ، وقد يحدث هذا أو ذاك ، فأنا لست متعجلا . وسأجد الفتاة التى تناسبنى . . . »

وكان نوح يشعر وهو يتمشى إلى جوار روجر ، أنه لا أمل فى أن تتحسن أحواله الآن . . . فهو لا يزال صغيراً ، قد تعود شوارع نيويورك ، وعمله مريح ، ودخله ثمانية عشر جنيهاً فى الأسبوع ، وله غرفة مزدحمة بالكتب وتطل على النهر ، وله صديقه روجر : أحد أبناء المدن ، وعنده أفكار ومعلومات كثيرة . الشىء الوحيد الذى ينقصه هو فتاة ، وقد وعده روجر بأن يعثر له على واحدة . من أجل هذا اعتزما إقامة حفلة .

وقد قضى روجر وقتاً طويلا يفتش فى دفاتره القديمة عن فتيات يرشحهن لنوح . والآن ، وهذه الليلة ، ستجىء ست منهن ، غير الفتاة التى سيأتى بها روجر لنفسه . وطبعاً سيكون هناك رجال آخرون ، ولكن روجر قد اختار شباناً يبعثون على الضحك ، أو لهم ذكاء عادى ، حتى لا تكون المنافسة بينهم شديدة . وعندما كان نوح يتحرك فى الغرفة الدافئة ، المضاءة ، حيث زهريات الورد وصورة مطبوعة لإحدى لوحات الفنان براك ، والأكواب والزجاجات تلمع فوق النضد ، كانت تدور فى رأسه أفكار تؤكد أنه فى هذه الليلة سيجد الفتاة التى يريدها .

وابتسم نوح عندما سمع المفتاح يدور فى الباب لأنه الآن لن يضطر لأن يصافح أول الضيوف بنفسه ، وهذه محنة بالنسبة له . وانفتح الباب ودخل روجر ومعه فتاة ، وتقدم نوح يحمل عنها المعطف ، ووضعه على الشماعة دون حوادث ، ودون أن يصطدم بشىء ، ودون أن يلوى ذراع الفتاة ، وابتسم لنفسه وهو فى المطبخ عندما سمع الفتاة تقول لروجر : « ما ألطف هذه الغرفة . يبدو أن امرأة لم تدخلها منذ قرنين من الزمان » .

وعاد نوح إلى الغرفة . أما روجر فدخل إلى المطبخ ليحضر بعض « الآيس كريم » ، وأما الفتاة فقد كانت تتطلع إلى اللوحة المعلقة على الحائط وقد استدارت بظهرها إلى نوح . وكان روجر يغنى فى المطبخ ، وصوته يخرج من أنفه ، ويردد كلمات الأغنية مرة بعد مرة ، أما كلماتها فهى : « أنت

تـكنسب الوقت ، وأنت تحب ، وأنت تصنع من العسل حلوى . ولـكن هل تـكسب أى مال ، يا حبيبي ، هذا ما أريد أن أعرف؟ . »

وكانت الفتاة ترتدى فستاناً مشجراً ينعـكس عليه الضوء بصورة جميلة. وقد ظلت واقفة ، جادة ، مطمئنة ، أمام المدفئة . ولها ساقان جميلتان ، وخصر نحيل . وشعرها مشدود إلى الخلف بعقدة كبيرة كأنها مدرسة جميلة من اللاتى يظهرن فى الأفلام . وشـكلها ، « والآيس كريم » ، وأغنية روجر السخيفة المرحة ، جعلت الغرفة ، والليل ، والعالم ، رائعـاً وفاتنـاً بالنسبة لنوح . واستدارت الفتاة . وكان نوح مشغولاً جداً ، مضطرباً ، لدرجة أنه لم ينظر إليها عندما دخلت ، بل إنه لا يذكر حتى اسمها . ونظرته إليها الآن تبدو كأنه ينظر من خلال منظار مقرب إلى شىء غريب .

ولها وجه قاتم ، ممدود ، وعينان حزينتان . وعندما نظر إليها نوح ، أحس كأن شيئاً صلباً قد جذبه فأفقده وعيه . إنه لم يشعر بشىء من هذا من قبل. وقد شعر بأنه مذنب محموم تافه .

وقد اكتشف نوح اسمها فيما بعد ، فقد كان اسمها « هوب بلومان » جاءت من مدينـة صغيرة فى ولاية فرمونت منذ سنتين . وعاشت فى حى بروكلين مع خالتها . ولها طريقة مباشرة ، جادة فى الـكلام ، ولا تضـع أى عطر ، وتعمل سكرتيرة لصاحب مطبعة . وقد أحس نوح بالاضطراب طول الليل ، عندما اكتشف كل هذه الأشياء ، وعندما عرف أن التى

أثارته هى فتاة عادية جداً ، بسيطة التفكير ، تعمل سكرتيرة فى مكتب لا قيمة له ، وتعيش فى حى متواضع . وهو كأى شاب خجول ، يجمع معلوماته من قصص الأدباء وخيال الشعراء ، بدأ يرى فيها الصور الجميلة التى رآها فى الكتب .

ولكن وهو يستقبل الضيوف ويحييهم بدأ يقول لنفسه : لن أمضى طويلا فى هذا الطريق ، ثم إنها صديقة روجر ، وحتى لو تركت روجر واتجهت اليه ، فانه لا يستطيع أن يقوم بدور الشاب الذى تحلم به .

وكان الضيوف الآخرون ، من الرجال والنساء كأنهم يتحركون فى ضباب ، فهو لم يكن يراهم بوضوح ، كأنه كان مشغولا بالفتاة ينظر اليها بشراهة ، وكانت حركاتها الرزينة تؤلمه وتوجعه ، ولكنه كان مفتوح العينين والأذنين لكل ماتقوله وتفعله . فهو يشعر كأنه جندى وقع أسيرا فى أول معركة يخوضها ، أو كأنه ورث مليون جنيه أو كأنه مؤمن طرد من دينه ، أو مطرب يغنى لأول مرة دار الأوبرا ، وهو يشعر كأنه رجل وجد نفسه فى غرفة فى أحد الفنادق مع زوجة أعز أصدقائه ، أو كأنه قائد يتقدم بقواته فى مدينة استولى عليها الأعداء ، أو كالفائزين بجائزة نوبل أو كسابح غرق فى منتصف الليل على مسافة ثلاثين ميلا من الشاطىء فى محيط بارد ، أو كعالم اكتشف عقاراً لتخليد الجنس البشرى ...

ثم تلفت اليها وقال : « هل لك فى شراب يا آنسة ؟ »

فأجابت : « لا . أشكرك . إنني لا أشرب » .

فانتحى فى أحد الأركان ، وجعل يفكر فيما إذا كان هذا صحيحاً أم خطأ ، يبعث على الأمل أو اليأس .

ومرت فترة من الوقت ، ثم قال لها : « وهل عرفت روجر منذ وقت طويل ؟ »

فأجابت : نعم . منذ سنة تقريبا .

— عرفته منذ سنة . لا أمل هناك على الاطلاق .

ثم نظرت إليه نظرة جادة ، و بصوت ناعم قالت له : « لقد حدثنى عنك كثيراً »

وفى نبرة كسيحة ، جائعة ، يائسة ، قال لها : « وما الذى قاله لك ؟ »

فأجابت : « إنه يحبك كثيراً .. »

وتطلع نوح إلى الفتاة شاردا مرهقاً . و بلا سبب أحس بكراهيتها . فى الثامنة من تلك الليلة. كان رجلاسعيداً ،مظمئناً ، كله أمل ، له صديق،وله حبيب ، وله عمل ، وماض نظيف ، ومستقبل مشرق . وفى التاسعة كان دامياً ، هارباً ، يخوض مستنقعاً لانهـاية له . حوله كلاب تنبح ، وجرائم سوداء لاصقة باسمه . وكانت هى السبب ، تلك التى تجلس هناك ، لها وقار

زائف ، تتظاهر بأنها لم تفعل شيئاً ، ولا تعلم شيئاً ، ولا تدرى بشىء . هذه الفتاة القروية ، وليدة التلال ، ولعلها تجلس على ساق رئيسها كل يوم فى المصنع، وتنتظر أن يملى عليها رسائله .

وامتلأت الغرفة بصوت روجر ، ودقات أصابعه على البيانو ، وهو يقول: « تساقطت الجدران وانهار البيت » . . .

أما نوح فقد حول نظراته الزائغة بعيداً عن الفتاة . فقد كان هناك ست أخريات فى نفس الغرفة ، شابات ، شقراوات ، لهن شعر من ذهب ، وأجسام جميلة ، وأصوات رقيقة . . قد جئن هنا من أجله ليختار من يشاء وكلهن يبتسمن له ، وكلهن رقة وفداء . وقد بدت له الفتيات وكأنهن عرائس من قماش وضعت فى مخزن أحد محلات الخياطة ، أو كأنهن ستة أرقام فى صفحة ، أو ستة أجراس على باب . هكذا تتردد أفكاره فى رأسه ، وهذا هو نموذج حياته ، جافة ، مؤلمة فى سخريتها ، ولكن فى جوارها مأساة .

وقال لنفسه : سأظل بعيدا عن هذا كله ، حتى لو بقيت طول حياتى لا أقرب النساء . ولكنه لم يطق أن يكون معها فى غرفة واحدة . وذهب إلى الحمام حيث كانت ملابسه معلقة إلى جوار ملابس روجر ، ونزع قبعته . إنه لا يريد أن يخرج حتى تنتهى الحفلة ، ويتفرق المدعوون ، ويسكت صوت البيانو ، وتعود الفتاة آمنة مطمئنة إلى خالتها فى بروكلين .

لقد كانت قبعته إلى جوار قبعة روجر على الرف ، وكان ينظر فى أسى وحنان إلى قبعته القديمة البنية اللون . ولحسن حظه ، كان كل المدعوين قد التفوا حول البيانو ، فاتجه إلى الباب دون أن يراه أحد . ولـكن الفتاة رأته . وكانت تجلس مع إحدى الفتيات ، فى مواجهة الباب ، فارتسمت على وجهها دهشة هادئة عندما نظرت إليه وهو يلقى عليها نظرته الأخيرة اليائسة . فنهضت واتجهت إليه . وكانت خشخشة فستانها كقصف المدافع فى أذنيه .

فقالت : « إلى أين أنت ذاهب ؟ »

فتلعثم ، وهو يلعن لسانه العاجز عن الـكلام قائلا : « نحن .. نحن .. نحن فى حاجة إلى بعض زجاجات الصودا .. سأذهب لشرائها » .

فقالت : « سأرافقك »

وكان يريد أن يصرخ فيها قائلا: «لا . ابقى حيث أنت . لاتتحركى» ولـكنه ظل صامتا يراقبها وهى تحضر المعطف وقبعتها التى لا تتناسب مع زيها ، وقد امتلأت نفسه بطوفان من الشفقة والحنان على شبابها وفقرها . وذهبت إلى روجر الذى كان يجلس على البيانو ، وانحنت عليه تمسك كتفيه ، وتهمس فى أذنيه . وهنا أدرك نوح أنها لابد قد أخبرته ، وأن حكايته قد أصبحت معروفة ، وكاد ينطلق فى الليل . ولـكن روجر تلفت

إليه ، وابتسم يحييه بإحدى يديه ، أما يده الأخرى فكانت تعزف على البيانو . وقطعت الفتاة الغرفة بخطوات هادئة .

وقالت : « قد أخبرت روجر »

أخبرت روجر ؟ ماذا قالت له ؟ قالت له احترس من الغرباء .. قالت له ألا يشفق على أحد ، ألا يكون كريماً أبدا ، أن ينتزع الحب من قلبه كأنه عشب فى حديقة ؟

وقالت له الفتاة « يحسن بك أن ترتدى المعطف ، فقد كانت السماء تمطر عندما جئت إلى هنا » .

وفى برود ، وصمت ، ذهب نوح وأحضر المعطف . وانتظرته الفتاة عند الباب وأقفلاه وراءهما . وأصبح الغناء والأصوات والموسيقى والضحك بعيدا عنهما وهما يسيران ببطء ، متجاورين فى الشوارع التى بللها المطر .

وعندما وقفا عند الباب الخارجى وأقفلاه وراءهما، سألته « إلى أين ؟ »

وسألها نوح شاردا : « إلى أين ؟ ماذا تقصدين ؟ إلى حيث تباع الصودا » .

— « آه . . » ونظر نوح مشردا إلى الأرصفة التى تلمع فى الظلام .

— « آه . هذا مالا أعرفه ، على كل حال لسنا فى حاجة إلى صودا» .

« ولكنك قلت إنك . . . »

— إنه مجرد عذر . لأنني مللت الحفلة . وأنا متعب جداً . والحفلات تضايقني .

وعندما كان يتحدث ، كان يستمع إلى صوته و يتظاهر بالتعب والملل من مثل هذا النوع من الحفلات ، كأنه أحد أبناء المدن . كان يقول لنفسه : اهدأ ، تأدب ، تظاهر بالمرح مع هذه الفتاة الصغيرة ...

ولكن الفتاة قالت له وهي جادة : لكنني أعتقد أن الحفلة كانت لطيفة جداً .

فرد عليها نوح باستخفاف : هل كانت كذلك ؟ لم ألاحظ ذلك .

ثم قال لنفسه : هكذا يكون الكلام ، يجب أن تتظاهر بالابتسام ، وهذا هو الهجوم المباشر ، أن تكون بعيداً ، غامضاً ، كأي نبيل إنجليزي بعد حفلة شرب ، باردا في أدب ، وكل هذا له معنيان ، و بذلك لا تخون صديقك ، ولا بكلمة واحدة ... وأحس برعشة لذيذة عندما تصور أنه يستطيع أن يؤثر على هذه السكرتيرة البسيطة بمواهبه الخاصة .

ثم قال لها : آسف أن أستدرجك هنا إلى الشارع لأعذار وهمية .

وتلفتت الفتاة ثم قالت: ولكنها لا تمطر ! .

ونظر نوح إلى السماء لأول مرة وقال : صحيح هذا . ولاحظ نوح أن هناك خطأ نحوياً في العبـــارة ، ولكن المعنى لا يزال صحيحاً على أي حال .

وسألته : ماذا تفعل ؟

فهز كتفيه. وكانت أول مرة يهز كتفيه فيها فى حياته : «لا أعرف . سأتمشى . وأنا أفعل ذلك كثيراً عند منتصف الليل فالمشى هادىء ، والشوارع مهجورة . »

فقالت الفتاة « إننا ما نزال فى الساعة الحادية عشرة الآن » .

فقال نوح : آه هكذا . وإذا كان فى نيتك أن تعودى إلى الحفلة . . .

وترددت الفتاة . وسمع صوت نفير يشق الضباب على سطح النهر وكان الصوت منخفضاً مرتجفاً ، فارتعد نوح .

وعادت الفتاة تقول : « لن أعود . سأتمشى معك » .

وسارا جنباً إلى جنب ، دون أن يلمسها . وسارا فى الشارع الذى قامت فيه الأشجار على الجانبين . وكان نهر هدسون ، ورائحة الربيع والملح التى جاءت من المحيط قد زحفت على الضباب الأسود النائم على الشواطىء . وفى الشمال البعيد كانت الأضواء تنعكس على الجسر فيبدو كأنه قلعة كبيرة . ولم يكن هناك أحد يمشى فى الشارع سواهما . وبين الحين والحين تنطلق سيارة وتحتك عجلتها بالطوار ، فتحدث صوتاً غريباً فى الليل .

واستمرا فى سيرهما على شاطىء النهر فى صمت ، وكان لأقدامهما وقع غريب وجريء . وبدأ نوح يفكر وهو ينظر إلى حذائه : أربع دقائق، خمس دقائق.. لا كلام. ودب فيه اليأس وكان فى صمتهما شيء من الاثم يكاد يكون ملموسا فى وقع أقدامهما ، وفى نفسهما ، وفى حرصهما على ألا يلمس أحدهما الآخر إلا عند الكتفين أو الذراعين حتى عندما نزلا من فوق الرصيف الوعر . وأصبح الصمت عدواً خائناً .

ومضت لحظة طويلة لم يتكلم فيها ثم قال بصوت مبحوح كأنه ألقى محاضرة طويلة عن الحب : « لابد أن مدينة نيويورك رهيبة أو مفزعة لفتاة من الريف مثلك »

فأجابت: « لا ، ليست مفزعة » .

ومضى يقول يائسا : « حقيقة انها مزدحمة بالسكان . إنها مدينة ضخمة ومع ذلك فالانسان يشعر كأنها صغيرة ، وأنه فى عزلة » .

وقالت الفتاة : « لا أعتقد ذلك » .

« ماذا تقولين ؟ »

فقالت: « لا أعتقد أنها صغيرة . انها ليست كبلدنا فرمونت » .

وقال ضاحكا . « بلدكم ؟.. آه ... »

فسألته « ومن أي بلد أنت؟ »

فأجاب، « شيكاغو ، لوس انجليس ، سان فرنسيسكو . . . وغيرها ».

وأشار بيده كأنه يريد أن يقول إن هناك بلاداً أخرى لم يشأ أن يذكر أسماءها مثل: باريس ، و بودابست، وفينا..وأنه قد زارها جميعا .

ثم عاد يقول : « يجب أن أقول إن نيويورك فيها نساء جميلات ، فارغات بعض الشيء ولـكنهن فاتنات » . ثم أحس بشيء من الارتياح عندما نظر إليها ، وعندما أحس أنه أصاب الهدف . ثم قال : « طبعا الأمريكيات أحسن عندما يكن صغيرات..أما بعد ذلك...»وحاول مرة أخرى أن يهز كتفيه . وعاد يقول: «أنا شخصيا» أفضل الفتيات ذوات الطابع الأوربى، أما الأمريكيات فهن يتفوقن على كل النساء فى لعبة البريدج .« ونظر إليها بعصبية . ولـكن الفتاة لم تبد أى تعبير على وجهها و إنما انتزعت زهرة من إحدى الأشجار،وراحت تلعب بها ، كما لو كانت تفـكر فيما قاله نوح لها . واستمر نوح يقول : « إن المرأة الأوربية قد تعلمت كيف تعامل الرجل...» و بدأ يتخيل الأجنبيات اللاتى يعرفهن، فقد كانت هناك تلك المخموره التى قابلها يوم مات أبوه لعلها كانت بولندية ، وبولندا ليست مكانا رومانتيكيا ولـكنها قطعة من اوروبا على اى حال .

وسألته الفتاة: « وكيف تعلمت المرأة الأوربية معاملة الرجال ؟»

فقال : « انها تتعلم كيف تستسلم .والنساء التى اعرفهن يقلن اننى اقطاعى معهن ... » آه ! ايها الصديق الذى يلعب البيانو الآن ، ايها الصديق سامحنى فى هذه الليلة ، و سأعتذر لك عن هذا كله يوما ما ..

ومضى يتحدث فى أشياء أخرى فقال . «الفن. ماهو الفن؟ إننى لاأصدق أبدا أن الفن شىء غامض وأن الفنان طفل غير مسئول» .

وقال : «ثم ما هو الزواج ؟ مامعنى الزواج؟ انه موقف يائس من الجنس البشرى معناه أن الرجال والنساء لايعرفون كيف يعيشون معا فى هذا العالم .

وقال : « ماهو المسرح الأمريكى ؟ إنه ليس سوى عبث أطفال إذا نحن نظرنا إليه باعتباره فنا فى القرن العشرين ..ثم ضحك ساخرا وأضاف: « أنا أفضل الصور الكاريكاتورية لوالت ديزنى . »

و بعد لحظة تلفتا حولهما وأحسا أن السماء قد بدأت تمطر مرة أخرى. واحتمى نوح بالفتاة وأشعل عودا من الثقاب ونظر إلى الساعة وامتلأ أنفه بعطر من الفتاة ورائحة من النهر وقرر أن يسكت ، بعد هذا السيل الطويل من الكلام .

وقال : لقد تأخرنا . ومن الأفضل أن نعود إلى الحفلة .

ولم يستطع أن يقاوم الاشارة إلى إحدى سيارات التاكسى التى كانت قريبة منهما . وكانت أول مرة يركب فيها «تاكسى» فى نيو يورك ، فاصطدم بالمقعد ، ولكنه شعر أنه رشيق وأنه رزين وأنه رجل مهذب عند ما جلس بعيداً عن الفتاة التى التزمت الهدوء فى ركن من السيارة . وأحس نوح أنه قد أثر فيها تأثيراً كبيرا . ثم دفع بقشيشاً كبيرا للسائق .

وللمرة الثانية يقفان أمام باب البيت الذى يسكنه . ويتطلعان إلى أعلى.

كانت الأنوار مطفأة ولم يسمعا صوتا لأحد ، فلا موسيقى ولا ضحك يتسلل من النوافذ المغلقة .

وقال وقلبه يكاد يسقط فى رجليه عندما خطر له أن روجر سيوقن أنه قد اختطف فتاته : « الحفلة انتهت . ولا أحد هناك . »

وقالت الفتاة : يبدو كذلك .

وأحس نوح بحرج شديد فسألها : ماذا نفعل ؟

فأجابت الفتاة : « اعتقد أنك سترافقنى إلى البيت » .

إلى حى بروكلين ؟.. إن هذا شيء شاق . ساعات فى الذهاب وساعات فى الإياب ، وروجر ينتظر وهو يتهمه . لقد كانت حفلة مرحة ولكن روجر لن يعفيه من ابتسامة ساخرة . بدأت نجوم السماء تلمع كأنها آمال مشرقة .

فتذكر اللحظة التى كان فيها وحيدا ينتظر الضيوف قبل أن يجيء روجر وتذكر دفء المكان قبل مجيء الضيوف.

وسأل الفتاة فى أسى وهو يكره وقوفها هناك جميلة وقد بلل المطر شعرها وملابسها : « الا تستطيعين ان تعودى وحدك ؟ »

فقالت وفى صوتها نبرة حادة آمرة : « كيف تجرؤ ان تقول هذا الكلام . إننى لا استطيع ان اعود وحدى . تعال معى » .

فتنهد نوح ، وبدا الغضب على الفتاة .

ثم عادت تقول له : لاتتنهد هكذا . كانك زوج ملول مرهق .

وبدأ نوح يفكر ، ماذا حدث ؟ كيف وصلت به الحال إلى هذه الدرجة ؟ كيف تتحدث إليه الفتاة بمثل هذه اللهجة ؟.

وقالت الفتاة : إنى ذاهبة .. واتجهت نحو ممر القطار الذى تحت الأرض. ونظر إليها نوح حائراً ثم لحق بها .

وجاءت القطارات وكانت تدفع أمامها رائحة المطر التى أتى بها الركاب من الشوارع وكان الهواء مشبعاً برائحة الحديد التى لاتتغير .

وبدأ نوح يفكر فى الطريق الطويل حيث تسكن الفتاة ، إنها تعيش فى بروكلين ، لا بد انها تعيش فى أطرافها الفقيرة ، فالرحلة طويلة إلى هناك . فبروكلين كمدينة البندقية تحيط بها المياه من كل جانب .

ولاحظ نوح أن الفتاة واثقة من نفسها ، وإلا فكيف استطاعت أن تسحب وراءها رجلا لم تقابله إلا مرة واحدة ، وتجعله ينطلق فى قطار تحت الأرض فى ساعة متأخرة من الليل لكى يوصلها إلى منزلها . انه الحظ الذى دفع فى طريقه هذه الفتاة ، لتكون من نصيبه . إنه حظه . كان يقول هذه العبارة لنفسه وهو ينظر إلى الأرصفة فى الليل حيث يتمشى بين النصابين والمجرمين والبحارة . إنه حظه ، مليون امرأة تعيش فى هذه المدينة ومع ذلك لايخرج إلا مع هذه الفتاة التى تسكن فى آخر أطراف أكبر مدينة صنعها الإنسان .

وأخيراً وقف بهما القطار عند بروكلين . فقادته الفتـاة إلى السلم وصعدا إلى الشارع . .

وأول شيء قاله لها خلال ساعة : « وأخيراً وصلنا . لقد ظننت أننا أمضينا كل فصل الصيف تحت الأرض » .

وفى أحد الأركان وقفت الفتاة ، ثم قالت ببرود : والآن سنركب الأوتوبيس .

ثم صرخ نوح قائلا : « ياإلهى ! » ثم بدأ يضحك ، وكانت ضحكته مجنونة فارغة .

ثم قالت له : إذا كنت ستستمر فى مضايقتى هـكذا فأفضل من ذلك أن تتركنى ؟.

وقال نوح جاداً : مادمت قد وصلت إلى هذا الحد ، فسأمضى معك حتى النهاية .

ولم يعد يضحك ، ووقف إلى جوارها صامتاً تحت المصابيح الـكهربية وكانت الريح تعصف بهما وتلقى عليهما الأمطـار ، انها الريح التى عبرت المحيط واكتسحت الموانىء ونصف مليون بيت من الطوب الأحمر والغابات وملايين النائمين والأرواح المعذبة الذين لم يجدوا مكاناً آخر يستريحون فيه فى رحلتهم عبر الحياة القلقة ، سوى هذه المدينة .

ومضى ربع ساعة وجاء الأوتوبيس وبدا من بعيد كمين غافية . ولم يكن فى الأوتوبيس سوى ثلاثة من الركاب قد استغرقوا فى النوم . أما نوح فجلس إلى جوارها بصورة رسمية ، ومن تحته كانت السيارة تحدث أصواتا غريبة كأن أخشابها تتحطم . فشعر نوح كأنه على ظهر حطام سفينة مع جماعة من الغرباء ، أو كأن سفينة غرقت فى منطقة باردة .

ونهضت الفتاة . فتبعها إلى الباب مرة أخرى . ووقفت السيارة وانفتح الباب . وهبطا إلى الرصيف المبلل . وانطلقت السيارة . ومشى نوح والفتاة فى شوارع متواضعة ، وبين الحين والآخر كانت تقابلهما أشجار قد نبتت عليها أوراق خضراء كأنها دليل غريب على أن الربيع قد وصل إلى هذا المكان من نيو يورك .

واتجهت الفتاة إلى فناء منزل مارة ببوابة من الأسمنت المسلح . وكان هناك باب من الحديد ووضعت المفتاح فى القفل فانفتح الباب .

ثم قالت ببرود : « لقد وصلنا » واتجهت إليه .

وخلع نوح قبعته . وشحب وجه الفتاة فى الظلام . ونزعت هى الأخرى قبعتها وتناثر شعرها على وجنتيها الشاحبتين . وأحس نوح برغبة فى البكاء كأنه فقد كل شىء عزيز عليه ، عندما وقف قريباً منها فى ظل البيت الذى تعيش فيه .

ثم همس فى أذنها قائلاً : « أنا . . . أريد أن أقول . . . إننى

لا أعترض . . أريد أن أقول . . إننى سعيد لأن أرافقك إلى بيتك . »

فقالت الفتاة : « أشكرك » وكانت تهمس .

فقال نوح وهو يلوح بيديه : « إنها عقدة . لو عرفت كم أنا سعيد . إننى سعيد جداً . سعيد حقاً . . . »

ولقد كانت قريبة جداً ، تعيسة ، شابة ، هزيلة ، شجاعة ، وحيدة . . . ومد يديه وأخذ رأسها برفق ثم قبلها .

وكانت شفتاها صارمتين مبللتين بالضباب .

وصفعته على وجهه ، وتردد الصوت فى هذا الفناء الحجرى . واحس نوح بأن خده مخدر . كم هى قوية ، على الرغم من انها تبدو هزيلة .

وقالت له ببرود : « ما الذى جعلك تعتقد انك تستطيع ان تقبلنى ؟ »

فقال وهو يضع يده على خده ، ثم يجذبها بعيداً وهو فى خجل من ان يكشف لها ضعفه فى هذه اللحظة : « لا اعرف . . . لا ادرى ، انما اردت »

فقالت : « انت تفعل هذا مع البنات الأخريات . ليس معى » .

فأجاب نوح فى تعاسة : « لاافعل هذا مع بنات اخريات » .

وقالت هى : « آه . معى فقط . انا متأسفة . إننى ابدو سهلة امامك » .

فأجاب نوح فى حزن شديد : « لا . لا اعنى ذلك » إنه لا يدرى كيف يعبر لها عن شعوره . إنها الآن تظن انه احمق ، سافل ، يستطيع ان يلتقط أى فتاة من الطريق . ثم ابتلع كلامه ولم يقل شيئاً .

و إنما قال لها فى اسى شديد . « انا آسف جداً » .

فعادت الفتاة تخاطبه قائلة : لعلك تتوهم أنك جميل، رائع ، وأنك لامع، عظيم، لدرجة ان اية فتاة تسقط عند قدميك لتقبلها ... »

وتراجع هو فى الم وكاد يسقط وهو يصعد درجات السلم متجها إلى إلى الفتاة قائلا : « يا الهى! »

قالت الفتاة: « إننى لم ار فى حياتى رجلا مغروراً دعياً مثلك »

وصرخ نوح قائلا : «اسكتى ... إننى لا أستطيع أن احتمل هذا» .

وقالت الفتاة : « سأودعك الآن » .

وهمس هو: « لا. ليس الآن. لا تستطيعين ».

واقفلت الباب فى وجهه .

و بدأ يتوسل إليها قائلا: « ارجوك. استمعى إلى ... »

فردت عليه : «مع السلامة» بحركة من يدها واقفلت الباب بالمفتاح . ولم تنظر إليه وفتحت الباب الداخلى . أما نوح فكان يحملق فيها ببلاهة ثم اتجه ببطء إلى الشارع .

ومشى مسافة قصيرة، وقبعته فى يده، دون أن يلاحظ أن المطر قد بدأ ينهمر مرة أخرى وأن شعره قد بدأ يتبلل . ثم وقف ، وتلفت حوله فى قلق ، واتجه إلى حيث تسكن الفتاة . وكان هناك ضوء من وراء النافذة الحديدية ، وكانت النافذة فى مستوى الشارع ، ومن خلال الستائر كان يرى شيئا يتحرك .

فاتجه إلى النافذة ، وتنفس بعمق ، ودق على النافذة . وبعد لحظة ، تزحزح الستار ورأى وجهها . وجعل وجهه قريباً من النافذة ، وأشار إليها بأنه يريد أن يتحدث إليها . وهزت رأسها مشيرة إليه أن يبعد عنها ، ولكنه رد عليها بصوت مرتفع وشفتاه ملتصقتان بالنافذة : « افتحى الباب لا بد أن أتحدث إليك . إننى تائه . تائه . تائه . »

ورآها تنظر إليه مرتابة . ثم زمجرت واختفت . وبعد لحظة سمع الباب الداخلى ينفتح ، وكانت واقفة عند الباب . وبحركة لا إرادية تنهد .

وقال : « إننى سعيد لرؤيتك » .

وسألته :« ألا تعرف كيف تعود ؟ »

فأجاب :« إننى تائه ، لن يستطيع أحد أن يهتدى إلى بعد ذلك » .

فأجابت :« إنك أحمق . أبله . ألا ترى ذلك ؟ »

« نعم . أبله جداً »

وفى لهجة جادة قالت : « اتجه إلى اليسار ، وبعد ذلك اتجه إلى الشارع الأول على اليمين » .

وبدأ صوتها يرتل أسماء الشوارع . ولاحظ نوح أنها قد نزعت حذاءها فبدت أصغر من ذى قبل ، وأرق ، وأجمل .

وسألته : « هل أنت تصغى إلى ؟»

فأجاب بصوت مرتفع : « أريد أن أقول لك شيئاً . إنني لست مغروراً ولست متكبراً . . »

« اسكت . . إن خالتي نائمة » .

وهمس قائلا : « إنني خجول ، وليس عندي رأي ولا فلسفة ، ولا أدري لماذا قبلتك . إنني . . إنني لم أستطع أن أقاوم » .

« لا ترفع صوتك ، خالتي » .

« إنني حاولت أن أبهرك . إنني لا أعرف أية امرأة أوربية . لقد تظاهرت أمامك بأنني أعرف العالم ، وأنني مثقف . لقد خشيت ان اكون طبيعياً معك . فلا الفت انتباهك . لقد كانت ليلة في غاية الاضطراب » .

وهمس قائلا : « لا اذكر انني مررت بمثل هذه التجربة القاسية . . إنك على حق عندما صفعتني . . على حق تماماً » . قال ذلك وهو مستند بظهره إلى الباب واضعاً وجهه الذي تجمد من البرد على الحديد ، قريباً من وجهها ومضى يقول : « إنه درس ممتاز . انني . . انني لا استطيع ان اعبر لك عن شعوري في هذه اللحظة . . . ربما في وقت آخر . . . ربما . » وسكت ليقول : « هل انت صديقة روجر ؟ » .

فأجابت : « لست صديقة احد » .

فضحك كالمجنون .

وحذرته الفتاة قائلة : « خالتى ».

وهمس قائلا : « حسناً . إننى اعرف طريقى . تصبحين على خير . شكراً . »

ولكنه لم يتحرك . وراح ينظر كل منهما إلى الآخر فى الظلام وتحت الضوء الخافت المنبعث من المصابيح .

وقال فى رقة وقلق شديد : « يا الهى . انت لا تعرفين ابداً . لا تعرفين »

واستمع إلى صوت قفل الباب وهو ينفتح ، ثم انفتح الباب ، وخطا إلى الداخل ، وقبلها ، ولكنها لم تكن كالقبلة الأولى ، لقد كان فى داخله شىء كالرعد . ثم خطر له أنها ربما تراجعت فى منتصف القبلة ، وصفعته على وجهه .

وتراجعت فعلا ، ونظرت إليه ، وابتسمت وهى تقول : « إياك ان تضل الطريق إلى البيت » .

فهمس قائلاً : « أعرف الأوتوبيس ، أعرف المحطة ، و . . أحبك . . أحبك » .

فقالت: « تصبح على خير . أشكرك على أنك رافقتنى إلى البيت »

وتراجع ، وأقفل الباب بينهما . وعادت إلى غرفتها . وخلا الشارع من

الناس ، وسار نوح فى اتجاه المحطة . ولم يتنبه إلى أنه فى كل سنيه الإحدى والعشرين لم يقل لفتاة « أحبك » .

* * *

. . . كانت الغرفة مظلمة . ولم يسمع أنفاس روجر . ونزع ملابسه بسرعة ، وفى هدوء تسلل إلى السرير . ونام يحملق فى السقف حائراً بين السرور واللذة والألم عند ما يفكر فى قبلتها الأولى وقبلتها الثانية ، وما عساه أن يقول لروجر فى الصباح .

كان لا يزال غارقاً فى النوم عند ما سمع من يناديه باسمه :

— « نوح »

— « أهلا روجر »

— « أنت بخير »

— « نعم »

« صمت »

— « رافقتها إلى البيت ؟ »

— « نعم »

« صمت فى الغرفة المظلمة »

— « خرجنا نحضر بعض الشطائر «السندوتش» . لا بد أنك افتقدتنا »

— « نعـــم »

« صمت مرة أخرى »

— « روجر ... »

— « نعم » .

— «أشعر أنني لا بد أن أشرح لك شيئاً . إنني لم أقصد ... حقيقة . لقد تصرفت معتمداً على نفسى ثم . . . لا أذكر بالضبط . . . هل تسمعنى يا روجر ؟ »

— « نعم »

— « إنها قالت لى شيئاً يا روجر . . . »

— « ماذا ؟ »

— « أنها ليست صديقتك »

— « هل قالت ذلك ؟ »

— « قالت انها ليست صديقة أحد . ولـكن إذا كانت صديقتك . أو إذا أردت أن تـكون صديقتك . . . فلن أراها مرة أخرى . أقسم لك يا روجر . هل تسمعنى ؟ »

— « نعم. انها ليست صديقتى . لاانـكر ذلك ، وهذه الفـكرة تراودنى من حين إلى حين ، ولـكن من ذلك المجنون الذى يستطيع ان يرافقها ثلاث مرات فى الأسبوع إلى هناك ؟ »

ومسح نوح العرق من فوق جبينه فى الظلام .وقال : « روجر » .

— « نعم »

— « احبك »

— « يحسن بك ان تنام »

« صمت مرة اخرى » .

* * *

... وفى الشهرين التاليين تبادل نوح والفتاة هوب ـ وهذا هو اسمها ـ اثنين واربعين خطاباً . لقد كان يعمل بالقرب منها ويلتقيان يومياً عند الغداء ، وكل ليلة عند العشاء ، وكانا يهربان من العمل ليتمشيا فى الظلام عند الميناء ويرقبان السفن التى ترسو والتى تبحر . وقطع نوح الرحلة إلى حى بروكلين سبعاً وثلاثين مرة فى شهرين . ولكن حياتهما الحقيقية كانت تتولاها مصلحة البريد .

ومهما كان المكان مظلماً ، ومهما كان خالياً من الناس ، فإنه يتطلع إليها ويقول : « إنك جميلة » أو : « تعجبنى ابتسامتك » أو : « هل تذهبين معى إلى السينما يوم الأحد ؟ » .

ولكن هذه العبارات القصيرة كان يكتبها فى خطاباته على هذا النحو ... إن جمالك لا يفارقنى ليلا أو نهارا . عندما أنظر فى الصباح إلى السماء فهى

صافية لأنها تطل عليك ، عندما أنظر إلى النهر عند الجسر أعتقد أنه جسر قوى وأقوى من أى جسر لأنك مشيت عليه مرة معى ، عندما أنظر إلى وجهى فى المرآة أرى أنه أجمل وجه لأنك مررت عليه بشفتيك فى الليلة الماضية » .

أما هى ، ذات الملامح القاسية التى حالت بينها و بين التعبير الرقيق عن الحب ، فكانت تكتب له قائلة ... « إنك لم تكد تترك البيت حتى بدأت أفكر فيك وأنت تمشى فى الشارع وقد خلا من الناس ، ثم تنتظر فى الظلام مجىء الأوتوبيس الذى ينقلك إلى البيت . سأبقى معك الليلة وأنت تقوم بجولتك فى المدينة . فياحبيبى ، وأنت تنتقل من مكان إلى آخر أبقى أنا هنا فى هذا البيت النائم ومعى مصباح واحد مضىء أفكر فى كل شىء يتعلق بك . إننى أعتقد أن عينيك جميلتان ، وفمك حزين ، و يديك رقيقتان جميلتان ... »

وعندما يلتقيان يحملق كل منهما فى الآخر ، بينما ترتجف الكلمات المكتوبة بينهما ويقول : « عندى تذكرتان لحفلة اليوم إن لم يكن لديك شىء آخر ، فهل نذهب معاً ؟ »

فى ساعة متأخرة من الليل ، و بقلب سعيد بروعة المرح ، وحب كل منهما للآخر ، وأرق . . يقفان ، و يتعانقان فى الفناء البارد فى بيتها ، وهما عاجزان عن الدخول لأن زوج خالتها له عادات غريبة ، وهى أن يجلس

فى غرفته حتى الصباح يقرأ الكتاب المقدس ، فيقبل كل منهما الآخر حتى لا يشعر كل منهما بشفتيه . أما تعاسة حياتهما وخطاباتهما فتذوب فى هذه القبلات اليائسة .

ويذهب كل منهما إلى فراشه . وليس لهما فى كل هذه المدينة الضخمة ، التى بها عشرة ملايين غرفة ، مكان يسميه كل منهما هذا مكانى الخاص أدخله باحترام وكرامة . ثم ان الفتاة لها نزعة دينية متطرفة . وفى كل مرة يعانقها بشدة تنسحب منه مرتعدة قائلة : « فيما بعد ، فيما بعد ، » أو تقول له : « ليس الآن ... »

وفى يوم قال له روجر : « أنت ستنفجر . ستتحطم . هذا غير طبيعى . ما الذى أصاب هذه الفتاة ؟ ألا تعرف أنها من بنات مابعد الحرب ؟ » .

وكان نوح يرد عليه : « اسكت . لا تتكلم » لقد كان جالساً على مكتبه يكتب خطاباً لها ، أما روجر فكان مستلقياً على الأرض لأن الأريكة قد انكسرت منذ خمسة أشهر ، ثم إنها غير مريحة لرجل طويل القامة مثله .

ثم بدأ روجر يقوم ببعض التمرينات الرياضية التى تقوى عضلات البطن ، ويرفع رجليه إلى أعلى ويقول : « هذا يكفى . إننى أشعر بصحة جيدة الآن . فالجنس ياعزيزى كالاستحمام . فاما أن تمضى فيه إلى نهايته أو أن تبقى على الشاطىء . أما إذا بقيت على الشاطىء تاركا الماء يبلل ثوبك ، فانك ستبرد وتصبح عصبياً . إذا بقيت شهرا آخر مع هذه الفتاة فسوف

تذهب إلى أحد الأطباء النفسيين . اكتب لها هذا . وقل لها إن هذا هو رأيي » .

وقال: نوح « بلا شك . . إنني سأكتبه لها الآن »

وقال روجر : « إذا لم تحترس ، فستجد نفسك رجلا متزوجا »

فتوقف نوح عن الكتابة . وقد اشترى آلة كاتبة على أقساط عندما وجد نفسه يكتب لها كثيراً .

وقال : « لا تخف فلن اتزوج » . والحقيقة انه فكر فى هذا الموضوع طويلا ، وانه كتب عن هذا للفتاة .

وقال روجر : « على أى حال لا بأس بالفتاة . فهى جميلة وستنقذك من التجنيد فى الجيش » .

ثم تفادى الاثنان التفكير فى التجنيد . ولحسن حظ نوح كان ترتيبه متأخرا جداً . لكن الجيش كسحابة سوداء بعيدة فى سماء كل إنسان .

وعاد روجر يقول : « لكن أنا عندى اعتراضان على هذه الفتاة . أولا ، انها تحرمك من النوم . ثانياً ، انت تعرف . ثم انها قد جعلتك تعيش فى عالم طيب » .

فنظر إليه نوح بامتنان بالغ .

ثم قال روجر : « ولكن يجب أن تنتقل معك إلى فراشك » .

— « اسكت » .

— « أريد أن أخبرك بأننى سأسافر فى نهاية هذا الأسبوع . وأترك لك البيت تعمل فيه ماتشاء » .

وجلس روجر وهو يقول: «أظن أنه ليس هناك فرصة أحسن من هذه » .

وقال نوح : « أشكرك . إذا سمحت لى الفرصة فسأعمل بنصيحتك » .

— ربما تحدثت إليها فى ذلك باعتبارى صديقاً وانني افكر فى سلامة زميلى . وسأقول لها ، سيدتى العزيزة ، لعلك لا تعلمين ان نوح بسبيل أن ينتحر . سأحدثها الآن .

— « سأتولى هذا أنا بنفسى » قالها نوح فى شىء كثير من الريبة .

— « ما رأيك فى يوم الأحد القادم ؟ فى شهر يونيه الجميل ، والقمر بدر ، والجو دافىء الخ ... الخ ... »

وقال نوح : « إننا سنذهب يوم الأحد القادم إلى حفلة زفاف » .

— « زفاف من ؟ زفافك ؟ »

— « إحدى صديقاتها » .

— « احترس . فإن الزفاف ينتقل بالعدوى . وقد قلت كلمتى . وأشعر براحة فى الضمير » .

وسكت روجر ، بينما نوح يكتب على الآلة الكاتبة . .

وعاد يقول : « إنه شهر واحد .. وبعد ذلك تتمدد على سرير فى أحد المستشفيات العقلية » .

وضحك نوح ، ونهض واقفاً : « وهو كذلك . هيا بنا نشرب بعض البيرة » .

— « صديقى العزيز ، العذراء نوح » .

ضحك الاثنان وخرجا إلى الشارع حيث نسمات الصيف . واتجها إلى المطعم الذى يترددان عليه .

أما حفلة الزفاف فى يوم الأحد فقد أقيمت فى بيت كبير ، له حديقة تفضى إلى شارع على جانبيه الأشجار . والعروس جميلة ، وكان القس سريعاً فى إجراءاته ، وكانت شمبانيا .

وكان دفء وشمس ، وكل انسان يبتسم فى رقة ، أما الضيوف فقد كانت تنتابهم حالات شهوانية فى غير خجل .

وفى أركان البيت الكبير ، بعد الحفلة ، كان الضيوف الشبان يجلسون اثنين اثنين فى أحاديث هامسة .

وكانت الفتاة ترتدى فستاناً أصفر جديداً . كانت بشرتها نحاسية لأنها تعرضت للشمس كثيراً هذا الأسبوع . وظل نوح يرقبها فى اعتزاز وقلق عندما كانت تتحرك من مكان إلى مكان ، كان شعرها أسود منسقاً بشكل جميل . ووقف نوح يحتسى الشمبانيا فى خجل . ويتحدث بهدوء للضيوف ، ويرقب فتاته . وفى نفسه يقول : شعرها ، شفتاها ، ساقاها فى نوع من الحب المختزل .

ومر بشفتيه على العروس ، وفى عينيه فستانها الأبيض وأحمر شفتيها وفى أنفه عطرها ، ولكن عينيه تحولتا عن العروس المشرقة الدامعة العينين . . واتجه إلى فتاته وهى تقف عبر الغرفة ، والحب يختصر الأسماء فى رأسه .

فيقول : وخصرها جميل . واقتربت منه فقال لها : هناك شيء أريد أن أعمله . ووضع يديه حول خصرها النحيف . وأحس ببشرتها الشابة . وبدا كأنها فهمت ما يريد أن يقول . ومالت فى رقة وقبلته . ولم يعبأ بأن كثيرين يرقبونه ، لأن فى حفلات الزفاف يصبح من حق أى انسان أن يقبل الآخر ثم إنه لأول مرة يشرب الشمبانيا فى أحد أيام الصيف .

وراحا يرقبان العروسين وهما يستقلان سيارة والرز يتناثر فوقهما والام تبكى على الباب ، والعريس يتعجلها وقد احمر وجهه من الخمر والخجل ونظر نوح الى الفتاة ونظرت هى إليه ، وأدركا انهما يفكران فى نفس الشيء .

وهمس قائلا . « ولماذا لا نفعل أيضاً » ؟ .

ووضعت يدها على فمه تقول . « اسكت لقد شربت كثيراً » .

ودعا أهل العروسين ، وانطلقا يسيران تحت الأشجار حيث تلمع المياه على أوراق العشب ، والنافورات وقوس قزح . ومشيا ببطء ويدها فى يده .

وسألها نوح « إلى أين يذهب العروسان ؟ » .

فأجابت فتاته « إلى كاليفورنيا ، لمدة شهر ، فله قريب هناك » .

ومشى الاثنان بين النافورات ؛ وهما يحلمان بشواطىء المحيط الهادى و بيوت المكسيك الباهتة تحت أشعة شمس الجنوب. و يفكران فى العروسين وهما يدخلان فى مقصورتهما فى القطار و يقفلان الباب وراءهما .

وقال نوج « ياإلهى . إننى أرثى لحالهما » .

— « لماذا ؟ » .

— « فى ليلة كهذه ولأول مرة . أدفأ ليلة من ليالى السنة ! » .

— وجذبت الفتاة يده قائلة : انك فظيع . ماأوقح وابشع ماتقول . .

— « إنها مجرد نكتة عابرة » .

— « إننى اكره مثل هذه النكت » .

ولاحظ أن فتاته تبكى ، وأحاطها بذراعيه على الرغم من ان اثنين من الأطفال كانا يرقبانهما . وقال لها : « ياحبيبتى أرجوك » .

فهزت كتفيها . وابعدته عنها قائلة : « ابعد عنى » وابتعدت هى عنه

وتبعها يقول : « أرجوك ــ دعينى اتحدث إليك » :

ومن خلال دموعها قالت له : « اكتب لى خطاباً . يبدو أنك تحتفظ بغرامياتك للآلة الكاتبة. »

وسار الاثنان فى صمت مضطرب . كان حائرا تائهاً فى بحر المرأة اللانهائى . ولم يحاول إنقاذ نفسه ، وإنما ترك نفسه فى هذه الدوامة تدفعه العاصفة ويعلو به المد ويتمنى ألا تغرق سفينته .

ولكن الفتاة لاتلين بل ظلت صامدة عنيدة طول الوقت وعلى وجهها مرارة و إصرار . وبدأ نوح يقول لنفسه :

« ياإلهى . ياإلهى . إنها ستتخلى عنى » .

ولكنها تركته يرافقها إلى البيت حتى فتحت الباب بمفتاحها .

وكان البيت خالياً . فقد خرجت خالتها وزوجها واصطحبا معهما طفليهما الصغيرين ليقضوا ثلاثة أيام فى الريف . وفى البيت هدوء تام .

وسألته : « هل أنت جائع ؟ » كانت تقف فى منتصف حجرة الطعام .

وخطرت لنوح فكرة أن يقبلها لولا أن رأى على وجهها تعبيرا غريباً .

وقال « أعتقد أنه يجب أن أعود إلى البيت » .

فقالت « وأن تأكل أيضاً . فقد تركت بعض الطعام فى الثلاجة » .

وتبعها إلى المطبخ وعاونها . وأخرجت من الثلاجة بعض السكتا كيت الباردة ووضعت بعض الصلصة وبعض اللبن . ووضعت كل شىء على المائدة ثم قالت بلهجة جافة « اخرج » كما لو كانت جاويشاً يأمر أحد الجنود .

وحمل النضد إلى الحديقة التى لها سور عال ، وكانت هناك أشجار رشيقة ، وتخلل الفتاة بعض أصص الورد . وهناك نضد من أغصان الشجر وفوقه مصابيح ؛ وفى ضوء المساء الباهت تلاشى حى بروكلين كضباب أو كاشاعة ، وظل الاثنان كأنهما فى إحدى حدائق انجلترا أو فرنسا أو جبال الهند .

وأشعلت الفتاة الشموع ، وجلس الاثنان يأكلان بشهية . لم يتكلما إلا عندما يطلب كل منهما للآخر فى أدب الملح أو اللبن .

ثم قالت « اننا لسنا بحاجة إلى الشموع ، فهل لك أن تطفئها الواحدة بعد الأخرى ؟ » .

فقال نوح: « بكل تأكيد » وانحنى كل منهما يطفىء شمعة. وتقاربت رؤوسهما . وفجأة وفى الظلام قالت له: «سامحنى.. إننى أحقر امرأة العالم » .

وانتهى كل شىء . وجلسا ينظران إلى السماء المظلمة ونجومها اللامعة بعيدين عن الأوتوبيس ، عن السيارات ، عن خالتها ، عن زوج خالتها ، عن الطفلين ، عن باعة الصحف ، عن العالم .. فى حديقـــة لها سور وفى الليل .

وقالت : « لا. ليس الآن . . إننى خائفة . . . ياحبيبى ياحبيبى» . وأحس نوح بالخجل و بالنصر و بالنشوة . و بعد أن انتهى كل شىء ظلا نائمين يغمرهما شعور غريب بفداحة الفعل الذى ارتكباه . وشعر نوح بالخوف وخشى أن تكرهه بعد ذلك ، وكل لحظة صمت كانت تعمق احساسه بالألم . وأخيرا قالت له : « لم يكن الجوحارا . لم يكن الجوحارا على أى حال» .

و بعد ذلك عند ما حان وقت عودته إلى البيت ، انتقل إلى الداخل

ولم ينظر واحد منهما إلى الآخر . ومال نوح على الراديو ففتحه لأنه يريد أن يفعل أى شيء .

وكان الراديو يذيع موسيقى تشايكوفسكى ، وكانت الموسيقى أغنية حزينة ، كأنها ألفت خصيصاً لهما ، لطفلين أحب كل منهما الآخر لأول مرة . ثم جاءت الفتاة وقبلته فى عنقه وهو قريب من الراديو واستدار يقبلها ، وعندما توقفت الموسيقى ، أذاع الراديو هذا النبأ فى رسالة خاصة: «من أسوشيتد برس . الزحف الألمانى مستمر على طول الجبهة الروسية . قوات الفرق المدرعة تزحف على خط يمتد من فنلندا حتى البحر الأسود » .

فقالت الفتاة « ماذا ؟ »

— « الألمان قد دخلوا روسيا .. لقد كان باعة الصحف يصرخون طول اليوم » .

— « أطفىء الراديو . الليلة ... »

وعانقها ، وأحس بقلبها يدق . لقد كان يفكر طول الوقت أنه فى اللحظة التى كان يعقد فيها الزفاف ، والتى كان يمشى فيها معها فى الشوارع ، ويجلس معها فى الحديقة ، كانت المدافع تدوى والرجال يموتون . من فنلندا إلى البحر الأسود . ولم يعلق عقله على شيء . انه كان يسجل و يفكر كأنه عمود عليه إعلان تقرأه أوتوماتيكياً وأنت تمشى بسرعة .

وجلس الاثنان على أريكة قديمة فى غرفة هادئة ، والظلام يحتضن البيت ، وباعة الصحف يصرخون فى شوارع بعيدة .

وسألته : « اى يوم هذا ؟ » .

وابتسم : « الأحد يوم العطلة »

— « لا اقصد هذا . اعرف ذلك . أى تاريخ ؟ »

— فأجاب : « ٢٢ من يونيه »

— « ٢٢ من يونية . لن أنسى هذا اليوم . اول يوم ... انت تعرف ماذا فعلنا اليوم . . »

* * *

عندما عاد نوح إلى البيت لم يكن روجر قد نام بعد . وقف نوح امام الباب يعدل ملامح وجهه حتى لايبدو عليه شىء مما حدث الليلة . واستمع نوح إلى انغام رقيقة تصدر من البيانو . كانت نغمة جاز حزينة مترددة ، وكان روجر يمرن اصابعه على العزف . وظل نوح يستمع دقيقتين أو ثلاثا قبل أن يفتح الباب ثم دخل ، وحياه روجر بيد واحدة دون أن ينظر إليه واستمر يعزف . كان هناك مصباح واحد مضىء فى الركن ، وبدت الغرفة كبيرة غامضة عندما استرخى نوح فى أحد المقاعد الجلدية بالقرب من النافذة أما فى الخارج فالمدينة نائمة على جوانب الشوارع المظلمة . وحركت الريح ستائر النافذة المفتوحة .واغمض عينيه واستسلم للموسيقى وكان لديه شعور

غريب ، انه يحس كل عضلة وعظمـــــة فى جسمه ، إنه حى ، مرهق ، مختل التوازن .

وفى منتصف القطعة الموسيقية توقف روجر عن العزف، وتلفت إلى نوح قائلا : « والآن صار البيت لك »

وفتح نوح عينيه قائلا : « ماذا ؟ »

ونظر إليه روجر باهتمام وأجاب : « إننى ذاهب غدا »

فسأله نوح وهو ينظر إليه ليتأكد إن كان مخمورا . « إلى اين ؟ ماذا تقول ؟ »

— « إلى الجيش . انتهى زمن الحظ والمرح . إنهم يجمعـون المدنيين الآن » .

وأحس نوح بدوار كأنه لم يفهم كلمات روجر .

— « أعتقد أن هذه الأخبار قد وصلت بروكلين »

ـ « تقصد الروس ؟ »

ـ « أقصد الروس »

ـ « نعم » .

ـ « سأذهب لمساعدة الروس »

ـ « هل أنت ذاهب لمساعدة الجيش الروسى »

وهنا ضحك روجر ونظر إلى النافذة . ووقف هناك وتطلع إلى السماء وقال : « ليس بالضبط . طبعا جيش الولايات المتحدة »

ـ « سأذهب معك »

ـ « شكرا. لا تـكن أحمق . انتظر حتى يستدعوك »

ـ « ولـكنهم لم يستدعوك أنت »

ـ « لم يستدعونى بعد ، ولـكننى على عجل . إننى أ كبر منك. انتظر حتى يجيء دورك . سيكون قريبا » .

ـ « انه لا يبدو عليك هذا . انك تتحدث كما لو كنت فى الثمانين من عمرك » .

ـ « سامحنى ياولدى » . ثم اتخذ طابع جد وهو يقول « اليوم عندما سمعت النبأ فى الراديو لم أستطع أن أتجاهل الحقيقة . فمنذ اليوم والطريقة الوحيدة فى أن تـكون لى أى قيمة هى أن أحمل البندقية فى يدى . من فنلندا إلى البحر الأسود إلى نهر الهدسون إلى روجر كانون »

سأدخل الجيش حالا . . أريد أن أنطلق حالا . . لقد انتظرت هذه الفرصة طول عمرى . اننى عن طريق الجيش سأقفز قفزة عالية . لقد انحدرت من اسرة من العسكريين .

— « هل تعتقد أن هذا يفيدك ؟ »

— « لا تسألنى يا ولدى . لا تسألنى عن هذا . إن هذه فرصتى التى ستجعل منى شيئاً الآن . حالا . ولعلك لاحظت أنه ليس لى هـــــدف

فى الحياة . وهذا مرض . إنه أول الأمر لا يزيد عن دمل صغير لا تراه العين . ولكن بعد ثلاث سنوات يصبح المريض مشلولا وربما أعطانى الجيش هدفاً لحياتى . أن أبقى حياً ، أو أصبح جندياً ، أو أكسب حرباً . هل عندك مانع أن أعزف على البيانو قليلا ؟ »

— «بالطبع لا» . قالها نوح بغباوة . وبدأ يفكر فى أن صديقه هذا سيموت . وظل فى رأسه صوت يتردد قائلا : « روجر سيموت ، سيقتلونه » .

وجلس روجر إلى البيانو مرة أخرى . ووضع يديه على أصابع البيانو . يفكر . وعزف شيئاً لم يسمعه نوح من قبل .

— « على أى حال يسرنى أن أراك ، وأن أعلم أن الفتاة قد ذهبت فى الطريق إلى نهايته . . »

وسأله نوح فى تردد ، وهو يحاول أن يتذكر إن كان قد قال له شيئاً دون وعى منه : « ماذا ؟ عن أى شىء تتحدث ؟ »

وأجابه روجر « إن الأمر واضح على وجهك . واضح جداً . »

* * *

وانضم روجر إلى الجيش فى اليوم التالى . ولم يسمح لنوح بأن يذهب إلى إدارة التجنيد . وترك له كل أمتعته ، وكتبه ، وملابسه على الرغم من أنها كانت أكبر من ملابس نوح . وترك له الغرفة التى عاش فيها خمس

سنوات . وراح نوح يرقبه بشعور يسد حلقه ، وفى ألم.. لأنه لن يكون له بعد اليوم صديق . فقد أمضى مع روجر أسعد أيام الحياة.. وافترق الاثنان..

* * *

ومن حين لآخر كان يتلقى أنباء عن العسكرى « روجر كانون» وعن ترقياته ، وعن ملاحوظة فى خطاباته تقول له : « ابعد عن الجيش . إنه ليس للبشر ».ولكن كانت هناك ميزة لنوح وعلى الرغم من أنه يشعر أمامها بكثير من الذنب إلا أنه كان يستمتع بها . فهو وفتاته الآن لهما مكان خاص . ولم يصبحا فى حالة فزع مستمر ، وفى جوع وعطش ، ينتظران فى البرد زوج خالتها الذى يقرأ الكتاب المقدس حتى ينام . وليسا فى حاجة إلى أن يتعانقا تحت عيون الأطفال الحزينة الساخرة فى الحدائق العامة .

وبعد شهور من سفر « روجر » اكتشف نوح جسمه . لقد كان أقوى مما يتصور وكان قادرا على تحمل المتاعب أكثر مما توقع . بل انه كان يتطلع إلى نفسه فى المرآة وراء الباب ، وكانت الفتاة توافقه على رأيه . وبدا له ان جسمه أكثر رشاقة وأكثر فائدة مما كان يبدو له من قبل . وكان ينظر إلى نفسه فى المرآة بامتنان شديد . وعندما ينظر إلى صدره العارى يقول : « إننى سعيد . فليس فيه شعر » .

أما الفتاة ، وقد أصبح لها مكان خاص أمين ، فقد بدت مستسلمة على غير ما يتوقع . ففى الظلام الدافىء فى ليالى الصيف ، اختفى تزمتها الريفى

وسط سحب الدخان . وراحت تشبع جوعها وجوعه ، وتطعم جسمها وجسمه بين مد الحب وجزره ، فى تلك الغرفة التى أصبحت أعز وأعمق سر فى حياتهما أما أصوات الشارع تحت النافذة ، وصياح الأطفال فى الحدائق ، والصرخات فى مجلس الشيوخ، والنيران فى القارات الأخرى، فقد اختلطت بموسيقى هامسة وطبول فى معسكر آخر لجيش آخر بعيد وفى حرب أخرى . . هى حرب نوح وفتاته . .

وكان سباق..



* يرى بعض النقاد أن وليم فولكنر W. Faulknner ١٨٩٧ هو أعظم أدباء أمريكا على الاطلاق ، وهناك خلاف على أسلوبه فى الكتابة ، فهو من أبناء الجنوب ويكتب عنهم وبلهجتهم . ولا يعنى كثيرا بأناقة العبارة . وعبارته معقدة طويلة وغير مهذبة. ولكن هذه الصورة البائسة الصغيرة لم تحجب الفنان الكبير ولا الاحساسات الانسانية المتدفقة . . فاز فولكنر بجائزة نوبل سنة ١٩٥٠ . سئل فولكنر عن رأيه فى الأدباء المعاصرين . فقال إن أعظم الأدباء عاشوا فى القرن الماضى ، وهو لا يفارق كتبهم .

كنت فى الزورق عندما رأيته ، ويكاد الظلام يلف السكون بردائه القاتم . . وكنت قد اطعمت الجياد وعدت إلى الشاطىء وصعدت إلى القارب وأخذت طريقى فى النهر عائداً إلى المعسكر ، عندما رأيته يسبح على بعد مائتى متر منى . . ولم يظهر منه غير رأسه كنقطة صغيرة بيضاء فى هذا الضوء الخافت . واستطعت أن أرى قرونه وكأنهما مقعد هزاز يدفعه أمامه فى أثناء سيره . . . وأدركت أنه فى طريقه إلى المكان الذى يعيش فيه طوال العام حتى اليوم السابق لافتتاح الموسم ، وكأن الحراس قد اعطوه تقويماً يعرف منه متى يختفى «ولا أحد يدرى أين» حتى اليوم اللاحق لانتهاء الموسم..ولكن .. هاهو ذا قد عاد قبل الوقت المعلوم بيوم... فهل اختلط عليه الأمر فاستخدم تقويم العام الماضى خطأ؟ و إذا كان الأمر كذلك،فانه يكون سيئا

جدا بالنسبة اليه، لأني أنا ومستر أرنست سنطلق وراءه الجواد عند بزوغ شمس الغد.

وأخبرت مستر أرنست ، وتناولنا العشاء وأطعمنا الـكلاب ، ثم جهزت له مائدة البوكر ، ووقفت خلف مقعده حتى الساعة العاشرة مساء . . وقال لى روث ادموندز :

— ألا تذهب لتنام ايها الغلام ؟

وقال ويللى ليجيت : وإذا كنت تنوى السهر ، فلماذا لا تأخذ كتابا للهجاء وتقضى معه سهرتك ؟

ثم التفت إلى رفاقه وقال : انه يعرف كل كلمة يحتويها المعجم وكل لعبة فى البوكر وكل انواع الويسكى فى معامل التقطير ، ولـكنه مع ذلك لا يستطيع حتى كتابة اسمه . . اليس كذلك ياغلام ؟ .

فأجبته قائلا : وما حاجتى الى كتابة اسمى مادمت أعرف من انا ؟

وقال والتر ايريل : إنك أيها الغلام فى الثانية عشرة من عمرك ، فقل لى صراحة ، كم يوماً من أيام حياتك قضيته فى المدرسة ؟

فقال ويللى ليجيت : وما جدوى الذهاب إلى المدرسة فى أول سبتمبر إلى منتصف نوفمبر مادام سيغادرها الى هنا ليكون أذنا لمستر ارنست .وما فائدة الذهاب اليها فى يناير ، مادام سيحل منتصف شهر نوفمبر بعد أحد عشر شهرا مرة اخرى ، ويبدأ من جديد فى اخطار أرنست عن الطريق الذى سلـكته الـكلاب .

وقال روث أدموندز : كفوا عن التطلع إلى يدى .

ووضع أرنست مسماعه فى أذنيه وقال : ما هذا ؟ ما هذا ؟

فقلت : إن ويللى ليجيت يطلب منى الذهاب لفراشى .

وقال ويللى : ألا تدعو أحدا بلقب « سيد » أبدا ؟

قلت : أجل ، فانى أدعو السيد أرنست بلقب « سيد »

وقال أرنست : حسناً ، اذهب إلى فراشك فلست فى حاجة إليك .

وقال ويللى : إننى لا أكذب عندما أقول إنه سواء أكان أصم أم لم يكن ، فهو يستطيع سماع جملة « زيادة خمسين دولارا » حتى قبل أن تتحرك بها الشفاه ..

وذهبت لفراشى ، وجاءنى مستر أرنست بعد لحظات ، وأردت أن أخبره مرة أخرى كيف بدت القرون كبيرة حتى وهى على بعد مائتى متر فى النهر ، ولكنى أدركت أنى بحاجة إلى بوق . . وكانت المرة الوحيدة التى اعترف فيها مستر أرنست بأنه يسمعنى ، هى عندما كان فوق ظهر جواده «دان» منتظرا منى أن أشير له إلى الطريق الذى سلكته الكلاب.

واستلقينا فى فراشنا ، ولم يمض وقت طويل حتى دق سيمون ناقوسه وصاح قائلا : « استيقظوا لتتناولوا شاى الساعة الرابعة » .

واخترقت النهر هذه المرة فى الظلام ، وأنا أحمل المصباح ، وأطعمت

الجواد « دان » وجواد روث أدموندز . . . وتوقعت أن يكون اليوم صحوا ، باردا . . واستطعت أن أرى فى الظلام حبات الجليد البيضاء تظلل هامات الغصون والأشجار ... أجل . . لقد توقعت أن يكون اليوم شبيها بتلك الأيام التى يهوى فيها أبناء السهول ، العدو والقفز ..

وتناولنا طعامنا ، وأعطينا العم آيك ماك كاسلين الحواجز ليضعها فى الأماكن التى يرى وجوب وضعها فيها ؛ إذ كان أكبر الموجودين فى المعسكر سنا ، ومارس صيد الوعول فى هذه الغابات ما يقرب من مائة عام ، ولا يفوقه إنسان فى معرفة المواطن التى تسكنها الوعول أو الدروب التى تسلكها ... ومن يدرى . فربما كان هناك وعل فى نفس المكان الذى يقف فيه العم آيك الآن . فى هذا الصباح ، وعلى فرض أن يكون قد هرب منى ومن مستر أرنست . وسوف نجد فى أثره ولا شك .

وأطلقت الكلاب ، أنا ومستر أرنست وروث أدموندز ، بينما وقف سيمون ممسكا بمقود ايجل والكلاب الأخرى التى لا تسير إلا وايجل فى مقدمتها . . . وأسرجت الجياد وأعطيت مستر أرنست عنان جواده حتى يكبح جماحه فلا يسرع لصيد الوعول كعادته كل صباح . . وحشا مستر أرنست بندقيته ، ثم أردفنى خلفه واتخذنا طريقنا إلى الغابة ، وسيمون ممسك بمقود الكلاب الأربعة فى مقدمتنا وبندقيته ذات الماسورة الواحدة فوق ظهره . والكلاب تسير حولنا ذات اليمين وذات الشمال .

وبدت تباشير الصباح . . سيكون اليوم جميلا صحوا . . وقد اكتسى وجه المشرق بضياء حبيب ، وتصاعد دخان أنفاسنا أبيض اللون فى هذا الجو الصحو البارد ، وسيظل يتصاعد إلى أن يبدده دفء الشمس بعد اكتمالها فى سمت السماء . . . ان قطرات الندى المتجمدة فوق الحشائش وأوراق الأشجار والنباتات ، وحتى السحب التى تخيم فوقنا ، كل أولئك تنتظر سطوع الشمس بحرارتها ودفئها لتذوب وجدا بين أحضانها وتتلاشى فى كيانها . . . أما أنا فقد أحسست بالنور فى أعماقى ودخيلة نفسى و كما شعرت بقوتى ، وملأت صدرى بذلك الهواء القوى ، أصبحت وكأننى لا أكاد أحس بصهوة الجواد . . . ولقد كانت عضلاتى القوية الحارة تتحرك تحت جلدى وخيل إلى أنى فقدت وزنى وغدوت كالريشة فوق الجواد . .

وقفز أولد ايجل وشعرت أنى وأرنست والجواد « دان » إنما نسبح فى الهواء كالطيور ولا تكاد حوافر الجواد تلمس الأرض . . . . وعندما نستطيع صيد الوعل فى يومنا هذا ، فلن يكون فى مقدورنا اصطياد خير منه ولو قضينا فى جهودنا عشر سنوات .

ولما وصلنا إلى مدخل الدغل ، رأينا آثار أقدامه فى الطين بعد خروجه من النهر فى الليلة الماضية ، منتشرة عليه وكأنها أقدام بقرة ، بينما ظل ايجل والكلاب الأخرى فى مقودها إلى أن طلب منى مستر أرنست الترجل عن الجواد ومساعدة سيمون فى الإمساك بها . . إننى ومستر أرنست نعرف

تماما أين نجده فى أجمة صغيرة فى قلب الدغل حيث يضطجع انتظارا لما سوف نفعله ، أو ارتقابا لعدو الـكلاب خلف ظبى شارد يضللها ويسير فى كل اتجاه بين أجمات الدغل ، فيخلو له الطريق فيعود متسللا إلى النهر ويغادر البلاد كما يفعل دائما عند افتتاح الموسم .

ولم يكن لنا هدف سواه فى هذه المرة . ولذلك تركنا روث فوق جواده لقطع خط الرجعة عليه وإعادته صوب العم آيك وكلابه المتوثبة إذا حاول التسلل من الدغل . . ومشيت أنا ومستر أرنست ومعنا الـكلاب فى مقودها حتى قطعنا مسافة طويلة ، ثم اتجهنا إلى الغابة وسرنا مايقرب من مائتى متر بعيداً عن الأجمة . وبدأت الرياح تهب جنوبية ، فعدنا إلى الأجمة ، وأمر مستر أرنست باطلاق الـكلاب ، ففعلنا ، ثم أردفنى خلفه فوق ظهر الجواد مرة أخرى .

واندفع ايجل ، فقد كان يعرف أين يقبع « الصيد » كما نعرف نحن تماما . . ولم تصدر عنه أية جلبة ، بل تسلل إلى خمائل الوعول مع الـكلاب الأخرى مقتفين أثره . وخيل إلى أن « دان » كان يعرف أننا وراء هذا الوعل ، فأخذ يقفز بين الخمائل ، فأمسكت بحزام مستر أرنست . . وكنت لا اشعر بأنى فوق صهوة « دان » لأن أعصابنا جميعاً تتوتر عند إسراعنا وراء «الصيد» ولا ادرى كيف ... وكان كل ما على أن افعله هو أن أتشبث

بحزام مستر ارنست لدرجة كان يقول عنها و يللى ليجيت « اننا حين نخرج للصيد فى الغابة يبدو ارنست فوق ظهر جواده وكأنه يرتدى سترتى غلامين يلعب بهما الهواء ».

ولم تكن خطوة بل كانت قفزة . واعتقد ان « ايجل » كان وراءه ، او ربما خطا فوقه عندما كان مستلقياً فى مكانه فى هدوء ، ظنا منه ان اليوم لن يحل الا بعد غد . . ورمى ايجل براسه إلى الخلف عالياً ، وكأنه يقول « انه هنا » . . وسمعنا صوت اقدام الوعل وهو يطأ الحشائش فى الغابة ، وانطلقت الكلاب فى أثره . وقفز دان ، ولم يطع حركة العنان فى هذه المرة وتركه مستر ارنست يتبع هواه ، فعاد الجواد ادراجه فى الغابة ثم عرج منها على الشاطىء . . ان هذا الجواد الأصيل لم يكن فى حاجة إلى من يدله على الطريق او من يقول له سر فى هذا الاتجاه . . وازددت تشبثاً بحزام مستر أرنست . بعد أن لكز الجواد بمهمازه فاندفع كالقنبلة . . حقاً ان هذا جواد عجيب فهو إما أن يسرع وكأنه طائر يسبح فى الفضاء ، و إما أن يزحف على ركبتيه ومع ذلك وفى كلتا الحالتين ، نظل ثابتين فوق صهوته ، لأن مستر أرنست يكون متشبثا بالسرج ، وأنا أتشبث بمستر أرنست نفسه ... ولا يشعر الجواد بثقلنا فوقه بل يندفع غير مبال بمن يكون فوق صهوته . وأعتقد اعتقادا جازما أن باستطاعته قيادة الكلاب وهو فى مقدمتها ، لأنه أسرع منها ، دون حاجة إلى توجيه منى أو من أرنست أو سيمون أو أى انسان آخر .

لقد كانت الكلاب بعيدة عن مرمى مسامعنا . . ولابد أن يكون بصر ايجل قد وقع على ذيل هذا الوعل فقرر بينه و بين نفسه أن يلحق به حيث هو ، ولاشك فى أن الكلاب تزداد اقترابامن حواجز العم آيك . . وكبح مستر أرنست جماح « دان » وأوقفه على قدميه الخلفيتين وهو يرتعد ويتحفز كبغل قرصت الحشرات ذيله . . .وصكت مسامعنا أصوات طلقات الرصاص ... ، لم يعد أحد . . . وقلت لمستر أرنست إن من الأفضل أن نتابع سيرنا ، وفى وسعى سماع نباح الكلاب ... وسار بنا الجواد ، وانقطع دوى الطلقات فأدركنا أن السباق قد تخطى الحواجز ، وأن الجميع يجدون فى أثره لأن الوعل كان « صيدا » كما يقول سيمون وغيره من الصائدين . . وخرجنا من أجمة متكاثفة الأغصان ، ثم رأينا العم آيك وبجواره ويلى . . وقال العم آيك :

— لقد هرب منا جميعا ولا أدرى كيف استطاع ذلك . . ولقد لمحته . وكان ضخما كالفيل وله قرون البقر . واتجه إلى نهاية الغابة ...إن فى استطاعتكم اللحاق به ولن يفوتكم اقتناصه عند المعسكر .

وتشبثت بحزام مستر أرنست الذى لكز الجواد فاندفع بنا صوب طرف الغابة عند الجنوب ، وكانت خالية من الخمائل والأغصان ولذلك استطعنا الإسراع تدفعنا الرياح التى أخذت تهب شديدة . . وتوسطت الشمس كبد السماء ، ولم نتطلع إليها لضيق وقتنا ، مع أنها كانت ساطعة

قوية ، تملأ أنوارها الغابة كلها ، لامعة زاهية براقة كقوس قزح عندما تنعكس أضواؤه على الثلوج فوق أغصان الأشجار . . وساعدتنا الرياح على سماع نباح الكلاب مرة أخرى ، وأصبح فى مقدورنا كسب الوقت ولكن مستر أرنست ظل كابحا جماح « دان » ، لأنه إما أن يسرع به عند عودته إلى الحواجز التى تبعدعنا ثمانية أميال، وإما أن يسير بطيئا عندالوصول إليها... وسمعنا نباح الكلاب بعد لحظات . . وسرنا بالجواد الهوينا حتى يسترد أنفاسه ، ولا يزال نباح الكلاب يطرق أسماعنا خافتا مع الرياح . . . ولم نكن نعدو بالجواد بل كنا نقتفى الأثر فقط ، لأن الوعل كان يبطىء فى سيره وكأنه يريد أن يضع حدا لهذه الحماقة فأخذ يسترد أنفاسه ، وحافظ على المسافة بينه وبين الكلاب بحيث لاتتعدى ميلا واحدا . وظل كذلك إلى أن قفز فوق الحواجز القريبة . ورأيته يقف خلف شجرة وهو يحملق فى الجميع وكأن لسان حاله يقول : « ما هذا ؟ ما هذا ؟ .. لماذا امتلأت هذه البقعه الملعونة بالرجال هذا الصباح ؟ » . . . . ثم تلفت خلفه إلى حيث كان ينبح أولد ايجل والآخرون وراءه ، وكأنه يفكر فيما عساه يصنع بعد ذلك .

وسمعنا صوت الطلقات النارية متتابعة حتى خيل إلينا أنها الحرب .

ولا بد أن يكون أولد ايجل قد رأى ذيله مرة أخرى . فأراد أن يستجمع قواه ويسير وراءه فى خير الطرق الموصلة إليه . وسمعنا صوت الطلقات تتوالى مرات ومرات كما لو كان وراءه ثلاثة رجال يجدون فى أثره قبل

أن تسنح له فرصة يحيد فيها عن الطريق . . وصحت بأعلى صوتى :
« كلا . كلا . دعوه لنـــا . . إنه أتى على محصولنا من الشعير والفول ،
ويمرح فى غابتنـا . . » .

لقد كنا نراقبه كل عام . وبدا لى الأمر وكأننـا نحن الذين أثرناه
ليلا فى حتفه فى النهاية بعد حملتنا عليه ،وأمام الـكلاب ، بأيدى قوم غرباء ،
وربما كانوا يحاولون طرد الـكلاب واستدراجه بعيداً قبل أن نحصل منه
على قطعة من اللحم .

وقال مســتر أرنست : « صــه . واصغ . » . ولزمنـا جميعاً الصمت.
وأمكننى سماع نباح الـكلاب .. لقد فقدت الـكلاب أثر رائحته ومع ذلك
ظلت تعدو زمناً طويلا بعد انتهاء طلقات الرصاص .. ووجدت من الوقت
ما سمح لى بتجديد قواى .. وقلت لمســتر أرنست : « أجل يا سيدى إنها
تجد فى أثره » . وقال ويلى ليجيت : « لو احتسى إيجل كأساً من الويسكى
لاستطاع اللحاق بالوعل . . وعاودنا المسير إلى أن خرجنا من الدغل الـكثيف
ورأينا الرجال الذين كانوا يطلقون الرصاص . وكانوا خمسة أو ستة أشخاص
يجلسون القرفصاء متربصين ، وينظرون إلى الأرض وإلى الشجيرات الصغيرة
والقسوة بادية على وجوههم ، وبقع الدماء قد لطخت أعواد النبـات وأوراق
الأشجار المتســاقطة ، ووقف إيجل أمامهم وكأنه ينصت ويقول لهم : « إن
هذه البقع الدموية ليست مراقة من لا شىء » .

وقال مستر أرنست : هل صادفكم التوفيق يا فتيان ؟

فقال أحدهم : أعتقد أننا أصبناه ، بل انى واثق أننى قد أصبته بنفسي .. إننا الآن يا سيدى « نصيد » الدماء .

— حسناً . وإذا وجدتموه فانفخوا فى البوق فأعود إليكم وأحمله عنكم إلى المعسكر .

وسرنا مسرعين لأن « الصيد » كان بعيداً عن أسماعنا . ولم تكن سرعتنا كسرعة الوعل بطبيعة الحال . وحتى الكلاب قد أبطأت بعد هياجها و بعد كثرة إطلاق الرصاص .

ودخلنا ارضاً عربية ، لم نكن قد توغلنا إلى مثل هذه المسافة البعيدة من قبل . وقد كنا قبل ذلك نقتل الصيد دائماً . . اما الآن فقد وصلنا إلى « هوج بايو » الذى يبعد عن معسكرنا على النهر بمسافة خمسة عشر ميلا . وكان به مياه واشجار متعانقة وكتل اخشاب متناثرة . وأمسك مستر أرنست بجواده مرة أخرى وسألنى عن أى الطرق نسلك ، فأشرت إلى الطريق الواجب اتباعه ، وسرنا محاولين العثور على مكان نعبر منه النهر وكان فى ميسورنا العثور على مثل هذا المكان المنشود لولا أنى علمت أن مستر أرنست قرر عدم إضاعة أى وقت آخر فى الانتظار .

ووصلنا إلى مكان ضاق عنده مدخل النهر إلى اثنتى عشرة أو خمس

عشرة قدماً . . وأمرني مستر أرنست بالانتظار إلى أن يغسل وجهه بمائه . ولم أجد الوقت الكافي لتجديد قواي عندما أصبحنا في الهواء الطلق . ثم رأينا الخميلة . وكانت خميلة عنب يبلغ ارتفاعها طول ذراعي وتتدلى أغصانها إلى وسط مياه النهر .. ودار بخلدي أنه رآها أيضاً وأنه ينتظر جذبها ورفع أغصانها إلى ما فوق رءوسنا لنمر من تحتها . . وعرفت أن « دان » قد رآها بدوره لأنه حنى رأسه وقفز خلالها . ولم يكن أرنست قد رآها إلى أن لمست أغصانها عنق دان واشتبكت بالسرج . وأخذت الخميلة تضيق وتضيق. وخيل إلينا أن شيئاً ما قد سقط ..

وفعلا سقط حزام السرج وتمزق ، ومع ذلك استمر الجواد في عدوه السريع وأرنست فوقه وأنا قابع وراءه متشبث بحزامه وكأني معلق في الهواء . . وظللنا كذلك إلى أن تدحرج السرج وأصبحت أنا عند بطن الجواد، ويكاد رأسي يلمس الأرض وكدت أسقط وأجذب مستر أرنست والسرج كله معي ، لولا أن قمت بحركة بارعة استطعت بها اعتلاء صهوة الجواد من جديد . ولما وقعنا سقط السرج قبلنا وتلاه مستر أرنست وأنا فوقه .. وقفزت واقفا وظل أرنست مستلقيا على جنبه ولم يكن يبدو منه غير بياض عينيه . وصحت به فلم يرد علي ، وأسرعت إلى النهر وملأت قبعتي بالماء وألقيته فوق رأسه ففتح عينيه وظل مكانه متكئاً على السرج وهو يصب على اللعنات وقال : قبحك الله . لماذا لم تبق خلفي كما بدأت ؟

قلت : إنك أكبر جسما ، وخشيت أن تسحقنى عند سقوطك

— وماذا تظنك قد فعلت بى ؟ . . وإذا لم تستطع فى المستقبل أن تظل حيث بدأت ، فاقفز بعيدا ولا تصعد لتركب أمامى . . هل فهمت ؟

— أجل يا سيدى .

ونهض وهو يمسك ظهره بيده وصب على لعناته واتجه إلى الماء وغسل وجهه وعنقه ، ثم اغترف بيده جرعات ارتشفها على مهــل . وشربت أنا أيضا . وعدنا إلى حيث كنا وأخذنا السرج والبندقية واخترقنا مدخــل النهر الضحل سيرا على الأقدام . . وتمنيت أن ألحق بالجواد، لا لأنه قديكون اندفع فى عدوه فقطع الأميال الخمسة عشر التى تفصلنا عن المعسكر فحسب بل لاحتمال أن يكون قد ذهب لمعاونة إيجل فى اللحاق بالوعل . . وخاب حسبانى لحسن الحظ ، إذ وجدت «دان» على قيد خمسين ياردة منا يأكل أوراق الأشجار ، فأحضرته ، وربطت أحد أطراف السير الجــلدى الذى كان مع أرنست فى حزامى ، وربطت طرفه الآخر فى رباط البوق بعدأن انتزعته منه . وأحكمت وضع السرج فوق صهوة الجواد بهذا الرباط الجلدى الجديد ، آملا فى أن يظل متماسكا إلى النهاية .

وقال مستر أرنست : لا تدعنى أسرع به داخل أية خميــلة من الخمائل ، وإذا حاولت فنبهنى . . هل سمعت ؟

— أجل يا سيدى . سأنبهك فى المرة القـادمة ، بشرط ألا تسرع أنت أيضا وقتذاك .

وسارت الأمور طبيعية ، و بدا طريقنا سهلا ، وتساءلت عن الاتجاه الذى سنسلكه لأننا لم نعد نسمع شيئا بعد أن ضيعنا هذا الوقت الطويل وكنا فى أرض غريبة جديدة تـكاثفت أشجـارها وتعانقت أغصانها وأصبحنا لا نستطيع رؤية شىء حتى ونحن فوق صهوة الجواد «دان» .

ولم يتكلم مستر أرنست ، بل سار بالجواد على محاذاة الشاطىء لأنه كان أكثر اتساعا وفى مقدورنا أن نسرع بمجرد أن يتعود الجواد هذا الحزام الجديد الذى صنعته و بعد الاطمئنان عليـه .. واتضح أننا كنا نسير صوب الشرق ، ولم أعر لذلك التفاتاً خاصاً لأن الشمس قد خبـا نورها وشعرت فى دخيلة نفسى أن وقت تناول العشاء قد حان .

ثم سمعناه .. كلا . فقد كان ما طرق سمعنـا صوت الرصاص . وأدركنا مقدار طول المسافة التى قطعناها عندما شاهدنا عن بعد معسكر «هولى نو» وهو المعسكر الوحيد الذى نعرفه فى هذه الجهة ، والذى يبعد ٢٨ ميلا عن مقرنا فى « فان دورن » .. ولم نكن نسمع غـير الرصاص ولم نر كلاباً أو أى شى آخر . ولو كان إيجل لا يزال يجد فى أثره ، أو لو كان الوعل لا يزال حيا ، فلا بد أن يكون إيجل فى درك من الاعياء لا يستطيع معه التلفت أو النباح وكأنه يقول لنا « هاهو ذا » .

وصحت بمستر أرنست « لا تلمس الجـواد » .. وتذكر هو الحزام المؤقت فأطلق للجواد العنان . وسمع دان صوت الطلقات النارية فأخذ يشق طريقه بين الأغصان المتكاثفة متخطياً الحمائل والعوائق بقدر ما يستطيع ، ويسير تحتها إذا عجز عن تحطيمها .. وسارت الأمور كما سارت من قبل ، ورأينا رجلين أو ثلاثة رجال يجلسون القرفصاء ويزحفون بين الشجيرات بحثاً عن الدماء التى أنبأهم إيجل بوجودها .. ولكنهم لم يجدوا شيئاً .. ولم نتوقف قط هذه المرة ، بل سار بنا « دان » يقفز تارة ، ويسير الهوينا تارة أخرى ، بين أغصان متدلية من أشجار متعانقة ، وكأنه راقص ماهر .. ومال مستر ارنست بالجواد ناحية الشمال فصحت به : مهلا . لا تسر فى هذا الطريق .

فتلفت إلى مستر ارنست من فوق كتفه ، وكان متعباً ووجهه ملطخاً بالطين الذى كانت تثيره حوافر الجـواد وقال : الا تعرف الى إين يتجه ؟ .. لقد قام بنصيبه ، واتاح لكل إنسان فرصة إطلاق النار عليه وهو الآن فى طريقه إلى مأواه فى الدغل عند مدخل النهر فى ارضنا ولا بد أن يصل اليه عند حلول الظلام .

وصدق ظن مستر ارنست ؛ فقد كانت هى الحقيقة . ولم يكن هناك داع للاسراع . وخيم الصمت فلم نسمع صوتاً ؛ وهمدت الكائنات

فلم تتحرك ؛ وسكنت الطيور وكفت عن التغريد وخيل إلى أننا جميعاً —
انا ومستر ارنست والجواد «دان» وايجل والكلاب الأخرى والوعل العتيد —
نسير فى هذه الغابة الصامتة فى نفس الاتجاه وإلى نفس المكان ؛ وكأن
بيننا اتفاقاً على ألا نسير معاً ، حتى لا يكون اى طرف منا سبباً فى قلق
الجانب الآخر أو فى تعرضه للتجربة .. ولم يكن ما قمنا به فى يومنا هذا ؛
لهوا أو لعباً ؛ أو مجرد تسلية ؛ بل كان عملا جدياً . وبقى كل طرف منا
كما هو . . فالوعل اضطر للعدو ؛ لا لأنه كان مذعورا بل لأن العدو كان
خير صفاته التى يزهى ويفاخر بها .. أما «إيجل» والكلاب الأخرى فلم
يكن اضطرارها إلى الجد فى أثره للحاق به واقتناصه راجعا الى كراهيتها
له أو خوفها منه ، بل لأنه كان واجبها الذى تزهى به وتفاخر .. وأما أنا
وأرنست والجواد « دان » فلم يكن جرينا وراءه حبا فى لحمه الصعب
الازدراد أو لاجتزاز رأسه وتعليقه على الجدار ، بل لأننا باقتناصه نستطيع
التفرغ للعمل بجد ومثابرة فى فلاحة الأرض واجتناء محصول مجهود شاق
خلال أحد عشر شهرا ، كما نستطيع الحصول على حق العودة فى شهر نوفمبر
القادم . . وعدنا جميعا فى هدوء ، ومتفرقين ، وإن كنا نسير جنبا إلى جنب
إلى أن تحين الفرصة مرة أخرى فى العام المقبل .

ورأيناه للمرة الأولى بعد خروجنا إلى العراء وكان فى مقدورنا أن
نحث السير ، لو لا أن كان كل جانب منا يضنيه الإرهاق . واستطعنا أن

نعرف الغرب من الشرق لأن الشمس كانت على وشك المغيب . وسرنا إلى أن لحقنا بالكلاب وكانت مستلقية تلهث وتطلعت الينا عند مرورنا بها دون أن تتحرك عندما واصلنا المسير .. ووصلنا الى ممر طويل يمكن رؤية ما بعده لمسافة مائتى متر . ورأينا الكلاب الأخرى ومعها ايجل على بعد مائة ياردة منا ، تسير فى صمت دون احداث جلبة أو صوت ، وفجأة ، وفى نهاية الممر ، رأينا الوعل ينهض من مكانه الذى قبع فيه ، ويقوم فى غير عجلة . . وكان ضخما كالفيل ، ومضى إلى سبيله فى غير عجلة أيضا ، إلى أن غيبته ظلمات الأدغال .

وربما كان اختفاء الوعل عن الأنظار وداعا .. وهكذا سرنا إلى أن مررنا بالكلاب الكبيرة الثلاثة فى منتصف هذا الممر ، وهى مضطجعة حيث كانت عندما اختفى الوعل ولم تحرك ساكنا ، بل لم تحاول أن تتحرك عند مرورنا بها . وكان ايجل يسير فى مقدمتها وهو منفرج الأقدام منكس الرأس ، متألما من عاره . وكأن بريق عينيه لسان يقول : «آسف يا رفاق .. فلا حيلة لى فيما حدث » .

وأوقف مستر أرنست الجواد « دان » وقال لى : انزل وانظر إلى أقدام إيجل .

فقلت : هل أصابها شىء ؟ أعتقد أنه خائر القوى لا أكثر .

فأعاد مستر آرنست الأمر قائلا : قلت لك انزل وافحص أقدامه .

ونزلت وأخذت أفحص إيجل ، وبينما أنا كذلك إذا بى أسمع تكة البندقية ثلاث مرات ، ولكنى لم ألق إلى ذلك بالا ، فقد يكون الصوت ناشئا عن وضع مستر أرنست للرصاص فى خزان البندقية ليتأكد من صلاحيتها للعمل عند رؤية الوعل مرة أخرى ، أو ربما ليتأكد من أنه الرصاص الخاص بصيد الوعول . ونهضت ، ثم سرنا فى طريقنا فى اتجاه شمالى غربى ، لأننا عندما رأينا ذيل الوعل الأبيض قبل أن تبتلعه ظلمات الغابة ، كان يسير ناحية الأخدود عند مدخل النهر . وحل المساء وخفت حدة الرياح ، وكان قرص الشمس الأحمر فى الشفق يداعب قنن الأشجار مودعا ، ويظهر لنا نوره الخابى على الأرض بين الفينة والفينة من خلال فرج الأغصان . . وكان الوعل يسير بقدر استطاعته فى أسهل الطرق وفى خط مستقيم . ولما رأينا آثار أقدامه على الأرض الضحلة ، كان يعدو بعد أن اخذ قسطه من الراحة . ولكنه مع ذلك كان يسير فى نفس الطريق الذى كان يسلكه إيجل والكلاب كأنهم جميعا على موعد .

ورايناه مرة اخرى ... ولآخر مرة .. وفى اجمة كانت تتخللها اشعة الشمس الخافتة فى الشفق وكأنها اضواء مشعل يدوى صغير . وتعثر مرة

واحدة قام بعدها ورأيناه على بعد عشرين ياردة منا لا يحجبه شيء .. وكان ضخما كتمثال ، احمر اللون كاحمرار الذهب تحت اشعة الشمس .. وسقطت اضواء الشمس على قرونه الاثنى عشر فبدت فوق راسه وكأنها الشموع .. ووقف مكانه واخذ ينظر الينا ، ورفع مستر ارنست بندقيته وصوبها إلى عنقه ، واطلقها ثلاث مرات . . وظلت البندقية مصوبة اليه واستدار الوعل وقفز قفزة طويلة و بدا ذيله الأبيض فى غسق الشمس وكأنه جمرة ملتهبة ، وظل فى عدوه إلى ان طواه الدغل بين ثناياه ..ووضع مستر أرنست بندقيته فى هدوء امامه على سرج الجواد وهو يقول فى صوت خافت مطمئن « إن الله معنا . إن الله معنا .»

ولكنى فترجلنا فى سهولة ورفق حتى لا يتمزق حزام السرج ، ثم أخرج من جيب سترته سيجارا مهشما لسقوطى فوقه عندما سقط كلانا من فوق صهوة الجواد . فرماه وأخرج غيره وكان مهشما أيضاً ، فقضم قطعة منه وأخذ يلوكها فى فمه ، و يمضغها ورمى بقية السيجار . وغابت الشمس تماماً حتى من فوق قنن الأشجار ، ولم يبق منها إلا وميض أحمر عند المغرب ، وقلت : لا تقلق يا سيدى فلن أخبرهم بأنك نسيت أن تحشو بندقيتك ، كما أنهم ليسوا فى حاجة إلى أن يعرفوا أننا رأيناه .

فقال لى مستر أرنست : شكرا لك .

ولم يبزغ القمر ، فأعطانى البندقية وأخرج البوصلة من جيبه وتطلع إليها وقال : إننا نسير فى الطريق الصحيح .

واستعاد منى البندقية وفتحها ووضع فيها رصاصة واحدة ، وظل ممسكا بالبوصلة ، وأمسكت أنا بعنان الجواد ، وبدأنا السير ، ومستر أرنست فى طليعتنا والبوصلة فى يده .

وخيم الظلام تماماً بعد لحظات ؛ وأخذ أرنست يشعل أعواد الثقاب بين الحين والآخر ليطلع على البوصلة إلى أن بزغت النجوم فسرنا على هدى إحـداها وقلت : « هل الطريق طويل ؟ » فقـال : « إنه طويل بقدر ما ننتهى من إشعال أعواد علبة ثقاب » . . وسرنا على هدى النجم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، إذ كان لا يظهر لنا طوال الوقت بسبب تـكاثف وتعانق أغصان الأشجار فى الغابة . وانتهت أعواد العلبة قبل أن نقطع مسافة طويلة فاضطر إلى استخدام غيرها .. ولما تأخر بنا الوقت قال مستر أرنست : فلنمتط الجواد .

لقد كان مستر أرنست إنسانا طيبا منذ عرفته وكان ذلك منذ عامين عندما هربت أمى مع صاحب المنزل الريفى فى فيكسبرج ، ولم يعد ابى فى اليوم التالى لهروبها . وفى اليوم الثالث جاء مستر ارنست ممتطيا جواده إلى الـكوخ القائم على شاطىء النهر والذى سمح لنا بالإقامة فيه واستطاع ابى

بعدئذ ان يستمر فى فلاحة أرضه ويقوم بصيد السمك . . . . وقال لى ارنست : دع هذه البندقية وامتط الجواد خلفى .

واستطعت ان امتطى الجواد دون ان استعمل الركاب ، وأمسك مستر ارنست بالعنان . . . ويبدو انى استسلمت للنعاس، إذشعرت بأن عروة كيس حاجياتى كانت مربوطة إلى مقدمة السرج مع خيط البوصلة . . . ومضى بنا الوقت ، وكدنا نصل إلى غايتنا ، إذ رايت « دان » يشم ماء النهر . . . ومن يدرى فربما كان يشم طعامه (العلف) إذ كان النهر لايزال على بعد مائتى متر ، والضباب يخيم فوقه رقيقا ثابتا كالقطن ... ووصلنا جميعا . ولم يكن هناك بالطبع من هو قريب منا ليسمع صوت هبوطنا الى الأرض أو ليسمع صوت نفير مستر أرنست فى الظلام وهو يهيب بسيمون فى المعسكر المعتم أن يحضر بالزورق ليقلنا الى المعسكر .

وعاد الوعل إلى مسكنه فى الدغل عند مدخل النهر . ومن يدرى فقد يكون مستلقياً الآن فى غفوة يصحو منها بين كل آن وآخر ، وهو يحلم بالكلاب جادة فى أثره ، وربما كانت ضوضاؤنا هى التى تؤرق نومه لفترة قصيرة ثم يعود إلى الاستغراق فى النوم .

وظل مستر أرنست واقفاً على الشاطئ ينفخ فى بوقه إلى أن ظهر لنا مصباح سيمون خافت الضوء فى الضباب .. ونزلنا إلى مرسى القارب واستمر

أرنست فى نفخ البوق ليهدى سيمون إلى مكاننا وظل الحال كذلك إلى أن حضر إلينا سيمون بالقارب . وركبنا . واستغرقت فى النوم . وهزنى مستر أرنست لأستيقظ وأغادر الزورق إلى الشاطئ . وذهبنا إلى المعسكر المعتم حيث استلقيت على فراشى ورحت فى سبات عميق .

وأشرقت الأرض فى صباح الغد . . وانتهى كل شئ الآن . ولن يعود حال يومنا السابق إلا فى شهر نوفمبر من العام القادم حيث نعود مرة أخرى . . . ورجع العم آيك وويللى ووالتر وروث و بقية الرجال فى ساعة مبكرة بعد اخفاق ايجل فى اللحاق بالوعل فأدركوا أنه قد ذهب إلى غير رجعة . . وحزموا أمتعتهم فى الصباح استعداداً للعودة إلى « يوكنا بافوفا » حيث يعيشون فيها الى شهر نوفمبر من العام القادم . . .

و بعد أن تناولنا جميعاً طعام الإفطار،عاد بهم سيمون بالزورق الكبير الى الشاطئ الآخر حيث كانوا يتركون سياراتهم . . . ولم يبق سواى أنا ومستر أرنست ، وكنا جالسين على مقعد فى الشمس خلف جدار المطبخ وأخذ يدخن سيجاراً حتى أتى عليه عن آخره ، ولم يترك منه شيئاً يستطيع دان أن يطأه بحوافره .. ولم يكن قد غسل وجهه أو أزال عنه وحل الغابة عندما هوى من فوق الجواد فى الليلة الماضية ، وليس هذا بمستغرب ، اذ كان وجه مستر أرنست لا يخلو أبداً من لطخة وحل ، أو من شحم سيارة أو من شعيرات شعثاء تتكاثف فيه ، فهو لم يكن مزارعاً فحسب بل كان

فلاحاً كأى فرد من عماله أو من مستأجرى أرضه . . . وأدركت منذ أول يوم التحقت فيه بخدمته أننى لن ألقى منه نصباً أوتعباً ، كما أنه لن يصادف أية متاعب من ناحيتى .

وسبق أن ذكرت أن أمى قد هربت مع صاحب منزل فى فيكسبرج دون أن تعنى حتى بتجهيز طعام الافطار، وأن أبى لم يعد إلىّ فى اليوم التالى .. وسمعت فى اليوم الثالث ، وكان الوقت ليلا ، صوت حوافر جواد تدنو من الكوخ فحملت بندقيتى ، التى أحشوها بالرصاص دائماً فى أثناء غياب أبى ، وخرجت ووقفت أمام باب الكوخ ، فرأيت مستر ارنست ممتطياً جواده ، وما ان رآنى حتى قال لى :

— تعال ياغلام فإن أباك أيضاً لن يعود ؟

فقلت له : هل تعنى انه تخلى عنى أيضاً ؟

فقال : وما أهمية ذلك ؟ . تعال فقد اشتريت قفلا للباب ، وسأرسل السيارة الى هنا غداً ، لتحمل ما تحتاج اليه من متاع .

وهكذا ذهبت معه إلى منزله . وكان كل شيء بديعاً وعلى مايرام . . وكان مستر أرنست أرملا ماتت زوجته منذ ثلاث سنوات ... وعشنا بلا نساء يقلقن بالنا ، أو يهربن مع مثل صاحب منزل فكسبرج دون أن ينتظرن لتجهيزطعام الافطار... وكان فى استطاعتنا أن نعود إلى المنزل فى هذا المساء ، ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد ، إذ كان من عادتنا أن نبقى فى

المعسكر يوماً آخر بعد مغادرة الآخرين لأن العم آيك ما كان ليغادر المعسكر إلا بعد أن يأتى على الويسكى الذى يصنعه بيديه ، وعلى بقية الويسكى التى يتركها روث أدموندز ويسميه (الأسكتلندى) ، وتشبه رائحته رائحة دهان الجدران .

واستمتعنا بدفء الشمس يوما آخر قبل أن نعود إلى المنزل استعداداً لزرع بذور القطن والشوفان والفول والبرسيم .

ووراء النهر ، وخلف الأشجار المتلاصقة فى مدخل الغابات الكثيفة ، كان الوعل مستلقيا فى يومه ذاك يستمتع بأشعة الشمس ، ويستريح من النصب الذى لاقاه أمس ، دون أن يزعجه إنسان إلى أن يحين شهر نوفمبر القادم .

لقد كان واحد منا على الأقل سعيداً لأننا لن نعود إلى متاعب الأمس إلا بعد أحد عشر شهراً ونصف شهر ... وكان الوعل سعيداً أيضا بما كنا نشعر نحن بالأسف من أجله ... وفكرت فجأة فيما سيكون عليه حالنا أنا ومستر أرنست فى قضاء ثلثمائة وواحد وخمسين يوما فى زرع القطن والشوفان والفول والبرسيم ثم حصادها قبل عودتنا إلى الصيد مرة أخرى ... ولكن ... هذا عمل واجب الأداء بأمانة وعلى الوجه الأكمل ، حتى يكون لنا حق العودة إلى الغابات وقضاء الأربعة عشر يوما الباقية من العام فى الصيد والقنص. ولن يعود الوعل، فراراً من رصاص بنادقنا ، والكلاب

تجد فى أثره خلال هذه الأيام ، إلا بعد انقضاء الثلثمائة وواحد وخمسين يوما الأولى التى يستريح فيها باله لأننا بعيدون عنه بين الزرع والحصاد . . وهكذا أرى أن الصيد والفلاحة أمران غير مختلفين قط ، لأن كلا منهما متمم للآحر ... وقلت :

— أجل . إن ما يجب علينا عمله الآن ، هو زرع بذور محصول العام القادم ، وشهر نوفمبر القادم ليس بالزمن البعيد .

فقال لى مستر أرنست : إنك لن تفعل شيئا من ذلك ، بل ستذهب إلى المدرسة .

واعتقدت فى بادىء الأمر أنى سمعت قوله جيداً فتساءلت : ماذا ؟ أنا أذهب للمدرسة ؟

— نعم . إذ يجب أن تجعل من نفسك شيئا مذكورا .

— إننى أجعل من نفسى هذا الشىء الآن . فسأصبح صياداً ومزارعا مثلك .

— كلا . فلم يعد هذا كافيا . وقد انقضى الزمن الذى كان يكفى الإنسان فيه أن يقضى من العام أحد عشر شهرا ونصف شهر فى الزراعة ويقضى فى الصيد نصف الشهر الباق ... ان الزراعة والصيد لم يعودا كافيين فى عصرنا هذا ، ويجب على الإنسان أن ينتمى الى مهنة الجنس البشرى ..

— الجنس البشرى ؟ .

— أجل . ولذلك ستذهب إلى المدرسة ، إذ يجب أن تتعلم ... إنك تستطيع أن تزاول الزراعة والصيد ، وأن تعرف الفرق بين الخطأ والصواب . وأن تفعل الصواب . . . وقد كان هذا كافيا فى الزمن الماضى . أما الآن فعليك أن تعرف لماذا كان الصواب صوابا وكان الخطأ خطأ، وأن تعلم ذلك لكل من لم تسنح له فرصة هذه المعرفة . . كما تستطيع أن تعلمهم كيف يفعلون الصواب لا لأنهم يعرفون أنه صواب فحسب ، بل أيضا لأنهم يعرفون لماذا هو صواب ، لأنك قد أنرت لهم الطريق وفتحت عقولهم وعلمتهم الأسباب . . . ولهذا كله ستذهب إلى المدرسة .

— انك ستلحقنى بالمدرسة لأنى أصغيت إلى هؤلاء الملاعين ويلى ليجيت ووالتر ايويل .

— كلا .

— بل نعم . ولا عجب اذن اذا أفلت منك الوعل أمس ، لأنك اعتنقت آراء هؤلاء الناس الذين مكنوا الوعل من الإفلات بعد أن ضيقنا عليه الخناق ... إنك لم تخطئه قط . ولم تنس فى يوم من الأيام أن تحشو بندقيتك ... انك أخرجت منها الرصاصات الثلاث بالأمس لحاجة فى نفسك ، فلقد سمعت صوت اخراج الرصاص بأذنىّ هاتين .

— حسنا ، حسنا ، ولكن خبرنى ماذا كنت تفضل؟ هل تفضل الحصول على رأسه ونصف جسده ، وتلقيهما فوق أرض المطبخ ، ثم تحمل نصفه الآخر سيارة تأخذ

طريقها الى « يوكنا باتوفا » ... أم تفضل تركه يسرح ويمرح فى الغابة حتى تأتى لصيده فى شهر نوفمبر من العام القادم ويكون كله خالصا لك ؟

فقلت : وأن نحصل عليه أيضا دون أن يضايقنا أو يثقل علينا وجود ويللى ليجيت والتر ايويل.

— ربما .

— بل نعم .

وقال مستر أرنست : ان كلمة « ربما » هى أحسن كلمة فى لغتنا بل هى خيرها جميعا ... انها الكلمة التى يتمسك بها الجنس البشرى ... وليست خير أيام الإنسان هى الأيام التى يسبق فيها الحوادث فيجزم بقول « نعم » بل هى الأيام التى يتمسك فيها بكلمة « ربما » .. انه لن يستطيع ان يقول فيما بعد « نعم » ، لا لأنه لم يكن قد عرفها الى ذلك الحين فحسب ، بل لأنه لا يريد أن يعرفها أو أن يقطع بشىء على سبيل الجزم .. أوه ... اذهب الى المطبخ وائتنى بكأس من الخمر ، ثم لنفكر بعد ذلك فى العشاء .

— حسنا ! .

ثم نهضت وقلت : هل تريد كأسا من خمر العم آيك ، ام كأسا من ويسكى روث ادموندز؟.

فقال : الا تستطيع ان تقول السيد روث ادموندز ؟

فأجبته قائلا : أجل ياسيدى . حسنا . فماذا تريد الآن ؟ هل تريد كأسا من خمر العم آيك ، ام قليلا من ويسكى روث ادموندز؟.

قال إله الرعاة



« من كتاب جيمز ستيفنز James Stephens الذى صدر له
بعنوان « مصنوع من ذهب Crock of Gold » سنة ١٩١٢ .

كان الحيرة ميها دى ماك مواراشو ما إيبرولما ؛ فقد كان أبا لابنة وحيدة هى أجمل بنات العالم. ومما يؤسف له أن أحدا لم يدرك أنها جميلة ، حتى هى نفسها . وكثيرا ما كانت تنظر إلى صورتها على صفحة ماء الغدير عند حافة الجبل وهى تستحم فى مياهه ، فترى أنها جميلة بهية الطلعة ، فتخيم عليها سحابة من الحزن . . . إذا ما فائدة الجمال إذا لم يوجد من يراه ويقدره ... ؟ ان الجمال ، أيضا ، استفادة وانتفاع ... فالفنون والحرف والمزايا والمواهب يجب أن تعرض فى السوق ليحكم عليها المحكمون من الرجال .

وكان بيسى هانيجان يقيم فى المنزل المجاور لبيت أبيها ، أما البيوت الأخرى فقد تناثرت على مسافة عدة أميال على سفح التل ، وتفصل بينها المستنقعات الضحلة .. ولذلك لم تر الفتاة منذ مولدها إلا رجلين غير أبيها ... وكانت تساعد أبويها فى الأعمال المنزلية الصغيرة ، وتسوق أمامها كل يوم ، بقراتهم الثلاث والعنزتين ، لترعى عند سفح الجبل ... ومرت بها أيام السنين بطيئة دافئة ، وخطرت ببالها أفكار

حديدة بالرغم منها و بدون وعى ، وارتسمت أمامها صور كانت لاتدوم غير لحظات وكأنها طيور تسبح فى الهواء العليل ... وكانت فى بادىء الأمر، ولوقت طويل ، سعيدة جدا ، فهناك أشياء كثيرة تثير اهتمام الأطفال وتجذبهم إليها كالسماء الفسيحة الواسعة التى لايحمل وجهها فى يومه جمال أمسه ، والمخلوقات الصغيرة التى لاحصر لها وتعيش بين الحشائش والأعشاب على شواطىء الغدير وحوافيه ، وهبوط الطيور من قنن الجبال الى السهول الممتدة على مرمى البصر ، والنحل وهو يجمع الشهد لبناء خلاياه، والجعلان وهى تضل طريقها دائما فى الظلام ... كل هذه الأشياء ، وكثير غيرها ، كانت موضع اهتمامها ... وكانت البقرات الثلاث ، بعد أن ترعى الكلأ طويلا ، تأتى اليها وتضطجع بجوارها ، وتنظر اليها وهى تجتر ، أما العنزتان ، فكانتا تشقان طريقهما إليهما لتلقيا برأسيهما على صدرها لأنهما تكنان لها الحب .

حقاً ... لقد كان كل شىء فى عالمها المادىء يحبها . ولكن ... القلق بدأ يزحف فى بطء على مشاعرها ووعيها ، قلق كانت هى غريبة عنه وهو غريب عنها... وكثيرا مادفعها الملل الى الارتماء على الأرض واستولت عليها فكرة لم تعرف لها اسما، وأخذت هذه الفكرة تنمو وتكبر وهى لا تستطيع التعبير عنها، وأعوزتها الكلمات التى تناسبها ، أوتتخذ منها رقى وتعاويذ تقيها شرها أو تحيى بها هذا الغريب الذى يدق بابها فى إصرار وتوسل لتحدثه وتسمح له بالدخول و بالعطف عليه وتشجيعه ... ان الفكرة حقيقة قائمة ، اما

الـكلمات فليست الا ثيابها فحسب ... ان الفـكرة خجول كالعذراء، إذا لم تسدل عليها الثوب والحلة المناسبة ، فقد لاتقع عيوننا على عريها المبهم . إنها ستهرب منا ، ولن تعود إلا تحت جنح الظلام ، باكية فى نشيج رقيق كالأطفال ، وقد لا نفهم هذا البكاء ، إلا بعد أن نصيخ له ، بعد طول تفـكير و إصغاء وحدس وتخمين ، تلك المثل التى فيها حمايته وشعاره . . .

ولم تستطع الفتاة أن تفهم اللمسة التى جاءتها من بعيد ، ومع ذلك فقد أحبتها ، ولا الهمسة التى عبرت الأجواء لتبلغ أذنيها ، ومع ذلك فقـــــد أثارتها . . . ولم تـكن مقاييس اللغة أو التجارب من شأنها . . . فهى تستطيع الإصغاء ولـكنها تعجز عن التفـكير ، وتستطيع أن تحس وتشعر ، وإنما تعجز عن المعرفة والإدراك ، وتستطيع أن تمد ببصرها إلى الأمام ولـكنها لا ترى ، وأن تلمس يداها الأشياء فى وضح النهار ولـكن لاتحس بها . . . لقـد كان ما بها أشبه بأنامل الرياح وهى تعبث بجدائل شعرها ولاتستطيع رفعها ، أو بخيوط الفجر الأولى التى لاهى بالنور ولا هى بالظلام... ومع هـذا فقد أصغت بدمها لا بأذنيها وامتدت أصابع روحها لتصافح يد إنسان غريب . . . وازداد اضطرابها من رغبة لم تـكن جسدية أو عقلية ، لأن جسدها وعقلها لم يكونا ذوىْ شأن . . . وكأن بينها وبين هذا كله طبقة معتمة جعلتها تراقب ما حولها وتحذره ، وحرمتها النوم ولـكنها لم تمل ولم تكل :

واضطجعت الفتاة فى صبيحة أحد الأيام فوق العشب الأخضر الطويل ، وأخذت ترقب طائراً يشدو ويغرد فترة من الزمن ثم انثنى بعيداً بين أجواز الفضاء ، حتى اختفى عن ناظريها عند الأفق الأزرق البعيد . وظل شدو الطائر يرن فى أذنيها حتى بعد احتجابه ، كصدى خافت عذب ، يتردد تارة ، ويتوقف أخرى وكأنما تعترض الرياح سبيله ، أو تنقله إليها ريح لينة رخاء . . . وأدركت بعد لحظات أن ما سمعته لم يكن شدو طائر ، فليس للطيور مثل هـــذه الأنغام الخافقة لأن تغريدها مضطرب دائماً كأجنحتها . . . وجلست تجيل الطرف فيما حولها فلم تر شيئاً . فالجبال تمتد باسقة فوقها حتى عنان السماء ، وكتل الأعشاب قد تناثرت حولها متألقة تحت أضواء الشمس ، ورأت منزل أبيها فى أسفل الوادى على مرمى البصر ، كما رأت جسما مغبرا بالقرب من بعض الأشجار . . . ثم توقفت الموسيقى وتركتها حائرة ذاهلة . . .

لم تجد عنزيتها فى أى مكان بالرغم من طول بحثها عنهما . وأخيراً جاءت العنزتان وحدهما من وراء منعطف التلال وهما ثائرتان ثورة لم تعهدها فيهما من قبل ، وحتى البقرات فقدت هدوءها وأخذت تحجل وتدور حولها . . .

وفى أثناء عودة الفتاة بقطيعها الصغير إلى المنزل ، أخذتها النشوة فرقصت ، ودارت حول ماشيتها هنا وهناك . . . وسارت فى خطى متثاقلة ، وضكت سمعها نغمة عذبة فرقصت على إيقاعها ، ولوحت بذراعيها إلى الأمام وإلى

أعلى ، وأخذت تترنح وتميل وتنثنى وهى سائرة ... لقد أصبحت حرية جسدها لها وحدها الآن ، وشعرت بالغبطة والجذل من خفة أطرافها واتزانها، وأولتها القوة التى لا تكل ، بشراً ومرحاً .. وساد أمسيتها سكون وسلام وهدوء وتلمست مواطىء أقدامها تحت أضواء الشفق الخافتة . . وتنادت الطيور فى الحقول المترامية بشدو بديع وتغريد حنون ، وهى تتسارع إلى أكنانها ، وشدت معها أغنية صامتة لم تكن فى حاجة إلى كلمات .

وسمعت الموسيقى فى اليوم التالى تنساب خافتة ناعمة ، لا يسمو إلى ذروتها وعليائها تغريد وشدو الطيور . . وتكرر الأمر مرات ومرات ، وفى غمرة الطرب ، شعرت الفتاة بهدوء عجيب وطمأنينة قدسية ... وحملت إليها الأنسام هذه النغمات من أبعاد سحيقة ، رقيقة حانية ، مليئة بشىء مبهم يثير خفقان قلبها . . وأصغت وتاقت إليها بأذنيها وشفتيها . . ترى . . هل هو الجذل . . والابتهاج ؟ أم الضيق أم عدم المبالاة ؟ . . إنها لا تعرف شيئاً ، ولم تعرف إلا أن هذه الأنغام صادرة عن إنسان . . إنها تسمعها بفكرها وتحسها بشعورها دون أن تفهمها .

ولم تر أحدا فى يومها ذاك ، وساقت أمامها ماشيتها فى المساء ، عائدة إلى المنزل فى وجوم وصمت شاركتها فيهما الماشية .

ولما عاد رنين الألحان ، لم تكلف نفسها عناء البحث عن مصدره ،

بل أصغت إليه بحواسها كلها ، وعندما توقف العزف شاهدت إنسانا يظهر من خلف منعطف التل ، وتتساقط أضواء الشمس على ذراعيه وكتفيه ، أما بقية جسده فقد اختفت وراء الصخور ، وسار فى طريقه، دون أن ينظر إليها ، وهو لا يزال يعزف على الناى .

ولم ينظر إليها فى اليوم التالى ، بل وقف قبالتها وقد ارتفعت الأعشاب الخضراء إلى خاصرتيه ، إنها لم تر وجه أى غريب من قبل ، ولذلك لم تحول عنه عينيها ، وحملقت فيه ، فبادلها نظرتها اليه ، بنظرة طويلة فاحصة . . وكان جعد الشعر ، ذا أنف صغير مستقيم ، مطبق الشفتين فى كآبة وحزن ، واسع العينين، حزين النظرات ، وله جبين عريض ناصع البياض .. وأبكاها فمه وعيناه . .

وعندما هم بالمسير ، ابتسم لها ابتسامة حلوة كأنها اشراقة الشمس تبدد الظلام بحزنه وكآبته . ثم مضى إلى سبيله متثاقلا متحاملا على نفسه وهو يعزف على نايه أعذب الألحان .

ووقف قبالتها فى اليوم التالى ، كما فعل من قبل ، ونظر إلى عينيها عن قرب ، وعزف بعض ألحانه لفترة قصيرة فى براعة واتقان . وما كاد يخرج من وراء المنعطف حتى أجفلت الفتاة وغطت عينيها مذعورة مرتاعة . . لقد كان به شىء فظيع غريب . فنصف جسده الأعلى جميل ، أما النصف

الأسفل فلم تجرؤ على اعادة النظر اليه ، وأرادت أن تهرب ولكنها خشيت مطاردته لها ، وجمد الدم فى عروقها لمجرد التفكير فى هذه المطاردة التى ستنتهى حتما باللحاق بها . . . وإن التفكير فيما هو فوق طاقتنا أمر مروع ، فصوت وقع الأقدام المطاردة أسوأ من القتل الذى نفر منه... ولم يسعها إلا أن تجلس فى مكانها وتنتظر ... عجبا ... لم يحدث شيء ... وأخيراً ألقت يديها فى حجرها فى يأس وكان هو يجلس على الأرض على قيد بضع خطوات منها ، غير ناظر إليها ، بل رمى بنظراته بعيداً عبر التلال الممتدة ووضع ساقاً فوق أخرى ، وكانت ساقاه كثتى الشعر طويلتى أظافر القدمين كالعنزة ، ولم تنظر هى إليها بل ركزت نظراتها على وجهه المجعد الحزين ...

إن خفة الروح تجذب إليها الأنظار ، والوجه الساذج البريء يبهج النفوس ... وكما لا تستطيع أية امرأة مقاومة الحزن أو الضعف ، فهى كذلك لا تجرؤ على مقاومة الدمامة ، لأن طبيعتها تهب لنجدتها فتبعث فيها الاطمئنان . وهذه الطبيعة هى نهاها وإدراكها اللذان يدفعانها إلى هيام ونشوة لا تستطيع معهما إلا التضحية بنفسها . . . . وليس الرجال آباء بالسليقة ، بل بمحض المصادفة . أما النساء فأمهات إلى أبعد من الفكر ومن السليقة التى هى أبو الأفكار . . . والأمومة والشفقة ، والتضحية بالنفس ، كلها عواطف اختلجت فى حناياهن ، ولن يبعدهن عن الرجال هزلهم أو كذبهم أو أنانيتهم ...

ولما تطلعت الفتاة إلى وجهه العاطفى أنـكرت بشاعة جسده . . . .
والحيوان الـكامن فى الرجال تصقله النساء ، وهن يغفرن للرجل دائماً صبيانيته ، وقوته المدمرة التى هى جزء لا ينفصم عن شبابه وخفة روحه ، ويرعينها ويغذينها فيه فى كـثير من الأحيان .

وبعد لحظات قليلة من الصمت ، أخذ ينفخ فى مزماره لحناً حزيناً شجياً ، ثم خاطبها فى صوت غريب أشبه بريح تهب من مكان سحيق .
فسألها : ما اسمك أيتها الراعية ؟

فهمست : اسمى كيتلين انجن نى مواراشو .

— ابنة مواراشو .. لقد جئت من مكان بعيد به تلال عالية .
وجميع من يرعون أغنامهم هناك ، رجالا ونساء ، يعرفوننى ويحبوننى ... فأنا سيد الرعاة ... انهم جميعاً يغنون ويرقصون ويمتلئون غبطة وسرورا عندما أحضر إليهم فى وضح النهار ، ولـكننى لا أجد تبجيلا من أحد فى هذه البلاد . فالرعاة يهربون عندما تتردد أنغام هذا الناى بين جنبات المراعى ، وتصرخ الفتيات رعباً وفزعا عندما أرقص لهن فى المروج . . . . اننى وحيد فى هذه البلاد العجيبة . . . وانت ، ولو انك رقصت على نغمات هذا الناى ، قد أخفيت وجهك بيديك عند رؤيتى ولم تبجلينى .

— سأفعل كل ماتطلبه منى إذا كان صوابا ...

— يجب ألا تفعلى شيئاً لأنه صواب ، بل لأنك ترغبين فى عمله . إن الصواب كلمة ، والخطأ كلمة أيضا . والشمس تشرق فى الصباح ، ويسقط الندى عند الغسق دون أى تفكير فى هذه الكلمات التى لا معنى لها . . . والنحل يتنقل بين الأزهار ، وتنمو البذور وهى سعيدة . . . وإذا كان هذا صوابا أيتها الراعية فهو خطأ أيضا . . . . إنى أتيت إليك لأن النحل يحط على الزهر ، فهل هذا خطأ ؟ وإذا لم آت إليك فلمن كنت أذهب ؟ ليس هناك خطأ أو صواب ، بل هناك فقط إرادة الآلهة .

— اننى خائفة منك . . .

— أنت تخافين منى لأن ساقى غزيرتا الشعر كالعنزة . . . أنظرى اليهما جيدا ، وأنعمى النظر أيتها الفتاة على أنهما حقا ساقا حيوان ، ولن تشعرى بالخوف بعد ذلك . . . ألا تحبين الحيوانات ؟ . . . يجب عليك أن تحبيها لأنها تتوق اليك إما عن خضوع و إما عن شراسة ، فاربتى رءوسها بيديك فى حنان كما أفعل . . . واذا لم أكن على ما أنا عليه ، ما أتيت اليك ، لأنى عندئذ لا أكون فى حاجة اليك . إن الرجل مخلوق صالح وشرس معاً . فهو يتطلع فى شوق الى النجوم ، برأسه ، أما أقدامه فتقنع بحشائش الحقول . . . . واذا نبذ شراسته التى يعيش عليها ، لم يبق على وجه الأرض رجال ونساء ، وعصفت الآلهة الخالدة بهذا العالم كما تعصف بالدخان .

— أنا لا أعرف ماذا تريدنى أن أفعل ؟

— أريدك أن تشتهيني . أريدك أن تنسى الخطأ والصواب ، وأن تكونى سعيدة كالحيوانات ، مستهترة كالأزهار والأطيار ، وأن تعيشى بين أغوار طبيعتك وكذلك فوق مرتفعاتها ... حقا إن فى هذه المرتفعات نجوما ستكون إكليلا على جبينك ولكن الأغوار والأعماق كالمرتفعات سواء بسواء ... ان الأعماق بعيدة الغور ، ولكن أخصبها أبعدها غوراً ... إن فيها نجوما أشد لمعاناً وبريقاً من نجوم السماء ... أما هذه المرتفعات فتسمى الحكمة ، وأما الأغوار فتسمى الحب ، وكيف يلتقيان ويؤتيان ثمرتهما إذا لم تغوصى بعيداً فى الأعماق بلا خشية أو خوف ؟ الحكمة هى الروح وأجنحة الروح . والحب هو الحيوان الكث الشعر الذى يهبط ... انه يغوص فى ظرف وكياسة ، إلى أسفل من الأفكار وإلى ماوراء الحكمة ثم يرتفع ثانية إلى ما فوق هذين كما هبط أولا ... إن الحكمة هى الصواب والنقاء ، أما الحب فدنس ولكن مقدس . انى أغنى بسبب حيوانيتى وانحدارى ، والمدنسون يطهرون أنفسهم بالنار التى هى الفكر الذى لم يولد بمقدار ، فى الجلد أو فى الرأس ، ولكن ولد فى الأقدام والدم الفائر والنبض السريع .. وليس تاج الحياة موجوداً فى الشمس ، لأن الآلهة الحكماء قد دفنوه فى أغوار سحيقة حيث لايعثر عليه المفكرون أو الصالحون ، بل يعثر عليه المرحون والمغامرون ... أما الغواصون المستهترون فسيجلبونه للعقلاء ويبهرونهم به ... ونحن نستطيع رؤية جميع الأشياء فى الأضواء ، فكيف يمكننا إذن تقدير قيمة ما تسهل علينا رؤيته ؟ إن النفائس مخبوءة ،

وستزيد نفاستها كلما بحثنا عنها ، وستكون جميلة بأحزاننا ، ونبيلة لأننا نشتهيها ... تعالى معى أيتها الراعية إلى داخل الحقول حيث نستهتر ونسعد، وندع الفكر ليعثر علينا عندما يستطيع ، فهذا واجبه . وهو أكثر تلهفا على اكتشافنا من العثور بنا .

ونهضت كيتلين نى مواراشو وذهبت معه إلى داخل الحقول. . . وهى لم تذهب معه من أجل الحب ، ولا لأنها فهمت شيئا من كلماته ، بل لأنه كان عاريا ولا يشعر بالخجل أمامها .

صراع مع البحر



من قصة « نور هيردال Thor Heyerdahl الشهيرة » كون — تيكى Kon-Tiki ومنها يروى كيف استطاع هو وبعض زملائه عبور المحيط الهادى على ظهر زورق بدائى وكيف أنه قطع طريقا وعراً ، وكيف عاش ، وكيف انتهت الرحلة ، وبقى هذا العمل الفنى الرائع . .

فى الليلة السابقة لليوم الثلاثين من يوليو ، كان هناك جو جديد عجيب يحيط بالطوف « كون — تيكى » ولعل الضجيج الذى يصم الآذان المنبعث من كل طيور البحر التى ترفرف فوقنا ، هو الذى أظهر أن هناك شيئاً جديداً يوشك أن يحدث .. إن صياح الطيور بأصواتها المختلفة يبدو شيئاً غير عادى . بعد ذلك الصرير الميت الذى ينبعث من الحبال التى لا حياة فيها . . والذى كان هو الصوت الوحيد الذى نسمعه يعلو فوق صوت البحر خلال الأشهر الثلاثة التى خلفناها وراءنا ... وبدا القمر ليلتئذ أكبر حجما وأكثر استدارة مما كان من قبل ، وهو منطلق فى طريقه فوق برج المراقبة فوق أعلى السارية ..

وفى الساعة السادسة صباحاً ، هبط (بنجت) من فوق السارية ، وأيقظ (هرمان) ، ثم دلف إلى الداخل · وعندما تسلق هرمان السارية المترنحة بصريرها المعهود ، كان النهار قد بدأ يغمر الكون ، وبعد عشر دقائق ، عاد يهبط السلم المصنوع من الحبال ، ويهزنى من ساقى قائلا :

— اخرج .. وألق نظرة على جزيرتك .

كان وجهه متألقا ، فقفزت من مكانى ، وتبعنى بنجت الذى لم يكن قد استغرق بعد فى نومه ، وانطلق كل منا فى أعقاب الآخر ، نحاول الوصول إلى أعلى نقطة يمكن تسلقها ، حتى بلغنا تقاطع الساريات ...

كانت هناك طيور كثيرة تحوم حولنا ، وقد انعكس على صفحة البحر، قناع شاحب ، بنفسجى اللون ، يميل إلى الزرقة ، كان يغطى وجهه السماء ، وكأنه بقية أخيرة من الليل الراحل، بينما أخذ وهج برتقالى ينتشر نحو الشرق ليغمر صفحة الأفق البعيد ، وبدا إلى الجنوب الشرقى ستار خلفى يتكون تدريجا ، وهو ذو لون أحمر دموى باهت الظل، كخط رسمه قلم أزرق على طول حافة البحر ..

إنها الأرض ... جزيرة .

وأخذنا نلتهمها بعيوننا فى نهم ، ورحنا نوقظ الآخرين ، الذين خرجوا يتعثرون فى خطـاهم وهم مازالوا تحت تأثير النعاس ، وانطلقوا يحدقون بأبصارهم فى كل اتجاه . كانت الطيور بصياحها تـكوّن جسراً عبر السماء فى اتجاه الجزيرة البعيدة ، التى تبرز فى حدة فوق صفحة الأفق ، بينما أخذ الستار الأحمر يتسع من ورائها ليصبح لونها ذهبياً كلما اقتربت الشمس ، وازداد ضوء النهار اكتمالا . .

كان أول ما اتجه إليه تفـكيرنا ، هو أن الجزيرة لا تقع فى المـكان الذى كان يجب أن تكون فيه. وما كان من غير المعقول أن تـكون الجزيرة

قد انحرفت عن طريقها ، فلا بد إذن أن يكون الطوف قد وقع بين براثن تيار متجه إلى الشمال خلال الليل . وكانت نظرة واحدة إلى البحر كافية لأن ندرك على الفور من اتجاه الأمواج ، أننا فقدنا فرصتنا فى الظلام . .

ترى أين نحن الآن ؟

إن الريح لم تعد تسمح لنا بالضغط على الطوف ليسير فى اتجاه الجزيرة ، والمنطقة المحيطة بأرخبيل (تواموتو) تغمرها تيارات المحيط القوية ، التى تلتوى فى كل اتجاه ، ويختلف اتجاه الكثير منها عندما يلتقى بتيارات المد القوية المتدفقة من الصخور و البحيرات الضحلة .

ورفعنا الجداف ، وإن كنا قد أدركنا تماماً أنه لم تعد هناك فائدة منه . وفى الساعة السادسة والنصف ، برزت الشمس من البحر ، وأخذت ترتفع نحو السماء كما تفعل عادة فى المناطق الحارة . كانت الجزيرة تقبع على بعد أميال قليلة ، وقد بدت كشريط منخفض من الغابات يزحف على طول الأفق ، بينما تزاحمت الأشجار بعضها إلى جوار بعض وراء شاطىء ضيق ، انخفض مستواه ، حتى اختفى وراء الأمواج فى فترات منتظمة .

وتجمعنا كلنا حول السارية فى سكون ، نحدق فى الأرض التى برزت فجأة وسط ذلك البحر الجبار الذى لا نهاية له . . . لقد ظهر أمامنا دليل منظور ، يثبت أننا كنا نتحرك فعلا طوال هذه الشهور ، وأننا لم نكن ندور وسط حلقة مفرغة من الأفق الأبدى . .

وبدا لنا كأن الجزيرة تتحرك، وأنها دخلت فجأة حلقة البحر الأزرق الخالى، تلك الحلقة التى اتخذنا من وسطها منزلا دائماً، وخيل إلينا أن الجزيرة تنحرف فى بطء عبر أملاكنا الخاصة .

لقد غمرنا جميعاً إحساس دافىء بالراحة لأننا وصلنا حقاً إلى «بولينزيا»، وإن شابت ذلك الإحساس خيبة أمل عابرة، لأننا مضطرون للإذعان فى يأس، والاكتفاء بمشاهدة الجزيرة وهى تقف بعيداً أشبه بالسراب، بينما يواصل التيار جرفنا الأبدى عبر البحر إلى الشرق .

وفى الثامنة والنصف، غرقت الجزيرة فى البحر وراءنا، وإن ظل فى استطاعتنا حتى الحادية عشرة أن نرى ونحن عند أعلى السارية خطا أزرق شاحباً، يبدو فوق الأفق صوب الشرق ... ثم مالبث هذا الخط أن اختفى أيضاً، وأصبح الدليل الوحيد على موقع الجزيرة، سحابة عالية ضخمة كالجبل، ترتفع فى سكون نحو السماء . واختفت الطيور، التى كانت تفضل السير مع اتجاه رياح الجزر، حتى تسكون الريح معها وهى تعود إلى بيوتها فى المساء ممتلئة البطون، كما قل ظهور «الدرافيل» بصورة ملحوظة، ولم نعد نرى غير قليل من الأسماك تحت الطوف .

وفى الصباح التالى مباشرة، شاهدنا سحابتين جديدتين ترتفعان كالبخار الذى ينبعث من قاطرتين جديدتين وراء الأفق، وعرفنا من الخريطة أن الجزيرتين المرجانيتين اللتين انبعثت السحب فوقهما، هما «فانجاهينا»

و « انجاتو » ، وكانت السحابة التى تعلو انجاتو هى أكثرها ملاءمة لنا نظرا لهبوب الريح فى اتجاهها ، فقررنا ان نسير نحوها ، ورحنا نحرك المجداف بسرعة ، ونحن نحس بالسلام والحرية فى الباسفيك ... كانت الحياة حلوة فى ذلك اليوم الجميل ، فوق سطح الطوف (كون ـ تيكى) المصنوع من الخيزران ، حتى غمرتنا الثقة بأن الرحلة سوف تنتهى سريعاً ، مهما كان المصير الذى ينتظرنا .

وظللنا نواصل السير ثلاثة أيام بلياليها ، نحو السحب التى ترتفع فوق انجاتو . كان الجو صافياً ، والمجداف وحده يحدد طريقنا ، ولم تعد التيارات تحاول خداعنا . وفى صباح اليوم الرابع ، تسلم « تورستين » نوبة الحراسة من هرمان فى الساعة السادسة ، وقيل له إن هرمان يعتقد أنه شاهد شبح جزيرة منخفضة فى ضوء القمر . وعندما أشرقت الشمس ، قرب تورستين رأسه من باب المقصورة وصاح قائلا :

— الأرض أمامنا . .

وقفزنا جميعاً إلى السطح . . . وما كدنا نرى هـذا المنظر ، حتى رفعنا أعلامنا جميعاً ، فرفعنا العلم النرويجى أولا على مؤخرة الطوف ، ثم العلم الفرنسى فوق السارية ، لأننا كنا فى الطريق إلى مستعمرة فرنسية . وسرعان ما كانت كل أعلام الطوف ترفرف والرياح الشرقية تهزها ... كان هنالك العلم الأمريكى والبريطانى والسويدى ، وعلم بيرو ، إلى جوار العلم الخاص

بنـادى الرحالة . ولم يكن هناك أى شك فى أن « كون ـ تيسكى » تبدو الآن فى ثوبها القشيب .

كانت الجزيرة لاتزال ساكنة فى موضعها هذه المرة ، على يمين طريقنا وأبعد قليلا مما كانت سابقتها ، عندمـا برزت ساعة مشرق الشمس منذ أربعة أيام . وبينما كانت الشمس ترتفع إلى كبد السماء وراءنا ، استطعنا أن نرى بصيصاً من نور أخضر يرتفع عالياً نحو السماء التى يغمرها الضباب فوق الجزيرة . كان ذلك الضوء ، انعكاساً لمياه البحيرة الخضراء الراكدة ، داخل سلسلة الصخور التى تحيط بنا . إن بعض الجزر المرجانية المنخفضة ينبعث منها مثل هذا السراب ويرتفع آلاف الأقدام فى الهواء ، حتى يبدو موضعها للمبتدئين من الرحالة البحريين قبل ظهور الجزيرة نفسها فى الأفق بأيام كثيرة .

كنا نعلم أن هناك منطقة ضحلة خطرة تحت الماء فى مكان ما يقع بيننا وبين الجزيرة ، تسكمن لأى شىء يقترب من الجزيرة البريئة المظهر . وهذه الصخور تقبع تحت الأمواج العميقة التى تنطلق فى حرية من الشرق . وبينما كانت المياه الضخمة تفقد اتزانها فوق المنطقة الضحلة ، كانت الأمواج ترتفع إلى السماء ، ثم تهوى إلى أسفل ، وهى ترغى وتزبد مصطدمة بالصخور المرجانية الحادة ...

لقد ذهبت سفن كثيرة ضحية هذا الاجتذاب الرهيب نحو الصخور

المغمورة تحت الماء ، عند مجموعة جزر « تواموتو » ، فتحطمت وتمزقت إربا فوق الصخور المرجانية .

لم يكن فى استطاعتنا أن نرى شيئاً من هذا الشرك الخادع ونحن فى البحر ، فانطلقنا نحو الجزيرة نتبع اتجاه الموج ، ولا نرى غير سطح البحر المتجنى اللامع ، بينما كانت الصخور مختفية وراء صفوف عالية من الأمواج العريضة التى ترتفع فوقنا ، على طول طرفى الجزيرة حيث كنا نلمح منظراً جانبياً للشاطىء ، يكشف أمامنا الشمال والجنوب معاً .

ورسمنا طريقنا بحيث نسير بعيداً عن الطرف الجنوبى للجزيرة ، على أمل أن نتمكن عند وصولنا إلى هناك ، أن نسير بحذاء الشعب المرجانية ، حتى نصل إلى نقطة تقع على الجانب الذى يقع بعيداً عن الريح ، أو أن نبلغ مكاناً ضحلا ، حتى نتمكن من وقف اندفاعنا بعيداً بالقاء مرسانا هناك ، منتظرين تغير الرياح ، حتى نصبح فى حمى الجزيرة .

وحوالى الظهر ، استطعنا أن نرى بالمناظير المكبرة ، أن النباتات الموجودة على الشاطىء هى أشجار جوز صغيرة خضراء ، وقد تقاربت قممها فى سياج يهتز من الأشجار القصيرة التى تبدو فى المقدمة .

وفى الساعة الثانية ، كنا قد أصبحنا قريبين إلى حد أننا شرعنا فى الاتجاه نحو الجزيرة ، بعيداً عن الصخور الخادعة . وبينما أخذنا نقترب تدريجيا ، سمعنا

هدير الموج كالشلالات المتدفقة فوق الصخور ... وسرعان ماأصبح صوتها وكأنه صوت قطار سريع لاينقطع ، وهو يعدو فوق خط مواز لنا على بعد بضع مئات من الياردات من جانبنا الأيمن .

ووقف اثنان منا فى وقت واحد يديران مجداف الدفة ، من وراء ستار خيزرانى ،دون أن يشاهدا شيئا أمامهما . وكان اريك يقف باعتباره مسئولا عن الملاحة ، فوق صندوق المطبخ ، مصدرا تعليماته إلى الزميلين اللذين يجلسان أمام المجداف الثقيل .

كانت خطتنا ترمى إلى أن نظل قريبين من الصخور عند أقرب النقط أمامنا بينما كنا نتطلع باستمرار من فوق السارية بحثا عن ثغرة أو فتحة بين الصخور نستطيع المرور منها بالطوف . وأخذ التيار يجرفنا على طول الصخور كلها .

وبينما كان أريك يقوم بتوجيهنا فى الطريق الكثير المنحنيات ، نزلت أنا وهرمان فى القارب المطاطى بعد ربطه بنهاية حبل متين ، لعلنا نكشف عن ثغرة أو ممر يمكن أن ننفذ منه .... وهكذ أعد اريك الشراع بربط الناحية اليسرى وفك الناحية اليمنى ، وتبعه القائم على الدفة ، حتى تستطيع (كون — تيكى) أن تدير وجهها وتبتعد عن منطقة الخطر ، حتى يحين موعد محاولتها الثانية للدخول .

وفى كل مرة كانت «كون — تيكى» تقف أمام الصخور وهى تتأرجح ، كنا — أنا وهرمان — نجلس فى القارب المطاطى وقلوبنا ترتعد ، فقد كنا

نقترب من الصخور فى كل مرة إلى حد أننا نشعر بضربات الأمواج وقد أصبحت فى حالة عصبية ، وازدادت علوا وقسوة . وفى كل مرة كنا نعتقد أن اريك قد تمادى إلى حد بعيد ، وانه لم يعد هناك امل فى إخراج كون تيكى مرة اخرى من بين الأمواج العاتية التى تجتذبنا نحو الصخور الشيطانية الحمراء ... ولكن اريك كان يخرج فى كل مرة بمناورة تدل على الذكاء ، وتنطلق « كون — تيكى » الى البحر الفسيح مرة أخرى ، بعيداً عن قبضة الأمواج العاتية .

وكنا نقترب أحيانا من الجزيرة حتى نرى كل تفاصيل الشاطىء ، ولكن ذلك الجمال الرائع كان بمنأى عنا ، بسبب الخندق الرهيب الذى يكمن بيننا .

وفى حوالى الساعة الثالثة ، تكشفت امامنا غابة النخيل على الشاطىء ، واستطعنا من خلال ثغرة متسعة ان نرى البحيرة الزرقاء اللامعة ، ولكن الصخور المحيطة بها كانت تطوقها فى احكام وكأنها وحش يصر بأسنانه الدموية الحمراء التى ينبعث منها الزبد بصورة تنذر بالشر .. قائلا لنا : لن تمروا ..

واختفت غابة النخيل مرة أخرى ونحن نكد فى السير على طول الجزيرة والرياح من ورائنا ، ثم ما لبثت الغابة أن أخذت تزداد تحولا ، حتى أتاحت لنا رؤية ما فى داخل الجزيرة المرجانية ، فرأينا بحيرة ضحلة أكثر صفاء وبريقاً ، يحيط بها نخيل الجوز المهتزة وشواطىء الاستحمام الساطعة

أما جزيرة النخيل الخضراء المضللة ، فكانت عبارة عن حلقة متسعة من الرمال الناعمة ، تحيط بالبحيرة ، وهناك حلقة أخرى تحيط بالجزيرة كلها ، وكأنها السيف الأحمر الذى يدافع عن بوابة السماء .

كنا نسير طوال اليوم فى خطوط متعرجة على طول سواحل جزيرة «انجاتو» والشمس ترسل أشعتها فوق كل النخيل . وبدا كل مافى داخل الجزيرة جنة ممتعة .

وبعد أن أصبحت مناوراتنا روتينية ، أخرج اريك قيثاره ، ووقف على السطح ، وقد غطى رأسه بقبعة شمس كبيرة ، يعزف ويردد أغانى البحار الجنوبية العاطفية ، بينما جلس بنجت عند طرف الطوف يعد عشاء شهياً ، وفتحنا نحن ثمرة جوز قديمة من بيرو ، وشربنا نخب الجوز الطازج الصغير الذى يتدلى من الأشجار فى داخل الجزيرة .

وكان هذا اليوم الذى احتفلنا فيه على مقربة من «انجاتو» هو اليوم التاسع والسبعين لنا فى البحر ، ومن العجيب أننا ونحن فى نيويورك ، قدرنا أن ٩٧ يوما هى الحد الأدنى الذى نستطيع خلاله أن نصل إلى أقرب الجزر «بولينزيا» ، إذا كانت الظروف التى تواجهنا على ما يرام .

وحوالى الساعة الخامسة ، مررنا أمام كوخين أسقفهما من سعف النخيل ، يقبعان بين الأشجار على الشاطىء ، ولكن لم يكن هناك أى

دخان أو أية علامة على الحياة . وفى الخامسة والنصف توقفنا أمام الصخور مرة أخرى .

لقد ظللنا نسير على طول الساحل الجنوبى كله ، وأصبحنا على مقربة من الطرف الغربى للجزيرة ، ولا بد لنا من أن نلقى نظرة أخيرة عليها على أمل أن نجد منفذا نمر منه اليها . كانت الشمس قد انخفضت الآن إلى حد أنها كانت تعشى أبصارنا عندما نتطلع إلى الأمام ، ولكننا رأينا قوس قزح صغيرا فى الجو ؛ حيث تصطدم الأمواج بالصخور على بعد مئات الياردات وراء آخر نقطة من الجزيرة . وعلى الشاطىء رأينا فى الداخل مجموعة من النقط السوداء الساكنة ، وفجأة تحركت احداها ببطء نحو الماء بينما انطلقت كثيرات غيرها بسرعة نحو طرف الغابة . .

انهم أناس .

واتجهنا نحو الصخور إلى أقرب مدى نستطيع الوصول اليه . كانت الريح قد هدأت ، حتى أحسسنا أننا نكاد نصبح فى حمى الجزيرة ؛ ثم رأينا زورقا يوضع فى الماء ؛ يقفز اليه شخصان ؛ يجدفان نحو الجانب الآخر من الصخور ؛ وبعد أن ابتعدا قليلا ، أدارا الزورق ، الذى رأيناه يرتفع عاليا فى الجو بتأثير الأمواج ؛ ثم يندفع من خلال ممر بين الصخور ؛ ليتجه نحونا مباشرة .

هناك ثغرة إذن بين الصخور .. انها أملنا الوحيد . اننا نستطيع الآن أيضاً ان نرى القرية كلها قابعة بين جذوع النخيل .

ولوح الرجلان اللذان يركبان الزورق بأيديهما ؛ فأخذنا نلوح لهما بلهفة وزادت سرعتهما . كان زورقا رفيعاً من انتاج الجزيرة ؛ به شخصان لهما بشرة سمراء فى ملابس داخلية ؛ يجدفان وهما ينظران إلى الأمام .

وتوقعت أن نواجه متاعب أخرى خاصة باللغة . لقد كنت الوحيد الذى يتذكر كلمات قليلة من لغة «الماركيزى» التى تعلمتها أثناء إقامتى فى (فاتوهيفا) ، ولكن لغة بولينزيا لغة يصعب حفظها لأننا لا نتحدث بها فى دول الشمال .

وأحسسنا ببعض الراحة عندما اصطدم الزورق بجانب الطوف، وقفز الرجلان إلى سطح (كون — تيكى) .

كانت البسمة تشيع فى وجه احدهما ، الذى مد يده السمراء الينا قائلا بالإنجليزية : مساء الخير .

فأجبته فى دهشة : مساء الخير .. هل تتحدث الانجليزية ؟

فابتسم الرجل مرة اخرى ٠٠ ثم قال : مساء الخير ٠٠ مساء الخير .

وكان هذا هو كل محصوله من اللغة الإنجليزية ٠٠ وهو ما يمتاز

به على صديقه الآخر ؛ الذى وقف وراءه يبتسم فى سكون ؛ وقد بدا عليه اعجابه بزميله المحنك .

وسألته وأنا أشير إلى الجزيرة : اهذه هى انجاتو ؟

فحنى الرجل رأسه مؤكدا .. وقال : هى انجاتو .

وهز اريك رأسه فى فخر . لقد كان على صواب فى تحـديد مكاننا معتمدا على الشمس .

وحاولت أن أستخدم معلوماتى التى اكتسبتها فى (فاتوهيثا) لأقول لهما اننا نريد الذهاب إلى البر .. فاشار الاثنان معـاً نحو الممر المختفى بين الصخور . فأنزلنا المجداف وقررنا أن نجرب حظنا .

فى تلك اللحظة ؛ هبت من داخل الجزيرة هبـات منعشة من الرياح وكانت هناك سحابة ممطرة تكمن فوق البحيرة ؛ والريح تهدد باجبارنا على الابتعاد عن الصخور ، ولم تستجب (كون — تيكى) إلى حركة الدفة لتستدير بزاوية متسعة إلى حد يسمح لها بالوصول إلى فتحة الثغرة الموجودة بين الصخور . وحاولنا ان نبحث عن القاع ، ولكن حبل المرساة لم يكن طويلا إلى حد كاف ؛ وأصبح لزاما علينا الآن أن نلجأ إلى المجاديف بسرعة قبل ان تتمكن الريح من السيطرة علينا ؛ وانزلنـا الشراع بأقصى سرعة ، بينما اخرج كل منا مجدافه الكبير .

وأردت أن أعطى كلا من الرجلين القادمين إلى الجزيرة مجدافا إضافياً لمساعدتنا ، وكانا قد وقفا يتمتعان بالسجائر التى أهديناها إليهما ، ولكنهما هزا رأسيهما بشدة ، وأشارا إلى الطريق فى ارتباك .

وأشرت إليهما بأننا يجب أن نتعاون جميعاً فى التجديف ، وكررت لهما قولى إننا يجب أن نذهب إلى الأرض ، فانحنى أولهما ، وأخذ يلوح بيده اليمنى فى الهواء ويقول :

— بر . . ر . . ر

لم يكن هناك شك فى أنه كان يريد منا أن ندير المحرك ، فقد ظن الاثنان أنهما يقفان على ظهر سفينة تسير بالبخار . ولكننا صحبناهما إلى المؤخرة ، وجعلناهما يتحسسان الكتل الخشبية ليدركا أنه ليس هناك أى محرك أو لولب .

واستولى الذهول على الرجلين ، فألقيا بسجائرهما ، وألقيا نفسيهما على جانب الطوف حيث كنا نجلس ومجاديفنا مغمورة فى الماء .

وفى ذلك الوقت غرقت الشمس فى البحر ، وزادت هبات الريح القادمة من داخل الجزيرة . كان يبدو أننا لانتحرك قيد أنملة . وبدا الفزع على وجهى الوطنيين ، فأسرعا بالقفز الى زورقهما واختفيا عن أنظارنا . . . وبدأ الظلام يزحف على الكون . . لقد أصبحنا بمفردنا مرة

أخرى نجدف فى يأس حتى لاتجرفنا الأمواج من جديد . .

وبينما راح الظلام يسدل أستاره فوق الجزيرة ، جاءت أربعة زوراق تهتز من وراء الصخور . . . وسرعان مارأينا عددا كبيرا من أهالى (بولينزيا) فوق ظهورها . الكل يريد أن يصافحنا ويأخذ سجائرنا. وشعرنا بالاطمئنان لوجود هؤلاء الناس بزوارقهم . لم يعد هناك خطر . انهم لن يدعونا نتقهقر الى البحر مرة أخرى . لابد أن نصعد الى الشاطىء هذا المساء .

وسرعان ما احضرنا حبالا ربطناها الى مؤخرة الزوارق الأربعة ، التى تقدمت الطوف كفريق من الكلاب التى تجر الزحافات ، وقد انتشرت على هيئة المروحة . وقفز (كنندت) الى قاربه المطاطى واتخذ لنفسه مكانا بين هـــذه الزوراق ، بينما جلسنـــا نحن على جانبى الكتل الخشبية للطوف بمجاديفنا .

وهكذا بدأ كفاحنا الأول ضد الرياح الشرقية التى كانت تهب من وراء ظهورنا فترة طويلة . وساد الجو ظلام حالك ، حتى برز القمر فى السماء ، وهبت ريح منعشة . . . وفوق ارض الجزيرة ، تجمع اهالى القرية وكدسوا احطاب الشجر ، واوقدوا نارا كبيرة ليكشفوا لنا عن اتجاه الممر الذى يقع بين الصخور ، بينما كان صوت الهدير المرعب الذى ينبعث من الصخور يحيط بنا فى الظلام وكأنه شلالات مدوية تزأر بلا انقطاع ، وهديرها يزداد ارتفاعا ، ولم يعد فى استطاعتنا ان نرى الفريق الذي يتقدمنا بزوارقه ليجذب الطوف ، ولكننا كنا نسمع

اصواتهم وهم ينشدون اغانى الحرب الحماسية بلغة بولينزيا بصوت عال ، كما استطعنا ان نميز صوت (كندت) بينهم ، فعندما كانت الأغانى البولينزية تتلاشى فى كل مرة ، كنا نسمع صوت كندت يغنى وحده أغانى نرويجيه شعبية ، بين كورس من أهالى بولينزيا .

وارتفعت روحنا المعنوية ارتفاعا عاليا. لقد امضينا ٩٧ يوما حتى وصلنا الى بولينزيا . وستقام لنا الاحتفالات فى القرية هذا المساء . ان القرويين تسودهم البهجة وهم يصرخون ويصيحون فى فرح . ان أحدا لا يهبط على جزيرة «انجاتو» أكثر من مرة كل عام ، عندما تصل السفينة (كوبرا) القادمة من تاهيتى لتحضر ثمار جوز الهند . لا بد إذن من أنهم سيقيمون لنا احتفالا حول النيران فى ذلك المساء .

ولكن الريح الغاضبة ما لبثت أن هبت فى ثورة وعناد . واستولى علينا التعب والإرهاق ، حتى صرخت كل أطرافنا من الألم . وظللنا نواصل الجهد . ولكن النار لم تقترب منا . وبقى هدير الصخور من حولنا قوياً كما كان . بينما اختفى صوت الغناء شيئاً فشيئاً ، وما لبث أن ساد المكان سكون تام .

لم يعد فى استطاعة الرجال أن يفعلوا شيئاً غير التجديف . والنار ثابتة فى مكانها لا تقترب ، مكتفية بالتراقص إلى أعلى وأسفل ، كما يرفعنا الموج ويهبط بنا .

ومرت ثلاث ساعات ، وأصبحت الساعة التاسعة مساء ، وبدأنا نفقد القدرة على الاستمرار . لقد تعبنا تماماً

وأفهمنا الأهالى بالإشارات أننا فى حاجة إلى المزيد من المساعدة من الجزيرة ، فأفهمونا أن هناك كثيراً من الناس على الشاطىء ولكن الجزيرة كلها ليس فيها غير هذه الزوارق الأربعة .

ثم بدا (كندت) وسط الظلام مع قاربه المطاطى . قال : إن لديه فكرة . . فهو يستطيع أن يذهب بقاربه المطاطى عدة مرات إلى الجزيرة ، ليحضر معه فى كل مرة خمسة أو ستة من الرجال .

كانت تلك مخاطرة شديدة ، فإن كندت لم تكن لديه أية خبرة بالمنطقة ، ولن يستطيع أن يتحسس طريقه إلى الأمام نحو الثغرة التى تكمن بين الصخور المرجانية وسط هـذا الظلام الحالك .. ولكنه اقترح أن يصحب معه فى القارب زعيم الوطنيين الذى يستطيع أن يرشده إلى الطريق، ولكنى لم أكن أعتقد أنها خطة صائبة ، فان رجل الجزيرة لم تكن لديه أية خبرة للقيام بأية مناورة بهذا القارب المطاطى من خلال الممر الضيق الخطر بين الصخور .

وطلبت إلى كندت أن يستدعى زعيم الوطنيين ، الذى كان يجدف بقاربه أمامنا فى الظلام ، حتى نستطيع أن نعرف رأيه فى الموقف . وبدا

بوضوح أننا لن نستطيع بعد ذلك أن نتفادى التيار الذى يجرفنا إلى الوراء .

واختفى كندت وسط الظلام . وعندما مر بعض الوقت دون أن يعود مع الزعيم ، أخذنا نصيح منادين إياهما دون جدوى . . . فلم نكن نسمع غير أغنيات المرتلين من الأهالى أمامنا .

لقد اختفى كندت فى الظلام . وفى تلك اللحظة أدركنا ماحدث . . ففى وسط كل هذه الضوضاء والضجيج والاضطراب ، أساء كندت فهم التعليمات ، فانطلق يجدف مع الزعيم صوب الشاطىء ، ولم يعد لصيحاتنا من جدوى ، فقد اصبح كندت الآن فى مكان لاتصل إليه الأصوات وسط الرعود وهدير الأمواج .

وسرعان ما احضرنا مصباح مورس ، وتساق احدنا السارية ، وراح يشير إلى كندت . . . دون جدوى .

وزاد اندفاعنا نحو المؤخرة ، نظرا لابتعاد الرجلين عنا ، وصعود ثالث فوق السارية ليواصل اشاراته وبدأ الباقون يشعرون بالتعب البالغ . فألقينا بعض العلامات فى الماء .. وتبين لنا اننا نتحرك ببطء .. ولكنها حركة فى الطريق غير المطلوب بكل تأكيد . . .

واخذت نار الشاطىء تصغر . . . وصوت الأمواج التى تصطدم بالجزيرة يخفت ، وكلما زاد ابتعادنا عن غابة النخيل ، زادت قبضة الرياح الشرقية المستمرة تحكمافينا .

لقد احسسنا بهذه القبضة مرة أخرى ، وعاد الأمر كما كان ونحن وسط البحر .. وادركنا شيئا فشيئا أننا فقدنا كل أمل.. واننا ننجرف نحو البحر . ولكن يجب الا نتهاون فى التجديف ، حتى نعرقل الاندفاع إلى الوراء بكل قوانا ، ريثما يعود كندت سالما إلى الطوف مرة أخرى .

وانقضت خمس دقائق ، ثم عشر . . . ثم نصف ساعة . وزدادت النار صغراً . وكانت تختفى بين لحظة اخرى عندما ننزلق إلى حوض البحر . وبات صوت الأمواج التى تصطدم بالشاطىء مجرد همس بعيد . ثم برز القمر فى السماء . واستطعنا ان نرى بصيصا من ضوئه وراء قمم النخيل فوق ارض الجزيرة، ولكن السماء كانت تبدو معتمة تتناثر فيها السحب .

وسمعنا أصوات الوطنيين وهم يغمغمون ويتبادلون الحديث . وفجأة لاحظنا أن أحد الزوارق قد انقطعت الحبال التى تربطه إلى الطوف ، وأنه اختفى فى البحر .. بينما أصاب التعب والرعب بقية الرجال فى الزوارق الثلاثة الأخرى، فأصبحوا يجرون أجسامهم جراً .. ومضى الطوف (كون — تيكى) ينحرف أكثر وأكثر نحو البحر الفسيح .

وسرعان ما تراخت حبال الزوارق الثلاثة الباقية ، واصطدمت الزوارق بجانب الطوف ، ثم صعد أحد الوطنيين على ظهره ، وأشار بهزة من رأسه إلى الأرض . .

كان ينظر فى قلق نحو النار التى أصبحت تختفى الآن فترات طويلة فى كل مرة ، وتبدو بين حين وآخر كشرارة بعيـدة . كنا ننحرف بسرعة ، وهدير البحر عال كعادته ، وكل الحبـال على ظهر الطوف تصر وتئن . .

وغمرنا الوطنيين بالسجائر ، وأسرعت بكتابة رســالة يحملونها معهم لتسليمها إلى كندت إذا عثروا عليه ، كتبت فيها : « خذ اثنين من الأهالى معك فى الزورق المطاطى ، ولا تعد وحدك فيه » .

كنا نفترض أن الأهالى لن يرضوا بالنزول مع كندت فى زورقه إذا وجدوا أن البحر غير ملائم . وأخذ الوطنيون الرسالة وقفزوا إلى زوارقهم واختفوا فى الليـل البهيم ، وكان آخر ما سمعناه منهم هو صوت صديقنا الأول ينادى فى الظلام : مساء الخير .

ثم ساد الصمت التام ، كما كان ونحن على بعد ألفى ميل من أقرب مكان للأرض .

وفى الساعة العاشرة مســاء فقدنا الأمل الأخير فى رؤية كندت مرة أخرى . وجلسنا صامتين عند حافة الطوف ، نأكل بضع قطع من البسكويت ، ونتبادل إرسال الاشارات الضوئية من قمة السارية ، التى بدت عارية بلا شراع .

وقررنا أن نظل نرسل إشارات المصباح طوال الليل إلى أن نعرف أين ذهب كندت ، وقد رفضنا الاعتقاد بأن اللجج قد طوته ، ولم يبد على أحد منا أية رغبة فى النوم .

* * *

كانت الساعة العاشرة والنصف ، عندما أخذ بنجت يهبط من فوق السارية المهتزة بعد انتهاء نوبته ؛ ثم أخذنا جميعاً نرهف آذاننا . لقد سمعنا أصواتاً واضحة تنبعث من البحر وسط الظلام . إنها الأحاديث التى تتردد باللغة البولينزية تعود مرة أخرى . وأخذنا نصرخ فى الظلام بكل ما فينا من قوة . فصاحوا يردون علينا ، وكان صوت كندت بينهم .

واستبد بنا التأثر إلى حد الجنون . . لقد تبدد تعبنا فجأة ، وزالت كل السحب المعتمة من عيوننا . ماذا يهم إذا جرفنا التيار بعيداً عن انجاتو . هناك جزر أخرى فى البحر . إن الكتل الخشبية التسع التى تحملنا تستطيع أن تنطلق الى حيث تشاء ، طالما أننا نحن الستة قد التأم شملنا جميعاً مرة أخرى فوق (كون — تيكى) .

وبرزت ثلاثة زوارق وطنية من بين الظلام ، ترتفع فوق الأمواج ، وكان كندت أول من قفز على ظهر كون — تيكى العتيدة العزيزة ، وتبعه ستة من الرجال السمر . . لم يكن هناك وقت كثير للشرح . إن أهالى

الجزيرة يجب ان ينالوا هداياهم ، و يعودوا إلى رحلتهم المغامرة ، الى الجزيرة مرة أخرى ، وعليهم أن يجدوا طريقهم دون ان يروا ضوءاً او أرضاً ؛ مستعينين بالنجوم وحدها ، عكس الريح والأمواج ... و كافأناهم بالمؤن الوفيرة والسجائر والهدايا الأخرى ؛ ثم صافحنا كلاً منهم مصافحة حارة باليد في وداع أخير .

كان واضحاً أنهم قلقون على مصيرنا . . وأشاروا إلى الغرب بطريقة توحي بأننا نسير نحو صخور خطرة . . وترقرقت الدموع فى عينى زعيمهم ، وقبلنى فوق ذقنى فى حنان ، مما جعلنى أشكر العناية الإلهية التى أطالت لحيتى . . وقفزوا بعد ذلك إلى زوارقهم تاركين إيانا نحن الستة فوق الطوف وحيدين مرة أخرى .

وتركنا الطوف ينطلق كما يشاء .. بينما جلسنا نستمع إلى قصة كندت.

قال إنه انطلق إلى الأرض فى القارب المطاطى مع زعيم الوطنيين ، الذى جلس عند المجدافين الصغيرين ، يجدف بنفسه ليقود الزورق إلى الثغرة التى تختفى بين الصخور . . وفجأة شاهد كندت فى دهشة الإشارات الضوئية التى كانت ترسلها كون — تيكى تطلب منه العودة ، فأشار إلى الزعيم الوطنى بالعودة . ولكنه رفض إطاعة الأمر ، فحاول كندت أن يمسك المجداف بنفسه ، ولكن الزعيم أبعد يديه عنه .. ولما كان هدير الموج فوق الصخور يزمجر من حولهما ، فانه وجد ألا فائدة من القتال .

وانطلق الزورق بهما من خلال الثغرة بين الصخور ، ثم ارتفع فوق كتلة مرجانية صلبة توجد على الجزيرة نفسها ، حيث أمسك بعض الأهلين بالزورق المطاطى وجذبوه إلى الشاطىء . . . ووقف كندت وحده تحت أشجار النخيل يحوطه جمع كبير من الأهلين يتحدثون معا بلهجة لا يفهمها .. لقد احتشد حوله جمع كبير من الرجال والنساء والأطفال السمر الحفاة الأقدام ، وراحوا يتحسسون القماش الذى صنعت منه ملابسه ، وكانوا هم يرتدون ملابس أوربية قديمة بالية ، بينما لم يكن هناك رجل أبيض واحد فى الجزيرة .

وبحث كندت عن أكثرهم ذكاء ، وأخذ يشير إليهم بأنه يجب عليهم أن يعودوا معه فى الزورق ، ثم جاء رجل بدين ضخم الجثة يخوض فى الماء أدرك كندت أنه زعيمهم ، فقد كان يضع على رأسه قبعة قديمة ، ويتحدث بصوت مرتفع يوحى بالسلطان . .

وأوسع له الجميع الطريق ، بينما أخذ كندت يشرح له بالنرويجية والانجليزية كيف أنه فى حاجة إلى بعض رجال يعودون معه إلى الطوف لإنقاذه قبل أن يجرفه التيار بعيدا . وبرق وجه الزعيم وان كان لم يفهم شيئا .. وعلى الرغم من احتجاجات كندت العنيفة ، فقد أخذ الجمع كله يدفعه إلى الجزيرة ، حيث استقبلته كلاب الجزيرة وخنازيرها ، وفتيات البحار الجنوبية الحسناوات ، اللواتى جئن يحملن إليه الفاكهة الغضة . .

كانت نوايا الوطنيين واضحة .. انهم يريدون الفوز بما على ظهر سفينتنا من أشياء كثيرة طيبة يعرفون أن سفن البيض تمتلىء بها .. فإذا استطاعوا

الاحتفاظ بكندت على الشاطئ . فاننا سنضطر إلى العودة إلى الجزيرة بالسفينة العجيبة .

ولجأ الوطنيون إلى خدعة أخرى .. أخذوا يشيرون إلى كندت بأن بقية زملائه ستحضر إلى الشاطىء من ناحيته الأخرى . . واستولت الحيرة والدهشة على كندت بضع دقائق وفى تلك اللحظة سمعت أصوات عالية من ناحية الشاطىء . حيث كان النساء والأطفال يرعون النار المشتعلة ..

لقد عادت الزوارق الثلاثة . وأحضر الرجال رسالة لـكندت .. وتبع ذلك نقاش وضجيج حاد اشترك فيه الجميع .. فان الذين كانوا فى البحر وشاهدوا ماحدث للطوف ، أدركوا أنه لافائدة من الاحتفاظ بكندت على أمل استدراج بقية زملائه الى الشاطىء . وانتهى الجدل باقناع بحارة الزوارق الثلاثة بمصاحبة كندت الى البحر لاقتفاء أثر كون — تيكى .

وعادوا الى البحر فى تلك الليلة الحارة ومعهم الزورق المطاطى وهو يتراقص وراءهم فوق الماء ، بينما وقف بقية الأهلين ساكنين الى جوار نارهم المحتضرة ، يرقبون صديقهم الأشقر الجديد وهو يختفى بمثل السرعة التى جاء بها .

واستطاع كندت ومرافقوه أن يشاهدوا الاشارات الضوئية الخافتة المنبعثة من الطوف الذى جرفه التيار بعيدا ، وذلك عندما كانت الأمواج

ترفع قوار بهم . كانت قوارب الوطنيين الطويلة الرفيعة المدعمة بعوامات على جانبيها ، تشق الماء كالسكين ، بينما خيل الى كندت أن دهرا كاملا قد انقضى قبل أن يستقر مرة أخرى فوق كون — تيكى .

وسأله تورستاين فى حسد : هل قضيت وقتا على الشاطىء ؟

فقال كندت ليغيظه : آه لو رأيت فتيات الهولا ..

وأنزلنا الشراع ، ورفعنا المجاديف ، وزحفنا نحن الستة نحو الغرفة الصغيرة المصنوعة من الخيزران ونمنا كالأحجار فوق شاطىء انجاتو .

وظلت التيارات تجرفنا عبر البحر ثلاثة ايام كاملة دون ان تقع عيوننا على الأرض . كنا نندفع نحو صخور (تا كوم) و (راروبا) التى تنذر بالشر والتى تسد مساحة من البحر امامنا تتراوح بين ٤٠ و٥٠ ميلا و بذلنا جهد البائس للاتجاه بالطوف شمال هـــذه السلسلة الصخرية الخطرة ، و بدا بعض الوقت ان الأمور تسير على ما يرام ، الى ان فوجئنا ذات ليلة بزميلنا الذى يتولى الحراسة وقد نادانا جميعاً للخروج الى السطح .

لقد تغير اتجاه الريح ، واصبحنا ننـدفع راساً نحو صخور (تا كوم) ، و بدات الأمطار فى الهطول ؛ ولم نـكن نرى شيئاً امامنا على الاطلاق ، ولـكن الصخور لا يمكن ان تكون بعيدة عنا .

وفى منتصف الليل عقدنا مجلساً حربياً . لقـــد أصبحت المسألة الآن

مسألة انقاذ أرواحنا والاتجاه نحو الشمال لا امل منه الآن ، ويجب ان نحاول الاتجاه نحو الجنوب بدلا من ذلك. وطوينا الشراع مرة أخرى، وأعدنا المجاديف الى الماء ؛ وبدانا مرحلة خطرة من السير ، وريح الشمال غير المحققة تهب من ورائنا . فإذا هبت الرياح الشرقية مرة أخرى قبل ان نجتاز المواجهة الصخرية التي تمتد ٥٠ ميلا ؛ فلا بد ان نقع بين الأمواج العاتية وتحت رحمتها .

واتفقنا على كل ما يجب عمله إذا بات تحطيم الطوف وشيكا .. لقد أعددنا الطوف المطاطى فوق السطح ، ووضعنا به جهاز الإرسال اللاسلكى فى غلاف لاينفذ منه الماء ، وكمية صغيرة من المؤن وزجاجات الماء والأدوات الطبية . إن هذه الأشياء ستحملها الأمواج إلى الشاطىء وحدها إذا اضطررنا نحن إلى تسلق الصخور سالمين خالى الوفاض .

وربطنا فى مؤخرة كون — تيكى حبلا به عوامة ستجرفها المياه أيضاً إلى الشاطىء ، حتى نستطيع أن نستخدمها فى جنوب الطوف إذا جنح على الصخور .

وهكذا زحفنا إلى فراشنا ، وتركنا حارساً عند الدفة تحت الأمطار المنهمرة فى الخارج .

ومع استمرار هبوب ريح الشمال ، كنا نتزلق ببطء على طول سلسلة الصخور المرجانية التى تكمن لنا وراء الأفق .. و بعد ظهر أحد الأيام ، هدأت الريح قليلا ، وعند ما عادت تهب من جديد كانت قد حولت اتجاهها نحو الشرق . وقال أريك اننا أصبحنا الآن بعيدين فعلا عن الصخور ، وإن هناك بعض الأمل فى أن نسير بعيدين عن أقصى الطرف الجنوبى لصخور (راررويا) ، ولكننا يجب أن نحاول الدوران حولها قبل أن نصل إلى صخور أخرى وراءها .

وعندما حل الليل ، كنا قد قضينا مائة يوم فى البحر .

واستيقظت فى ساعة متأخرة من الليل وقد استولى على احساس بالقلق والاضطراب . لقد كان هناك شىء غير عادى فى حركة الأمواج ، ان حركة الطوف تختلف قليلا عن حركتها عادة فى مثل تلك الظروف . لقد اصبحنا مرهفى الإحساس بأى تغيير فى اصوات الكتل الخشبية . وتذكرت على الفور الاجتذاب نحو شاطىء قريب .. ولم يكن هناك ما نراه امامنا غير البحر ، ومع ذلك فاننى لم استطع النوم فى هدوء .

ومر الوقت .. وعند الفجر ، هبط تورستاين قبل السادسة صباحا من فوق السارية ، وقال انه يستطيع ان يرى بعيدا صفا كاملا من جزر صغيرة خالية من النخيل . واخذنا على الفور نجدف بكل ما نستطيع من

قوة نحو الجنوب . لا بد ان ما رآه ثورستاين هو جزر مرجانيـة صغيرة متناثرة كاللاليء فى عقد وراء صخور (رارويا) .. لا شك اننا وقعنا بين براثن تيار متجه نحو الشمال .

ودلت الدراسة التى قمنا بها من فوق السارية على أنه حتى اذا كان مقدم الطوف يشـير الى اعمق جزيرة فى السلسلة ، فان اندفاعنا كان عظيما الى حد أننا لم نـكن نتقدم فى الاتجاه الذى يشير اليه مقدم سفينتنا . لقد كنا نندفع رأساً نحو الصخور .

ومع أنه كان لا يزال بعض الأمل فى أن نسير فى سلام ، إلا أن سمك القرش كان يتابعنا على مقربة من مؤخرة الطوف ، ومن ثم بات من المستحيل على أحدنا أن يغطس تحت الطوف ليدعم الأخشاب السفلى بحبال جديدة .

و تبين لنا أنه لم يعد أمامنا غير ساعات قلائل فوق ظهر (كون — تيكى) يجب أن نستغلها فى الاستعداد لمواجهة تحطم الطوف الذى لا مفر منه فوق الصخور المرجانية ، كان كل واحد منا يعرف ما يجب عليه عمله عندما تحين اللحظة الحاسمة . كل منا يعلم مسئوليته المحددة ، حتى لا يقع أى ارتباك أو يطأ كل منا قدم الآخر عندما تأزف الساعة و يصبح لـكل ثانية قيمتها .

كانت (كون — تيكى) ترتفع إلى أعلى ثم تهبط إلى أسفل مرة بعد

أخرى ، والرياح تضطرنا للبقاء فى الداخل . لم يكن هناك أى شك فى أن هذا هو اضطراب الأمواج الذى تحدثه الصخور ، فقد كانت بعض الأمواج تتقدم والأخرى تتراجع بعد أن تصطدم عبثاً بالجدار المحيط بها .

كنا لا نزال ننطلق بالشراع على أمل أن نتمكن رغم ذلك من المرور بسلام . وبينما كنا نندفع فى اتجاه جانبى ، رأينا من فوق السارية أن صف الجزر التى تكسوها النخيل يتصل بشعاب مرجانية ، بعضها فوق الماء وبعضها تحته ، وأن صخور رارويا المرجانية ذات شكل بيضاوى يبلغ قطرها ٢٥ ميلا ، فيما عدا صخور تاكيدم الملحقة بها ، وجانبها الأطول يواجه البحر نحو الشرق، حيث جئنا تتقاذفنا الأمواج ، بينما تمتد الصخور نفسها فى صف واحد من الأفق إلى الأفق .

وعلى ظهر (كون — تيكى) تمت كل الاستعدادات لنهاية الرحلة . وضعنا كل شىء ذى قيمة فى الكابين وربطناه بقوة وحزمنا الوثائق والأوراق فى أكياس لا ينفذ منها الماء ، ومعها الأفلام والأشياء الأخرى التى لا تتحمل الوقوع فى الماء ، بينما غطيت « الكابين » المصنوعة من الخيزران بقماش سميك ، وربطت بحبال قوية خاصة . وربطنا أطول ما لدينا من الحبال إلى المرساة التى صنعناها بأيدينا ، حتى تواجه كون — تيكى الأمواج بمؤخرتها أولا عندما نلقى المرساة فى الماء . وكانت المرساة مكونة

من صفائح ماء خالية وقد ملئت ببطاريات اللاسلـــكى المستعملة وبعض الخردة الثقيلة ، وقطع من الأخشاب التى وضعت فى تقاطع .

كان الأمر رقم (٤) الذى صدر فى النهاية هو : تمسكوا بالطوف مهما حدث . . . علينا أن نتمسك بسطح الطوف بإحكام ، وأن ندع الـــكتل التسع الـــكبيرة تتحمل ضغط الصخور .

إننا إذا قفزنا إلى الماء ، فسنصبح ضحايا لا حول لنا ولا قوة امام قوة الجذب التى قد تقذف بناعلى صخور المرجان الحادة . وسينقلب الطوف المطاطى بين الأمواج المنحدرة . ولما كانت حمولته ستـــكون ثقيلة بوجودنا فيه ، فإنه سيتمزق أربا فوق الصخور . أما الـــكتل الخشبية فإنهـــا سوف تصل إلى الشاطىء إن عاجلا أو آجلا ونحن معها إذا استطعنا أن نظل ممسكين بها بقوة .

وطلب إلى الجميع بعد ذلك أن يضعوا أحذيتهم فى أقدامهم لأول مرة منذ مائة يوم ، وأن تـــكون أحزمة النجاة على استعداد . . . . وكان الاحتياط الأخير غير ذى قيمة ، فإذا سقط أحدنا فى الماء ، فانه قد يتحطم حتى يموت .... دون أن يغرق .

كان لايزال لدينا وقت نضع فيه جوازات سفرنا فى جيوبنا مع بضعة دولارات بقيت معنا . لم تـــكن قلة الوقت هى التى تثير قلقنا ... كانت

تلك ساعات كلها قلق ولهفة ، يجرفنا خلالها التيار فى اتجاه جانبى دون أمل خطوة بعد خطوة نحو الصخور الرهيبة .

كان الهدوء يسود سطح الطوف ، ونحن نزحف داخل المقصورة الخيزرانية أوخارجها فى سكون ، أو نقوم بأعمالنا فى صمت ، وقد بدت على وجوهنا الجادة أننا لا نشك فيما ينتظرنا من مصير ، بينما دل عدم شعورنا بالعصبية على أننا اكتسبنا تدريجا ثقة لاتتزعزع فى الطوف .. وأننا أصبحنا نؤمن بأنه اذا كان قد جاء بنا الى هذا المكان عبر البحر ، فانه سيعمل أيضا على أن يصل بنا الى الشاطىء أحياء .

وفى داخل الكابين كانت الفوضى ضاربة أطنابها بين علب المئونة والشحنة التى ربطناها بالحبال ، حتى لم يكن ثورستاين يجد لنفسه مكانا فى ركن اللاسلكى ، بعد أن استطاع ادارة جهاز ارسال الموجة القصيرة .

كنا الآن على بعد أكثر من أربعة آلاف ميل بحرى من قاعدتنا القديمة فى « كالاو » ، حيث ظللنا على اتصال لاسلكى منتظم بالمدرسة البحرية التابعة لبيرو ، بينما ابتعدنا عن « هال » وفرانك وبقية هواة اللاسلكى فى الولايات المتحدة . وشاءت المصادفة فى اليوم السابق أن تصلنا بأحد هواة اللاسلكى فى (راروتونجا) بجزر كوك ، واستطاع ثورستاين تنظيم الاتصال به فى الصباح الباكر ، وبينما كان البحر يواصل دفعنا نحو

الصخور شيئا فشيئا ، كان ثورستاين جالسا أمام مفاتيحه ينادى رارو تونجا .

وفيما يلى ما كتبناه فى يوميات الطوف (كون — تيكى) عن تلك الفترة :

الساعه ١٥ر٨ : إننا نقترب من الأرض ببطء . نستطيع الآن أن نرى بالعين المجردة أشجار النخيل فى الداخل من ناحية اليسار .

٤٥ر٨ : أدارتنا الرياح إلى وضع أكثر معاكسة لنا . لم يعد هناك أمل فى الخروج من المأزق . لم يكن بيننا من يشعر بأية عصبية . مجرد استعدادات عادية على السطح . كان هناك شيء يبدو أمامنا فوق الصخور ، وكأنه بقايا سفينة شراعية غارقة ، وقد يكون مجرد أكداس من الأخشاب التى تقذفها الرياح على سطح الماء .

٤٥ر٩ : الرياح تدفعنا رأسا نحو الجزيرة الأخيرة التى نراها وراء الصخور . نستطيع الآن أن نرى الشعب المرجانية كلها . إنها تبدو كحائط أبيض من البناء ، تشوبه بقع حمراء ، تكاد تبرز من الماء كحزام يحيط بكل الجزر وعلى

طول الصخور . زبد الأمواج الأبيض يرتفع نحو السماء ، بينما شرع بنجت فى إعداد وجبة ساخنة لنا . إنها آخر وجبة قبل اللحظة الحاسمة . كانت هناك بقايا سفينة غارقة تقبع فوق الصخور . أصبحنا الآن قريبين من الأرض ، حتى إننا استطعنا أن نرى ماوراء البحيرة اللامعة التى تقع خلف الصخور ، ونرى حدود بقية الجزر الأخرى على الناحية الأخرى من البحيرة .

وفى الوقت الذى نكتب فيه هذه الكلمات ، عاد هدير الموج يقترب منا مرة أخرى قادما من الصخور بصورة مثيرة معلنا بداية الفصل المثير لطوف كون تيكى .

الساعة ٩٫٥٠ : أصبحنا الآن قريبين جداً . إننا نندفع على طول الصخور . لم يبق بيننا وبينها أكثر من مائة ياردة أو حوالى ذلك . كان ثورستاين يتحدث إلى هاوى اللاسلكى فى راروتونجا .

أصبح جليا أننا لابد أن نقفز الآن إلى الماء . الجميع

فى حالة معنوية طيبة . ســـــوف نجتاز هذه المحنة رغم قسوتها .

***

وبعد بضع دقائق ، اهتز الطوف حول نفسه ، واستدارت مؤخرته نحو الأمواج العاتية ، وظللنا متمسكين به بضع دقائق ثمينة . بينما يواصل تورستاين الدق على مفاتيحه فى جنون . لقد اتصل مرة أخرى براروتو نجا. وهدر الموج فى زئير رهيب ، وارتفعت اللجج وهبطت . كان الـكل يعملون فوق سطح الطوف . لقد أبلغ تورستاين الرسالة . قال إننا نندفع نحو صخور (راررويا) ، وطلب الى راروتو نجا أن تصغى الى نفس الموجة مرة كل ساعة ، فاذا دام صمتنا أكثر من ٣٦ ساعة ، فعليها أن تبلغ الأمر الى السفارة النرويجية فى واشنطون ، وكانت آخر كلمات تورستاين :

— لم يبق غير ٥٠ ياردة . اننا ذاهبون . الوداع .

ثم أغلق جهاز الارسال ، وحزم كنندت الاوراق باحكام .. ثم زحف الاثنان معا بأسرع ما يستطيعان للانضمام الى بقيتنا . فقد بدا الآن بوضوح أن المرساة قد هوت إلى الماء .

وزادت وطأة الأمواج ثقلا . وأحسست بالطوف يندفع فى الهواء ثم يستقر فى الماء .. وتـكرر ذلك عدة مرات متتالية ...

ودوى الأمر مرة أخرى : تمسكوا بالطوف ... تمسكوا به ولا تهتموا بالشحنة .

لقد أصبحنا الآن قريبين من مسقط المياه الداخلى ، ولم نعد نسمع الهدير الثابت المستمر المنبعث من الصخور . أصبح كل ما يدوى فى آذاننا ضجيجاً منفرداً فى كل مرة ترتطم فيها الأمواج بأقرب الصخور الينا .

كانت كل الأيدى على استعداد . كل منا يتمسك بقوة الحبل الذى يعتقد أنه أكثر أمنا . وزحف أريك وحده داخل الكابين فى اللحظة الأخيرة . . . كان هناك جزء واحد من البرنامج لم ينفذه بعد . . . إنه لم يعثر على حذائه .

لم يكن هناك من يقف فى المؤخرة . . . فهناك ستأتى الصدمة الأولى مع الصخور . بل إن الدعامتين الثابتتين من أعلى السارية إلى مؤخرة الطوف لم تكونا منطقة آمنة ، إذ لو سقطت السارية فستظل مدلاة فى الماء فوق الصخور .

وتسلق هرمان و بنجت وثورستاين فوق بعض الصناديق التى ربطت بإحكام أمام جدار الكابين ، وبينما تعلق هرمان بالحبال المدلاة من طرف السقف ، تعلق الآخران بالحبل الذى يرفع به الشراع فوق السارية . واخترت أنا وكندت المكان الواقع بين المقدمة والسارية ، اعتقاداً أن الحبل المتصل

بالمقدمة سوف يظل متصلا بداخل الطوف لو سقطت السارية والـكابين وكل شيء آخر فى المـاء .

وأدركنا أننا أصبحنا فى قبضة الموج ، وانقطع حبل المرساة ، وارتفع البحر تحتنا مباشرة ، واحسسنا كأن (كون – تيكى) قد ارتفعت فى الهواء .

لقد حلت اللحظة الحاسمة .

إن الموج يتقاذفنا بسرعة تلهث لها الأنفاس ، وسفينتنا التى تحتضر ، تصر وتئن وهى ترتعد من تحتنا . ولا أدرى ما الذى جعلنى ألوح بذراعى فى الهواء ، وأصيح بأعلى ما فى صوتى من قوة :

— مرحى . .

لقد كنت أحس من ذلك براحة خاصة . . إنه عمل لا ضرر منه على أية حال . وظن الآخرون أن مسا من الجنون قد أصابنى . ومع ذلك فقد تألقت وجوههم وابتسموا لى فى إشفاق .

وظللنا نندفع مع الموج ، واللجج تندفع من ورائنا . وأحسسنا بأن هذه هى النار التى تعمد (كون–تيكى) فيها . وسادنا شعور بأن كل شيء يجب أن يسير على ما يرام .

ولكن هذا الاحسساس سرعان ما تلاشى ، فقد ارتفعت موجة جديدة عالية فى مؤخرتنا ، وبدت كجدار زجاجى أخضر براق ٠وتتابعت الأمواج وراءها على ارتفاع شاهق . وأحسست بضربات عنيفة تنهال علينا وغمرنا فيضان من الماء . إن قوة الجذب قد غمرت كل جسمى حتى إننى كنت مضطرا إلى شد كل عضلة فى كيانى . . ومع ذلك لم أكن أفكر إلا فى شىء واحد ٠٠٠ أن أظل متمسكا بالطوف .

ولا ريب أن الذارعين فى مثل هذا الموقف اليائس على استعداد للتمزق قبل أن يقبل العقل ترك قبضتهما .

وأحسست أن جبلا من الماء قد مر فوقى ، وأنه أرخى قبضته الشيطانية عن جسمى . ٠ ولكنه ما لبث أن عاد بهديره وزئيره الذى يمزق الآذان ورأيت كندت مرة أخرى متعلقاً بالحبل إلى جوارى ، وقد أصبح جسمه كالكرة ٠٠٠ وفوق سطح الكابين الذى ظل يبرز من الماء ، تعلق ثلاثة آخرون وقد التصقوا بالسقف ، والماء يغمرهم ويمر من فوقهم ٠٠ ولكننا كنا لا نزال عائمين ٠

وجددت قبضتى ، وأحطت الحبل بذراعى وساقى ، بينما ترك كندت مكانه ، وقفز منضما إلى الآخرين فوق الكابين ، وسمعت هتافات تأكيد منهم ، وفى نفس الوقت ، شاهدت جدارا أخضر جديدا يرتفع فى

الهواء ، ويندفع نحونا كالبرج • وصحت محذراً إياهم ، وجمعت أطراف جسمى ليصبح صغيراً قدر المستطاع • • • لقد عاد الجحيم فوقنا مرة أخري •

واختفت كون — تيكى تماماً تحت كتل الماء • كان البحر يشدنا ويجذبنا بكل ما يستطيع من قوة • • • إنه يجذب هذه الأكوام البشرية الصغيرة المسكينة •.

واندفعت الموجة الثانية فوقنا ، تتبعها الثالثة . ثم سمعت صيحة انتصار تنبعث من كنندت الذى كان يتمسك الآن بسلم الحبال . . قال : انظروا إلى الطوف • إنه لا يزال فوق الماء •

ونظرنا • فرأينا السارية المزدوجة والكابين ، وقد أصابتهما الأمواج العاتية بالتواء فقط •

ومرة أخرى أحسسنا بالنصر على عناصر الطبيعة • ومنحنا هذا الزهو قوة جديدة •

ورأيت الموجة التالية قادمة كالبرج ، أعلى من كل الأمواج الباقية • وصحت مرة أخرى محذراً الآخرين وأنا أتسلق الدعامة المرتفعة ، إلى أعلى ما استطيع من سرعة ، وتمسكت بها بقوة ولكنى ما لبثت أن اختفيت وسط الجدار الأخضر الذى ارتفع فوقنا عاليا • أما الباقون الذين كانوا إلى الخلف

أ كثر منى ، ورأونى أختفى أولا بين الأمواج ، فقد قدروا ارتفاع هذا الجدار المائى بحوالى ٢٥ قدما . . . . وما لبثت الموجة الكبرى أن وصلت إليهم وطوتهم تحتها . .

وكانت الفكرة الوحيدة التى تسيطر علينا جميعاً هى : تمسكوا . . تمسكوا . . تمسكوا . .

لابد أننا ارتطمنا بالصخور فى ذلك الحين . . . لقد أحسست بالجهد العنيف وأنا متعلق بالدعامة التى بدأت تتراخى وتنحنى فى اهتزاز . . . ولكن سواء أكانت هذه الضربات تجىء من أعلى أو من أسفل ، فان الماء لم يغمرنا أكثر من ثوان قليلة ، و إن كانت الضربات تتطلب احتمالا أكثر مما فى أجسامنا عادة . إن هناك قوة أعظم فى الجسم البشرى مما فى العضلات وحدها ، لقد أصررت على أن أموت فى هذا الوضع ــ إذا كان لابد لى أن أموت .

و بينما كان الموج يزداد هديرا وهجوماً علينا ، رأينا منظرا بشعاً . لقد تغيرت (كون ـــ تيكى) تماما ، وكأنما مرت عليها عصا ساحر . . إن الطوف الذى عرفناه فى البحر أسابيع وشهورا لم يعد له وجود .

لقد أصبح عالمنا البهيج هشيما وحطاماً فى ثوان قليلة . ورأيت رجلا واحدا إلى جوارى . كان يرقد على بطنه عند حافة سطح الكابين ووجهه

إلى أسفل ، وقد امتدت ذراعاه على الجانبين ، بينما تهشم الكابين نفسه وكأنه منزل من أوراق اللعب . . . وكان صاحب هذا الجسم الساكن هو هرمان.

لم تكن هناك أية علامة أخرى على الحياة . . . وجبال الماء تهدر وترعد عبر الصخور . أما السارية المصنوعة من الخشب المتين ، فقد تحطمت على الجانب الأيسر للطوف وكأنها عود من الثقاب ، وحطم جزؤها الأعلى عند سقوطه سقف الكابين ، وأصبحت السارية تميل بزاوية منخفضة فوق الصخور . . . أما في المؤخرة ، فقد التوت الدفة ، وتحطمت الدعامات المتقاطعة ، وتمزق مجدافها إربا ، كما تحطمت مرآة السفينة عند المقدمة ، وكأنها صندوق من السيجار . . . لقد تمزق السطح كله ، وأصبح كعجينة من الورق المبتل ، فوق الجدار الأمامي للكابين ، واختلطت به الصناديق والعلب والأقمشة وبقية الشحنة ، وأطراف الحبال المبعثرة في كل مكان في فوضى شاملة .

وسرى الرعب البارد في جسمي كله . . . وساءلت نفسي : ما الفائدة في استمرار تمسكي بموقفي الآن ؟ لو أنني فقدت زميلا واحدا هنا ، فسوف ينتهي كل شيء . . . وفي تلك اللحظة ، لم أكن أرى غير جسم بشري واحد بعد الصدمة الأخيرة ، وفي اللحظة التالية ، ظهر جسم ثورستاين المحدودب فوق الطوف ، وقد تعلق كالقرد في حبال السارية ، ثم جاهد للوصول إلى الكتل الخشبية مرة أخرى ، وزحف فوق الأنقاض المكدسة أمام الكابين . أما هيرمان فقد التفت نحوي وعلى شفتيه بسمة مشجعة ، ولكنه لم يتحرك .

وصحت على أمل أن أعرف مكان الآخرين ، وعندئذ سمعت صوت بعجت المادىء وهو يقول إن الجميع فوق السطح . . ؟ كانوا يرقدون وقد تعلقوا بالحبال وراء الحاجز الذى تكون من قطع الخيزران المحطمة .

حدث كل هذا فى ثوان معدودات ، بينما كانت المياه لا تزال تجذب كون- تيكى . . . وجاءت موجة جديدة تسعى خلفها . . . فصحت لآخر مرة بأعلى صوتى : تمسكوا بموقفكم . . .

ثم توقف صوتى بعد أن اختفيت بين لجج الماء التى اندفعت فوق . . ورأيت الكتل الخشبية وهى تتضارب وتصطدم بصخرة حادة من الشعب المرجانية ، دون أن ترتفع فوقها . . . ثم أخذنا ننجذب مرة أخرى كما شاهدت الزميلين اللذين تمددا فوق سطح الكابين . ولكن أحدا منا لم يبتسم هذه المرة .

ومن بين أكداس الخيزران المحطمة ، سمعت صوتا هادئا ينادى : لا فائدة من ذلك .

وأحسست أنا نفسى بقنوط مماثل . . . وبينما كانت السارية تزداد غرقا على الجانب الأيسر ، وجدت نفسى متعلقا بحبل مرتخ بعيدا عن الطوف .

وجاءت الموجة التالية ، وعندما ذهبت ، كان قد أصابنى إرهاق مميت . وكانت الفكرة الوحيدة التى تتسلط على رأسى ، هى أن أتسلق الكتل الخشبية ، لأنام وراء الحاجز الخيزرانى . وعندما تراجعت الأمواج ، رأيت

للمرة الأولى تلك الصخور الحمراء الوعرة التي تسكن تحتنا ، وشاهدت ثورستاين وقد وقف منحنيا فوق الشعب المرجانية وقد أمسك بحزمة من اطراف الحبال التي تتدلى من السارية. اما (كندت) فكان يقف في المؤخرة مستعد القفز.

وصحت فيهم : إننا يجب ان نبقى جميعا فوق الكتل الخشبية ، فقفز ثورستاين فوقها من جديد بعد ان القاه ضغط المياه في البحر .

وتوالت علينا موجتان اوثلاث موجات وقدضعفت قوتها .. ولا اذكر ماحدث عندئذ غير زبد الموج ، وانا اهوى وارتفع نحو الصخور الحمراء التي غمرها زبد الموج ورذاذ الماء المالح . . واستطعت ان اشق طريقي إلى الطوف ، وسعينا جميعا للوصول إلى الطرف الآخر من الكتل الخشبية الذى اصبح اعلاها فوق الصخور .

وفى نفس الوقت ، جثا كندت على ركبتيه ثم قفز فوق الصخور مستعينا بالحبل الذى يتدلى من المؤخرة ، وقبل أن تصل إليه الموجة التالية كان قد خاض خلال الماء حوالى ٣٠ ياردة ، ووقف سالما ...

وجاء اريك يزحف من فوق الكابين الذى انهار ، وكان يلبس حذاءه ، وأصيب بتجت بصدمات خفيفة عندما سقطت السارية ، ولكنه استطاع أن يزحف تحت حطام الكابين حتى وصل إلى جوار أريك .

ولو كنا نعرف من قبل إلى أى حد سوف تتحمل ألواح الخيزران المربوطة وكيف انها ستبقى متعلقة بالكتل الرئيسية رغم ضغط الماء ، لظللنا جميعا راقدين هناك .

. ووقف اريك فوق كتل المؤخرة يستعد للقفز ، وعندما انحسر الموج ، قفز هو الآخر فوق الصخور ، وجاء دوو هرمان ، ثم بنجت ، وفى كل مرة كان الطوف يزداد انجذابه بعيداً ـ وعندما حل دورى أنا وثورستاين كان الطوف قد اصبح بعيداً عن الصخور ...

و بدأ الجميع يعملون للخلاص . . . كنا قد اصبحنا على بعد ٢٠ ياردة بعيداً عن هذه الدرجات الشيطانية المنحوتة فى الصخور ، والأمواج تترامى فوقنا واحدة وراء الأخرى .

وعلى مسافة بعيدة فوق الصخور ، وجدنا الطوف المطاطى وقد جرفه الماء إلى هناك ، فأخلى من المياه التى تملؤه ، وملأناه بأهم ما أنقذناه من المهمات ، كأجهزة اللاسلكى والمؤن وزجاجات الماء ، وسحبنا ذلك كله عبر الصخور ، حيث كدسناه على قمة كتلة ضخمة من المرجان ، ثم عدنا إلى حطام الطوف نبحث عن حمولة جديدة ، ولم نكن نعلم ماسوف يحدث فى البحر عندما تبدأ تيارات المد عملها حولنا . و بين المياه الضحلة خلال الصخور ، رأينا شيئا يتوهج تحت ضوء الشمس ، فخضنا الماء إليه ، وكم كانت دهشتنا عندما وجدنا هناك علبتين خاليتين من الصفيح لم نكن نتوقع العثور عليهما فى تلك البقعة .

* * *

كنا نقف فوق الكتل المرجانية الوعرة ذات الاطراف الحادة ، ثم

رحنا نخوض الماء الذى يصل إلى الأعقاب ، فوق قاع غير مستو . ثم بلغ الماء صدورنا . كان الانيمون والمرجان الذى يغطى الصخور ، يجعلها أشبه بحديقة صخرية تغطيها الطحالب . . والطحالب والنباتات المتحجرة ، ذات ألوان خضراء وحمراء وصفراء وبيضاء . . . كانت كل الألوان هناك : سواء بين المرجان أو الطحالب أو القواقع ، والأسماك النادرة التي كانت تتلوى فى كل مكان وفى القنوات الأكثر عمقا ، كانت أسماك القرش الصغيرة التى يبلغ طولها حوالى أربع أقدام تتسلل حولنا تحدق فينا من خلال المياه البللورية الصافية ، ولم يكن فى وسعنا الا أن نهز أيدينا أمامها لتعود وتبقى بعيدة عنا .

لم يكن فى المكان الذى جنح فيه الطوف غير برك من الماء ، وكتل مرجانية ، وعلى مبعدة كانت بحيرة زرقاء هادئة ، وبينما كان المد يتراجع ، كنا نرى المزيد من الجزر المرجانية يبرز من حولنا ، بينما الأمواج التى كانت تهدر رباستمرار على طول الصخور ، أخذت تهدأ وتنخفض ، أما ماذا سيحدث فوق الصخور الضيقة عندما يتدفق المد مرة أخرى .. فهذا شىء لا نعرفه ، ولكننا يجب ان نبتعد . .

كانت الصخور تمتد امامنا ، كأنها قلعة غمرها الماء ، نصفها الأعلى فى الشمال والأسفل فى الجنوب . وفى أقصى الجنوب كانت هناك جزيرة طويلة تغطيها غابة كثيفة من النخيل الشاهق . وأمامنا إلى الشمال مباشرة ، على مسافة تتراوح بين ٦٠٠ و ٧٠٠ ياردة تقع جزيرة نخيل اخرى داخل الصخور ، بينما ترتفع قمم نخيلها الى السماء ، وتمتد شواطئها

الرملية البيضاء كالثلج ، حتى البحيرات الساكنة . . كانت الجزيرة كلها تبدو كسلة خضراء ، تزدحم فيها الأزهار أو قطعة من الجنة . .

واخترنا الاتجاه الى هذه الجزيرة .

ووقف هرمان الى جوارى وقد بدا وجهه الملتحى متألقا . لم ينطق كلمة واحدة ، بل كان يحرك يديه ويبتسم فى هدوء .

إن حطام كون — تيكى لا يزال بعيداً فوق الصخور ، ورذاذ الماء يتناثر فوقها وقد أصبحت حطاماً . . كل شىء على السطح تحطم . . ولكن الكتل الخشبية التسع التى جئنا بها من غابة « كيفيدو » فى فى أكوادور ظلت متماسكة كما كانت .

لقد انقذت ارواحنا ولم يستطع البحر ان يفوز منها بغير جزء ضئيل من شحنتها ، فقد جردنا الطوف من كل شىء له قيمة ، ووضعناه الآن فى سلام فوق قمة اكثر الصخور تعرضا للشمس . . .

لقد ذهبت الأسماك التى كانت تتلوى تحت مقدمة الطوف ، والتى كانت ترشدنا إلى الطريق . ذهبت الدرافيل ، ولم نعد نرى غير أسماك مسطحه غير معروفة ، ذات صور مختلفة ، بعضها كالطاووس ، تتلوى بين كتل الصخور ، وهى تنظر الينا فى فضول . . .

لقد وصلنا إلى عالم جديد .

وألقيت نظرة أخيرة على حطام الطوف ، ولمحت شجرة نخيل صغيرة فى أرض منبسطة ، وقد تدلت منها ثمرة جوز طولها ١٨ سنتيمترا ، فقطفت الثمرة

وخضت الماء نحو الجزيرة ، وعلى مسافة قليلة ، رأيت كندت يخوض الماء نحو الأرض ، فى سعادة ، وقد تأبط تحت ذراعه نموذجا صغيرا للطوف ، كان قد بذل جهداً كبيرا فى صنعه أثناء الرحلة . ومررت أثناء ذلك بزميلنا بنجت ، طاهينا الممتاز . . . كان يسير منحنيا ومياه البحر تبلل لحيته وقد أصيب بتورم فى جبهته . . . وكان يدفع أمامه صندوقا يهتز كلما تدفق الماء نحو البحيرة بتأثير الأمواج العالية .

ورفع الغطاء عن صندوقه فى فخر . . لقد كان صندوق المطبخ ، و به الموقد و كل أدوات الطهى فى حالة طيبة .

ولن أنسى قط خوضى فى الماء عبر الصخور نحو جزيرة النخيل التى تشبه الفردوس ، والتى كانت تزداد كبرا كلما اقتربنا منها .. وعندما وصلت إلى الشاطىء الرملى الذى تغمره الشمس ، خلعت حذائى ، ودفعت أصابع قدمى فى أعماق الرمال الساخنة التى تجفف العظام .

وسرعان ما أحاطت بى قمم النخيل . . وظللت سائرا رأساً نحو وسط الجزيرة الصغيرة . كانت ثمار الجوز الخضراء تتدلى من النخيل ، بينما كانت هناك أشجار أخرى فاخرة تغطيها زهور بيضاء كالثلوج ، ينبعث منها أريج حلو مغر ، حتى كدت أشعر بالإغماء من رائحتها النفاذة .

وفى داخل الجزيرة ، رفرفت بعض الطيور الأنيسة فوق كتفى . . . كانت بيضاء كالضوء ، أو قطع السحاب . . وتسلك العظايا « السحالى »

الصغيرة من تحت قدمى . . وكان أهم سكان الجزيرة ، كابوريا حمراء قانية، تجول فى كل اتجاه . بما سرقته من القواقع الكبيرة التى تشبه البيض فى حجمها ، وقد علقتها فى أجزائها الخلفية الناعمةوركعت على ركبتى ، ودفعت أصابعى فى اعماق الرمل الجاف الساخن .

لقد انتهت الرحلة . نحن جميعا احياء ... لقد هبطنا فوق جزيرة صغيرة غير مأهولة فى البحار الجنوبية ... ويالها من جزيرة ..

وجاء ثورستاين ، وبسط كيسا على الأرض ، ثم القى بنفسه ليرقدعلى ظهره وراح يتطلع الى قمم النخيل والطيور البيضاء التى تدور حولنا دون ضجة او صخب ، وسرعان ما كنا نحن الستة نرقد فوق الرمال .. . ثم تسلق هرمان نخلة صغيرة ، وجذب عنقودا من ثمار الجوز الخضراء ، فقطعنا اطرافها بسكا كيننا الحادة التى تشبه المنجل ، وكأنها بعض البيض ، ورحنا نصب ما فيها من سائل منعش لذيذ فى حلوقنا . . . لقد كان أجمل مشروب فى العالم . انه لبن بارد حلو ، ثمرة نخلة لا بذور لها .

وقال بنجت : انها رطبة قليلا . . . ولكنى لا اعتقد ان الجنة افضل منها فى شيء .

ومددنا اجسامنا فوق الأرض ، وابتسمنا للسحب التى تدفعها الرياح التجارية فوق قمم النخيل نحو الغرب . . . لم نعد نتابع هذه السحب بلاحول ولا قوة .. نحن الآن نرقد فوق جزيرة ثابتة لاتتحرك . . فى بولينزيا.

وبينما كنا نرقدونبسط اعضاءنا .. كان هدير الأمواج التى ترتطم بصخور الشاطىء ، يدوى كقطار يروح ويغدو .. جيئة وذهابا على طول الأفق ..

ان بنجت على صواب .. فتلك هى الجنة .

هـذا الكتـاب

لقد استهدف محرر هذه المجموعة جمع خير ما قرأه فى حياته من روائع الأدب ، وكان له أكبر الأثر فى نفسه ، ومن هذه المجموعة اختار الكاتب المعروف الأستاذ أنيس منصور ما أعجب به منها ، اكثره من القصص وبعضه فى غير القصص ، ولكن يجد فيها القارىء طرافة ومتعة .

ولقد أراد محرر المجموعة أن يفسر لقرائه سبب هذا الجهد الذى أنفقه فى إصدارها ، فقال إن الناشر للكتب ، على غير ما يعتقد أكثر الكتاب الغاضبين ، يقرأ فى حياته المئات من الكتب التى تعرض عليه لنشرها ، ولكن لحسن حظه أنه ينسى أكثرها فى الحال ، ولكنه فى أثناء قراءاته يجد نتفا أو شذرات تثبت فى ذهنه حتى إنه لاينساها قط ، فهى تضاف الى مايعلق بالذهن من أيام قراءاته فى المدرسة . وهى تمتنع من غير قصد على أن يسيطر عليها أجيال من المؤلفين الذين يقرعون بابه ، فتراه يقاومهم قائلا : تغلبوا على ما وعته الذاكرة أو تفوقوا عليها .

هذه هى الفكرة التى أوحت الى محرر هذه المجموعة بجمعها ؛ فقد علقت هذه الشذرات بذهنه وأحب أن يهديها للقراء ، وهى مجموعة كبيرة ، ولذلك لم نر خيرا من إطلاع قراء العربية عليها إلا أن يعهد [illegible] منها إلى كاتب معروف بحسن الذوق وجدة الأسلوب .

كتاب لابد أن يقرأ



